

خصام ونقد

طه حسين

خصام ونقد

خصام ونقد

تأليف
طه حسين

هنداوي

خصام ونقد

طه حسين

رقم إيداع ٣٩٢٦ / ٢٠١٤
تدمك: ٠ ٦٧١ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

المحتويات

محنة الأدب

حياتنا الأدبية فيما يظهر من أمرها راكدة خامدة ما في ذلك شك، فقد أصبحت الكتب القيِّمة نادرة يمر العام دون أن يظهر منها كتاب واحد فضلًا عن كتابين أو ثلاثة كتب. والصحف اليومية والأسبوعية لا تكاد تحفل بالأدب؛ وقد تمر الأسابيع وقد تمر الشهور دون أن نقرأ في صحيفة يومية أو أسبوعية فصلًا أدبيًّا ذا بال. والمجلات الشهرية تُعنَى بلونٍ من الأدب يسيرٍ لا يكلف كاتبه عناءً طويلًا، ولا يكلف قارئه جهدًا ثقيلًا. ويُستحب فيما تنشر المجلات الشهرية من فصول هذا الأدب أن تكون هذه الفصول قصارًا، وأن تكون لغتها يسيرة سهلة، وأن تكون موضوعاتها أيسر وأسهل من لغتها، فنحن قوم مترفون لا نريد أن نشق على أنفسنا حين نكتب، ولا نريد أن نشق على أنفسنا حين نقرأ، وأحبُّ شيء إلينا أن نقرأ المقال ثم ننساه.

والموضوع الذي يحتاج كاتبه إلى أن يَدرُس فيطيل الدرس، ويبحث فيُنعِم البحث عسيرٌ على الكاتب والقارئ جميعًا. وتخيُّر الألفاظ والتأنق فيها يكلف الكاتب والقارئ ما لا يحبَّان أن يتكلفا، فقد دخل علينا السأم وأصبحنا نُؤثر أن نمر بالأشياء مرًّا سريعًا، وكثيرًا ما نقرأ لنقطع الوقت لا لنغذو العقل والذوق والقلب، وكثيرًا ما نقرأ لندعو النوم لا لنذوده عن أنفسنا. ورحم الله أيامًا كنا نرى الوقت فيها قصيرًا سريع الحركة، وكنا نتمنى لو زيد في ساعات الليل والنهار نصفها أو مثلها لنقرأ فنطيل القراءة، ولندرس فنحسن الدرس. ورحم الله أيامًا كانت الصحف اليومية والأسبوعية فيها تتنافس أيها يكون أشد عناية بالأدب وأكثر تتبعًا للموضوعات التي يفرغ لها القراء في آخر النهار وأول الليل، فيخلون إليها ويستمتعون بها، وينكرون منها ويعرفون، ويكتبون إلى الصحف بما ينكرون وما يعرفون. ورحم الله أيامًا كنا نشغل فيها بهذه الكتب الكثيرة التي تعرض للأدب والنقد ولفنون الحياة على اختلافها فيشغل بها الكُتَّاب ناقدين ومقرظين، ويشتد الخلاف بينهم

حول هذا الرأي أو ذاك فتشترك صحف كثيرة في درس موضوع واحد أثاره كاتب من الكتَّاب فأنكر عليه كاتب آخر بعض ما قال أو كل ما قال، وأسرع إلى هذا الكاتب وذاك أنصارهما فاختصموا وأطالوا الاختصام، وانتفع القُرَّاء والكُتَّاب جميعًا بهذه الخصومات.

رحم الله تلك الأيام، فقد مضت ومضى عهدها حتى كأن أصحابها قد مضوا معها وهم مع ذلك أحياء يلقى بعضهم بعضًا بين حين وحين، ولكنهم لا يكتبون أو لا يكادون يكتبون، ولا يختصمون في الأدب والنقد، وإنما يختصمون في السياسة والمنافع العاجلة.

رحم الله تلك الأيام، فقد مضت وانقضى عهدها وما زال كثير من أصحابها أحياء لا ينظرون إليها إلا ملتفتين إلى وراء، ولا ينظرون إليها إلا لأنها قد بنت لهم مجدًا وجعلتهم من قادة الرأي وإن تخلَّوا الآن عن قيادة الرأي.

ولا أريد أن أعتقد أنَّ حياتنا الأدبية كانت تقوم على هؤلاء الشيوخ وحدهم، فويل لهؤلاء الشيوخ إن لم يكن لهم من الشباب جيل يقفو آثارهم ويريد أن يتفوق عليهم وأن ينتج من الأدب الرفيع ما لم ينتجوا، ويؤلف من الكتب خيرًا مما ألَّفوا، وينشر من الفصول في الأدب والنقد أروع مما نشروا. لا أريد أن أعتقد أن أدب هؤلاء الشيوخ كان جدبًا عقيمًا، وإنما أريد أن أعتقد أنه كان خصبًا كل الخصب، وأن أجيالًا من الشباب قد انتفعت به وأضافت إليه، ولكني أبحث عن آثار هذه الأجيال فلا أكاد أجد منها شيئًا.

أما إذا تعرض لون من ألوان إنتاجنا الزراعي أو الصناعي لآفة من الآفات فإن حياتنا تضطرب أشد الاضطراب، وصحفنا تقعد وتقوم وتملأ الدنيا ضجيجًا وعجيجًا؛ لأن آفة من الآفات توشك أن تأتي على القطن، أو لأن علة من العلل الاقتصادية توشك أن تبور لها تجارة القطن. ولست أكره أن نهتم للقطن والقمح والشعير، ولكني أحب أن نهتم للأدب والعلم والفن بعض اهتمامنا للقطن والقمح والشعير. وقد وجِلَت مصر حتى كاد الوجل يقضُّ مضاجع أبنائها حين جاءها النذير بغارة الجراد، ولكن مصر لم تحس وجلًا ولا فَرَقًا حين أجدبت الحياة الأدبية، ولعلها لم تشعر بهذا الجدب، بل أكبر الظن أنها لم تشعر به ولم تفطن له. وما يعنيها أن يجدب الأدب أو يخصب ما دامت لا تخاف الجوع ولا تشفق من الظمأ:

أَلا إِلَّا تكن إبلٌ فمعزى ... كأنَّ قرون جلتها العصيُّ
فتملأ بيتنا أقطًا وسمنًا ... وحسبُك من غنى شبعٌ وريُّ

عفا الله عن مصر ما أشد إهمالها للعقل والقلب والذوق! وما أشد تقصيرها في ذات الأدب والفن والعلم!

ولست أكتب اليوم لأشكو إجداب القرائح وكلال الأذهان، وإنما أكتب لأبحث عن أسباب هذا الإجداب وهذا الكلال. وأريد أن أقف اليوم عند أسباب ثلاثة ما أشك في أن لها رابعًا وخامسًا وسادسًا أيضًا وما شئت من الأعداد، ولكني لن أتحدث اليوم إلا عن هذه الأسباب الثلاثة راجيًا أن يفكر فيها المثقفون وأن يتجاوزوا التفكير إلى العمل؛ لعلهم أن يجدوا منها مخرجًا. وأول هذه الأسباب يأتي من ظروف السياسة، وما أحب أن يغضب الرقيب الخاص أو العام ولا أن تغضب الحكومة القائمة، فلست أتحدث عنها هي وحدها ولا عن الظروف المحيطة بنا اليوم أو غدًا، وإنما أتحدث عما هو أعمُّ من ذلك وأشمل.

فقد أُعلِنت الأحكام العرفية في مصر حين أُعلِنت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩، ثم رُفِعت بعد ست سنين، ولكنها لم تلبث أن أُعيدت حين أُعلِنت حرب فلسطين، ثم رُفِعت بعد ثلاث سنين، ولكنها لم تلبث أن أظلتنا منذ شهور، فقد استمتعنا إذن بالحرية الكاملة ثلاث سنين أثناء ثلاثة عشر عامًا. ومن قبل الأحكام العرفية الأولى كانت انقلابات سياسية لم يكن خطرها على حرية التفكير والتعبير أقل من خطر الأحكام العرفية، بحيث نستطيع أن نقول غير مسرفين إننا حُرمنا الحرية الحرة أكثر من خمس عشرة سنة في أقل من ربع قرن، والحرية قوام الحياة الأدبية الخصبة، فإذا ذهبت أجدب الأدب وعقم التفكير ما في ذلك شك. وقد قال نابليون ذات يوم: «ليس لنا أدب جيد، وتبعة ذلك على وزير الداخلية.» فقد أحس نابليون إذن أن رقابة وزير الداخلية على الكُتَّاب قد ذهبت برونق الأدب واضطرته إلى العقم والجدب. كان ذلك منذ قرن ونصف قرن، وما أرى أن حياة الناس قد تغيرت، وما أرى أنها تتغير من هذه الناحية مهما تختلف العصور؛ ذلك أن الأدب في حياتنا الحديثة يعيش على الإذاعة والنشر لا على إحسان المحسنين وعطف أصحاب الثراء والسلطان على الأدباء، فالأديب يكتب ليقرأه الناس، والناس لا يقرءُونه إلا إذا نشر كتابه أو مقاله، والكتاب والمقال لا يُنشَران حين يتحكم في نشرهما الرقيب، والرقيب يحظر على الناس أن ينشروا كتبهم وفصولهم حين تخوض هذه الكتب والفصول فيما لا تحب الحكومة أن تخوض فيه. وأخصُّ ما يمتاز به الأدب أنه حر بطبعه لا يقبل لحريته قيدًا ولو كان من الذهب الخالص المرصع بالجوهر الكريم.

فما ينبغي إذن أن نلوم الكُتَّاب من الشيوخ والشباب لأنهم لا يكتبون، وإنما ينبغي أن نحمد لهم ما أنفقوا من جهد واحتملوا من مشقة لينشروا هذا القليل الذي نتعلل به

على رغم ما أحاط بهم من الظروف. ولقد كان كثير الكُتَّاب الفرنسيين في القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر ينشرون كتبهم في هولندة حتى لا يمنع السلطان نشرها في باريس، وكنا نظن أن هذا عهد قد انقضى، ولكنا رأينا كتبًا مصرية تحظر في مصر فتُنشَر في لبنان.

هذا أول الأسباب الثلاثة. أما السبب الثاني فيُسأَل عنه الأدباء الشيوخ أنفسهم ويُسأل عنه الناشرون معهم؛ ذلك أن كثيرًا من الشباب يكتبون ثم لا يعرفون كيف يُظهِرون الناس على ما يكتبون: لا يجدون من شيوخ الأدب تشجيعًا ولا تأييدًا، ولا يجدون من الناشرين إقبالًا على نشر ما يقدمون إليهم من الكتب؛ لأن الناشرين لا ينفقون مالهم إلا حين يعلمون أنه سيعود عليهم ببعض الربح، فهم يؤثرون الكاتب المعروف على الكاتب الذي لا يعرفه أحد. وقد يتكلف الكاتب الشاب طبع كتابه على نفقته الخاصة يحتمل في ذلك من الجهد والمشقة ما يطيق وما لا يطيق، ولكنه لا يجد لكتابه ناقدًا معروفًا يقدمه إلى الناس ليقرءُوه، ولا يجد صحيفة تنبئ الناس عن كتابه إلا إذا أدى ثمنًا لهذا النبأ، فيضيع عليه جهده العقلي والفني ويضيع عليه ما أنفق من مال، وتقع في قلبه حسرة مُمِضَّة لعلها أن تصرفه عن الأدب والفن؛ فيقنع من الحياة بالشبع والري إن أُتيح له الشبع والري. وللجيل الناشئ على الجيل الذي سبقه شيء من الحق، فليفكر شيوخ الأدباء في ذلك وليحتملوا تبعاتهم، وليعلموا أنهم لا يرضون الأدب بما يكتبون فحسب، وإنما يرضونه حين يكتبون وحين يمكِّنون الشباب من أن يكتبوا ويقرأهم الناس ويخلفوهم على مكانتهم بعد وقت يقصر أو يطول.

وليس السبب الثالث بأقل خطرًا من السببين السابقين، ولعله أن يكون أشد منهما إمعانًا في الشر وإساءةً إلى الأدب؛ ذلك هو ضعف التعليم الأدبي في مصر، ففي مصر مدارس ومعاهد وجامعات يُدرَّس فيها الأدب، ولكنه يُدرَّس على نحو يحزن أكثر مما يسر. وليقُل أساتذة الأدب في مصر ما يشاءون، وليعلِّلوا ضعف إنتاجهم بما يشاءون، فإنتاجهم ضعيف لا يشك في ذلك من عرف الذين يتخرجون في الجامعات. وهل يصدقني أساتذة الجامعات إن قلت لهم إني عرفت طلابًا ظفروا بإجازة الليسانس من أقسام اللغة العربية ولم يعرفوا كيف يبحثون في كتاب الأغاني؛ لأنهم لم يسمعوا بفهرست الأغاني الذي وضعه جويدي؟ فهم إذا أرادوا البحث في هذا الكتاب الضخم عن شاعر أو كاتب أو وزير ضلوا بين صفحاته التي لا تكاد تحصى، وهم يستظهرون كلامًا يُملَى عليهم ويعيدونه في الامتحان، ويظفرون بالإجازات الدراسية وليس لهم من فهم ما يقرءُون

حظ ذو خطر. وإذا قصر الشاب عن الفهم فهو أجدر أن يقصر عن الإفهام. وكان أرسطاطاليس يقول: يجب قبل كل شيء أن نتكلم اليونانية. وأظن أن أحدًا لا يجادلني في أن أول ما يجب على الكاتب المصري إنما هو أن يحسن العربية. وإحسان العربية يفرض على الكاتب الشاب والشيخ ألا يُذكِّر المؤنث ولا يُؤنِّث المذكر، وأن يُحسن استعمال الأفعال والحروف، وأن يضع الألفاظ في مواضعها ويدل بها على معانيها، فإن فعل غير ذلك فليس من الأدب في شيء. وإني ليحزنني أن أقول إن كثيرًا من كتَّابنا ومن كُتَّاب يرون أنفسهم كبارًا يتورطون من هذا كله في شر عظيم، ولو شئت لضربت لذلك أمثالًا يخجل لها أصحابها من الشيوخ والشباب جميعًا، ولكننا في شهر يحسن ألا نسلط فيه الخجل على الناس.

ظروف سياسة إذن تحد حرية الأديب، وظروف مالية تحول بين الأديب الناشئ وبين القراء، وظروف تعليمية تحول بين الشباب وبين العلم باللغة التي هي المادة الأولى للأدب، فكيف بعد هذا كله أن تكون الحياة الأدبية المصرية خصبة مشرقة؟!

هذا باب أفتحه للكتاب والباحثين، وأرجو أن يتعمقوه وأن يتعرفوا إلى هذه الأسباب أسبابًا أخرى، وأن نتعاون جميعًا على حماية الحياة الأدبية من آفاتها وإبرائها من عللها، على أن نرد إلى الأدب شبابه القارح؛ فإن الأدب الذي يفقد شبابه لا خير فيه.

مرآة الغريبة

ذكرها الشاعر العربي القديم ذو الرمة في بيت من شعره أخشى أن أرويه فيراه القراء غريبًا مسرفًا في الغرابة، وإن كنت لا أرى فيه من الغرابة شيئًا، ولكن المثقفين في هذه الأيام قد أَلِفُوا اليسر وآثروا اللين والسهولة وقرب المأخذ في كل ما يقرءُون ويكتبون، وأكثرهم يقرءُون الصحف الجادة والهازلة، وهي تحدثهم بأيسر الألفاظ نطقًا وأقربها معنًى، وقليل منهم يقرءُون الكتب — وأي كتب؟ — الكتب التي تتحدث إليهم بلغة الصحف ولا تكاد تُعنَى بالتحرير ولا بالتخير ولا بالتجويد ولا بالإبعاد في لفظ أو معنًى. قد أَلِفوا ذلك وأحبوه وأصبح من أعسر العسر تحويلهم عنه، فكيف إذا رويت لهم بيتًا من شعر ذلك الشاعر الذي عاش في القرن الأول ومات في أوائل القرن الثاني للهجرة، وكان مع ذلك بدوي الحياة بدوي التفكير والتعبير. وهو يصف في هذا البيت ناقته بأن لها خدًّا واضحًا ناصعًا سهلًا، كأنه مرآة الفتاة الغريبة قد ألمت بقوم لا يحفلون بها ولا يلتفتون إليها ولا ينصحون لها في جمالها ورونقها، فهي لا تعتمد عليهم ولا تطمئن إليهم ولا تستشيرهم فيما تتخذ من زينة أو ما تكون عليه من هيئة، وإنما تعتمد على مرآتها فهي تجلوها دائمًا وتزيل عنها كل ما يعلق بها من صدأ أو غبار، فمرآتها مجلوة أبدًا ناصعة أبدًا، تريها صورتها كأدق ما تكون، فهي مرآة صادقة لا تُخفي على صاحبتها شيئًا من قبح أو جمال ومما ينفِّر العين أو يدعوها.

وقُرَّاؤنا والحمد لله حُرَّاص على السهولة واليسر، يكرهون التكلف ويشفقون من كل ما يجهد أو يكد، وهم جديرون أن يسألوني عن هذه المرآة البدوية الغريبة ما خطبها وما شأنها، وأي صلة بينهم وبينها، وما لي أحدثهم عنها، وأثقل عليهم بذكرها، وأستقصي لهم أخبارها؟

ولكني قد عوَّدت القراء أن أكون معهم عندما أحب أنا لا عندما يحبون هم، ولست أكره لهم أن يتعبوا شيئًا وأن يفكروا قليلًا؛ فقد أحب أن تشعر مصر في هذا العالم الذي تعيش فيه وتقضي بين أهله من حياتها الخالدة الخصبة هذه الأيام الشداد، بأنها غريبة بين الأمم لا ناصح لها في أمرها، فهي خليقة ألا تعتمد على ما يقال لها أو يقال عنها في شرق الأرض وغربها؛ لأن هذا العالم لا يحفل بها إلا من حيث أنها تستطيع أن تنفعه أو تضره، فهو لا يحفل بها لنفسها، وهو من أجل ذلك إن قال لها الحق يومًا فقد يقول لها غير الحق أيامًا، فهي في حاجة إلى أن تتخذ مرآة كهذه المرآة البدوية التي ذكرها ذلك الشاعر القديم، وأن تجلوها دائمًا وتزيل عنها ما قد يصل إليها من صدأ أو غبار، وتنظر فيها حين تصبح وحين تمسي وتنظر فيها بين ذلك؛ لترى نفسها وترى ما يختلف عليها من الأطوار، فتُصلح من أمرها بالزيادة والنقص وبالتغيير والتبديل وبالتقويم والتعديل. وأي شيء يمكن أن تكون هذه المرآة غير ما تنشر الصحف من أحاديث، وما يذيع المؤلفون من كتب، وما يحدث من أصحاب الفن من آثار؟ فهل تستطيع مصر في هذه الأيام أن تقول إن بيدها هذه المرآة النقية الصافية الصادقة التي ترى فيها نفسها كما هي، والتي تحدِّثها عن أمرها كله بالحق الذي لا شك فيه؟

أحقٌّ أن الصحافة المصرية هي مرآة الغريبة التي تنظر فيها مصر حين يُسفر الصبح وحين يُقبل المساء؟ هيهات تحول بينها وبين ذلك نوائب وخطوب، فهي تصور من حياة مصر ظاهرًا، ولكنه ظاهر رقيق جدًّا لا عمق له وهو في الوقت نفسه كثيف جدًّا لا يكشف مما وراءه عن قليل أو كثير. إما أنَّ الصحافة تنقل إلينا أنباء الشرق والغرب، وإما أنها تنقل إلينا أنباء الحكام حين يغدون ويروحون، وأنباء ما يصدرون من أمر ويشرعون من قانون، وأنباء الساسة والقادة حين يقيمون وحين يظعنون، فهذا حق. وإما أن هذا كله يظهرنا على حقائق أنفسنا ودقائق ضمائرنا ويصور لنا ما تدور به أحاديثنا حين يلقى بعضنا بعضًا، وما يخطر لنا حين نقرأ ما يُذاع فينا من الأنباء وما تضطرب به نفوسنا حين نفكر، فهذا هو الذي أشك فيه الشك كله. ما أكثر الصدأ وما أكثف الغبار الذي يغشى مرآة الصحافة! إني لأقرأ صحفًا كثيرة في أول النهار وآخره، وفي أول الأسبوع وآخره، وفيما يكون بين يوم الأحد ويوم السبت من أيام؛ فلا أحس حياة مصر ولا أجد روحها ولا حرارتها، وإنما هي عنوانات أمرُّ بها سريعًا، وموضوعات أُلمُّ بها إلمامًا قصيرًا ثم أتجاوزها إلى ما وراءها، ثم أتركها وأفزع منها إلى كتاب قديم أو حديث فأنسى فيه حياتنا الحاضرة، وما أحب أن أنساها، فهي خليقة أن نقف عندها فنطيل الوقوف، وأن نفكر فيها فنطيل التفكير، وأن نعتبر بأحداثها فنحسن الاعتبار.

وهل تستطيع مصر أن تقول إن ما يُصدر أبناؤها في هذه الأيام من الكتب والأسفار هي هذه المرآة، مرآة الغريبة التي ذكرها الشاعر العربي القديم؟ هيهات، إني لألتمس هذه الكتب والأسفار فلا أجدها، وأكاد أعتقد أن المصريين المعاصرين من الشيوخ والشباب قد صُرفوا عن التأليف والكتابة صرفًا، أتُراهم شُغلوا عن الكتابة والتأليف بأحداث الحياة وخطوبها فهم مشغولون بما ينوب، معنيون بما يلم، لا يكادون يفرغون لأنفسهم، ولا يكادون يخلون إلى فنهم؟ أم تراهم قد صدئت نفوسهم كما صدئت المرآة التي ينظرون فيها فهم لا يجدون ما يكتبون كما أنهم لا يجدون ما يقرءُون؟ أم تراهم يلقون من المصاعب في نشر الكتب وإذاعتها ما يصدهم عن الكتابة والتأليف؟ أم تراهم يكتبون ويؤلفون ولكنهم يدخرون ما يكتبون ويؤلفون وينتظرون به أيامًا خيرًا من هذه الأيام يُتاح فيها النشر وتتاح فيها القراءة؟ لا أدري، ولكني أستطيع أن أقول إن الكتب المصرية الحديثة التي يمكن أن نقف عندها وننظر فيها فنرى حياة مصر المعاصرة من قريب أو من بعيد أقل من أن تُحصى، والمطابع مع ذلك تعمل في الليل والنهار وتخرج كتبًا كثيرة منها القديم الذي يُنشر لأول مرة، والقديم الذي يُعاد نشره، والحديث الذي يُترجم عن هذه اللغة الأجنبية أو تلك. فأما الذي يُعرب عن النفس المصرية المعاصرة ويصور شعورها بالحياة وردها على أحداث الحياة ويصور آمالها وآلامها فهو أقل من أن يُحصى. وهذا الأقل ضعيف لا شك في ضعفه، فاتر لا شك في فتوره، لا تكاد تقبل عليه حتى تنصرف عنه، ولا تكاد تنظر فيه حتى تفزع منه إلى كتاب قديم أو حديث. وأريد بالكتب الحديثة هذه التي يحملها إلينا البريد أو تحملها إلينا التجارة من أوروبا وأمريكا لا من مصر ولا من الشرق العربي.

مصر إذن غريبة في هذا العالم المعاصر ترى نفسها في مرايا غريبة ليست صادقة ولا ناصحة، فهي تعيش في نور أشبه بالظلمة لا تكاد تعرف من أمر نفسها شيئًا. فأي غرابة في أن تأتي من الأعمال ما لا يلائم منفعتها ولا طبيعتها ولا مكانتها ولا ما ينبغي أن يكون للعالم فيها من رأي؟ وأي غرابة في أن ترى الأشياء فلا تحسن العلم بها ولا الحكم عليها ولا الرأي فيها؟ صحافة تسيطر عليها الظروف ولا تسيطر هي على الظروف، بل لا تكاد تُوجه نفسها فضلًا عن أن تُوجه قراءها، وقرائح مجدبة أو موهوبة قد حيل بينها وبين الإنتاج وهي لا تعرف ما يحول بينها وبين الإنتاج، وشعب يُصبح ويُمسي فيقرأ كلامًا لا يغذو عقلًا ولا قلبًا ولا خيالًا، ولا يجلو ذوقًا ولا طبعًا ولا يرهف حسًّا ولا شعورًا، وإنما هو أشبه شيء بهذا الكلام الذي شبهه أبو العلاء برَحى

تطحن قرونًا، وإذا طحنت الرَّحى قرونًا فهيهات أن تنتج طحنًا يغني عن الجائع الذي يكاد يهلكه الجوع.

سيقول قائلون إني متشائم مسرف في التشاؤم، وعلم الله ما تشاءمت قط وما كنت إلا متفائلًا، ولكني رجعت إلى الأدب فأردتُ أن أقرأ فلم أر أمامي إلا كتب القدماء وكتب المحدثين من الأمريكيين والأوروبيين. وأردت أن أقرأ كتبًا مصرية فأعدت قراءة كتاب لأديب معاصر نشر منذ سنين. وأردت أن أقرأ في المجلات فأشفقت من إضاعة الوقت، والتمست الروح والراحة والغذاء عند قدماء العرب وعند الكتَّاب الأجانب. أردتُ أن أعرف مصر المعاصرة، أردتُ أن أعرف نفسها التي تُحس وتشعر وتعقل وتفكر فلم أجد إليها سبيلًا. إني لأعلم كما يعلم الناس جميعًا أن في مصر شعبًا يضطرب في شئون الحياة، وأن له حكومة قائمة وعمَّالًا يدبرون مرافقه، وأن له صحفًا تُقرأ وجامعات ومدارس يختلف إليها الطلاب والتلاميذ، ويوشكون أن يهجروها لقرب الامتحانات، وأن هذا الشعب يختلف عليه الليل والنهار كما تختلف عليه الفصول، وتحدث فيه الأحداث وتلم به الخطوب؛ أعرف هذا كله كما يعرفه الناس جميعًا، ولكني أريد أن أعرف الأثر الأدبي والفني والعقلي لهذا كله في نفس هذا الشعب فلا أجد إلى معرفته سبيلًا.

ما أسعد الشعب الذي يملك مرآة الغريبة! هذه المرآة الصادقة الصافية التي ينظر فيها فيرى نفسه كما هي، يراها ثابتة ويراها متجددة، يرى شخصيته الخالدة ويرى ما يختلف عليها من الصور والأشكال. لقد كنت أعيبُ على أدبائنا منذ أكثر من عشرين سنة أنهم يطيلون النظر إلى نفوسهم في المرآة فيتحدثون عنها ويكثرون الحديث، فأصبحت الآن لا أستطيع أن أعيب عليهم حتى نظرهم في مرآتهم الخاصة.

إنهم لا ينظرون في أدبهم ولا يتحدثون عنه كأنهم قد هجروه هجرًا غير جميل. وإذا لم ينظر الأدباء في مرآة أنفسهم ولم ينظروا في مرآة وطنهم ولم يصنعوا لوطنهم هذه المرآة، فماذا يصنعون؟

ما أشقى الشعب الذي ليست له هذه المرآة، مرآة الغريبة التي ذكرها ذلك الشاعر العربي القديم لا لشيء إلا لأن أدباءه قد قنعوا من العيش بأنهم يعيشون!

من مشكلات أدبنا الحديث

الأدباء قلقون ما في ذلك شك، لا يكاد أحدهم يلقى صاحبه حتى يتحدث إليه بما يجد في نفسه من هذا الإشفاق الذي كان غامضًا أول الأمر، ثم أخذ يظهر شيئًا فشيئًا حتى أصبح واضحًا كل الوضوح، وانتهى بأصحابه إلى شيء من التشاؤم، كان العهد قد بعُدَ به حينًا من الدهر؛ فكثير من الأدباء لا يجدون الوسيلة إلى الإعراب عن ذات أنفسهم، يخطر لهم الخاطر فيملأ عليهم نفوسهم، ويستغرق تفكيرهم، ويثير فيهم الشوق إلى الكتابة، ثم يدفعهم إلى الكتابة دفعًا، فيكتبون.

والأديب حين يكتب مخدوع عن نفسه دائمًا، يزعم أنه لا يحفل بالناس ولا يفكر فيهم، ولا يكتب إلا ليرضي قلبه وعقله وذوقه، وطبعه الذي لا يستطيع أن يمتنع على الإنتاج حين يُدعى إليه، وهو يُخيل إلى نفسه أن الأدب نفحات طبيعية تصدر عن أصحابها لأنها لا بد لها من الصدور، كما أن الضوء يصدر عن الشمس لأنها لا تملك إلا أن تضيء، وكما أن العبير يصدر عن الزهرة لأنها لا تملك إلا أن تنشر العبير، ولا على الشمس ولا على الزهرة ألَّا يُنتفع بما تنشران من ضوء أو شذًى.

كذلك يخدع الأديب نفسه ويُخيِّل إليها، ولكنَّه لا يكاد يكتب، بل لا يكاد يأخذ في الكتابة حتى يحس الحاجة الملحة إلى أن يقرأ الناس ما يكتب. فمن طبيعة نفسه أن يكتب، ومن طبيعة نفسه أن يتصل بالناس ليقرءُوه ويشاركوه في الحس والذوق والشعور.

كلا الأمرين طبيعة فيه؛ يشغله فنه أول الأمر عن غيره من الناس والأشياء، فإذا أتمه لم يسترح حتى يُظهِر الناس عليه وحتى يستمتعوا به أو يزورُّوا عنه وينكروه.

والأديب ليس محتاجًا إلى أن يرضى الناس عنه فحسب، ولكنه محتاج إلى أن يرضوا عنه ويسخطوا عليه، وإلى أن يعرفوا من أدبه وينكروا، وإلى أن يثنوا عليه وينقدوه. هو

في حاجة إلى أن يتصل بالناس؛ لأنه يكتب لهم كما أنه يكتب لنفسه. واتصاله بالناس هذا قد أصبح مشكلة معضلة لا يكاد يجد لها حلًّا، ولا يكاد يعرف لها شبيهًا في تاريخ الأدب على طوله واختلاف بيئاته وعصوره.

فقد كان هذا الاتصال فيما مضى من الزمان ميسرًا إلى حد بعيد، لم يكن على الأديب إلا أن ينشئ أدبه ثم يدفعه إلى أحد النُسَّاخ يذيعه مخطوطًا بتلك الوسائل الضئيلة البطيئة التي كانت تتاح للناس قبل أن تنشأ المطبعة وتحدث ما أحدثت من اليسر والعسر جميعًا.

فأما الآن فليس من سبيل إلى أن يكتفي الأديب بهذه الوسيلة، بل ليس من سبيل إلى أن يفكر فيها، فالناس لا يقرءُون الكتب المخطوطة إلا أن يكونوا من العلماء الذين وقفوا أنفسهم وجهودهم على أن يحيوا التراث القديم بالدرس والبحث والتحقيق، والطبع والنشر آخر الأمر.

فليس بد للأديب إذن من أن يثب إلى هذا اليسر العسير الذي نسميه الآن الطبع والنشر. هو يسرٌ حين يتاح للأديب أن يجد من يطبع وينشر، وهو العسر كل العسر، والشقاء كل الشقاء، حين لا يُتاح الطبع والنشر للأديب.

وقد اقتضى يسر الطبع والنشر أن تنشأ المجلات الخاصة، ينشر فيها الأدباء ما يكتبون من هذه الآثار الفنية القصار التي أصبحت لونًا من ألوان الأدب الحديث. واقتضى يسر الطبع والنشر أن تنشأ الصحف السيارة وأن تتنافس فيما بينها وأن تتخذ الأدب وسيلة من وسائل هذا التنافس، فعمد إليها الأدباء ينشرون فيها آثارهم هذه القصار، ومضت أمور الأدب على هذا النحو مسمحة مياسرة، ولكن الأمور تتعقد فجأة، فإذا الطبع والنشر يحتاجان إلى المال، وإلى المال الذي ينفق في كثير من التقدير والاحتياط. والمال يدعو المال، فمنفقه محتاج إلى أن يسترده رابحًا فيه، وهو من أجل ذلك محتاج إلى رضى الذين ينتفعون بإنفاقه ليستزيدوا منه، فيكون أدعى للربح وأسرع إلى الغنى. فليس بد من تملق المستغلين والتماس ما يرضيهم ويلائم حاجتهم ومنافعهم، وإذا احتاج الأديب إلى أن يكون وسيلة لربح الطابع والناشر ووسيلة بعد ذلك أو قبل ذلك لإقامة الأود وإرضاء الحاجة اليومية إلى القوت، فقد تعرَّض الأدب إلى محنته الكبرى، وهي المحنة التي يشقى بها الأدباء عندنا في هذه الأيام.

وكان الأدباء فيما مضى من الزمان يتخذون الأدب فنًّا؛ أي يتخذونه غاية لا وسيلة … ينتجون لأن طبائعهم تضطرهم إلى الإنتاج، ولأنهم لا يملكون إلا أن ينتجوا، ولم

يكونوا يعتمدون على الفن ليعيشوا، وإنما كانوا يتخذون إلى العيش وسائل أخرى قلما تتصل بالأدب من قريب أو بعيد. كان منهم الذين يعملون بأيديهم، وكان منهم الذين يتصرفون في التجارة، كانوا على كل حال يضطربون في شئون الحياة كما يضطرب فيها غيرهم من الناس، وربما وجد الأديب أو صاحب الفن من الملوك والأمراء وأصحاب الثراء من يريحهم من هذا العناء، فيفرغون للأدب، ويشترون رضى هؤلاء السادة بما يهدون إليهم من ألوان المدح والثناء. منهم من يختص هؤلاء السادة بأيسر ما عنده فيبيعهم الثناء بالمال، ويؤثر نفسه بخير ما عنده كما كان المتنبي يصنع في كثير من الأحيان، فيهدي أكثر ممدوحيه غُثاء شعره، ويختص نفسه بالغناء الرائع يصور فيه حزنه وألمه وفخره ورضاه وسخطه وما شاء الله من ألوان العواطف والشعور. ومنهم من ينفق أكثر ما عنده في إرضاء سادته أولئك، فيصبح أكثر أدبه ثناءً ومدحًا يُجوِّد فيه ما وسعه التجويد ويقصر فيه عن الغاية حين يضطر إلى التقصير.

ولكن عصر هؤلاء الملوك والأمراء والسادة قد انقضى إلى غير رجعة، وأصبح الأدب مضطرًّا إلى أن يعتمد على نفسه لينشر أولًا، ويقدر بعد ذلك ويقوت أصحابه في كثير من الأحيان إذا لم يضطربوا في الحياة كما كان يضطرب فيها كثير من أسلافهم، وكما يضطرب فيها غيرهم من الناس.

وكان الأدب فخورًا بهذا الاستقلال الذي أتيح له وبأنه قد استطاع أن ينصرف عن هذا الثناء الذي تنطق به الألسنة ولا تعتقده القلوب … ولكنه ينظر الآن فيرى أن له ملوكًا وسادة من طراز جديد، وأنه مضطر إلى إرضاء هؤلاء الملوك والسادة إن أراد أن ينشر ويقدر ويقوت الأدباء. وهؤلاء الملوك والسادة هم القراء الذين يجب أن يشتروا ليرضى الناشر والطابع ويُقبلا على النشر والطبع، فإذا لم يشتروا أو لم يشتروا إلا قليلًا، أعرض الناشر والطابع عن الأدب إلى أشياء أخرى أجدى عليهما وأنفع لهما … ونظر الأديب فإذا أدبه بضاعة بائرة لا سبيل إلى أن تصل إلى أيدي الناس، فضلًا عن أن تصل إلى قلوبهم وأذواقهم وعقولهم.

والملوك الجدد أصعب مراسًا وأعسر إرضاء من الملوك القدماء؛ فقد كان الملك فردًا يحب طائفة من الشعراء أو يستأثر بشاعر واحد، وكان من اليسير أن يعرف الأدباء ما يرضيه وما يسخطه، وأن يتوخوا مواضع الرضى ويتجنبوا مواضع السخط … فأما الآن فهؤلاء الملوك لا يُحصَون؛ لأنهم شعوب، وليس من اليسير أن يتبين الأدباء ما يسوءهم وما يسرهم، وما يرضيهم وما يسخطهم. وقد كان توخي إرضاء الملوك في العصور القديمة مفسدًا للأدب، وإرضاء الجماهير في العصور الحديثة أشد له إفسادًا.

والأديب لا يكره شيئًا كما يكره تملق القراء وتوخي رضائهم. وفي الأدب كثير من الاعتزاز بالنفس والثقة بالفن والإيمان بالجمال، وهو يرى نفسه غاية لا وسيلة، وهو يحب أن يرقى إليه قراؤه حيث هو، ولا يحب أن ينزل إليهم حيث هم، وليس معنى هذا أنه يستعلي عليهم أو يزدريهم أو يزوَرُّ عنهم، وإنما معناه أنه يهبط إليهم فيشتق منهم مادته ويجني منهم حلوهم ومُرَّهم، ويستخلص منهم صفوهم وكدرهم، ثم يعود إلى نفسه فيخلو إليها ويستخرج نتيجة هذا كله رائقة صفوًا يعرضها على الناس في الصورة التي يحبها هو، لا في الصورة التي يحبونها هم.

فهو يعاشرهم ويخالطهم ويمازج حياتهم ممازجة دقيقة كل الدقة، خفية كل الخفاء، عميقة كل العمق، ثم ينفصل عنهم فيعود إلى قمته تلك التي يستحبها ولا يستطيع أن يسوغ نفسه إلا فيها … ثم يعود إليهم بعد ذلك صورة رائقة شائقة يذوقها منهم من تهيأ لذوقها، ويسيغها منهم من أعد نفسه لإساغتها.

ونتيجة هذا كله أن الأدب الصحيح متصل بالناس أشد الاتصال، منفصل عنهم أشد الانفصال … يشتق نفسه من أنفسهم اشتقاقًا، ثم يعود إليهم بعد تكوينه خلقًا جديدًا يجب أن يتهيَّئُوا لقبوله ويعدُّوا أنفسهم للرضى عنه أو السخط عليه.

وكذلك يجد الأدب نفسه في هذا الوطن الغريب: هو من الناس لأنه ذوب نفوسهم وخلاصة حياتهم، وليس هو من الناس لأنه روح الأديب الذي أنتجه، وصورة عقله وقلبه وعصارة طبعه وذوقه، فهو دانٍ ناءٍ وهو قريب بعيد. وهو من أجل ذلك لا يحفل ولا ينبغي أن يحفل برضى الناس عنه أو سخطهم عليه، وإنما شأنه كشأن أبي العلاء حين يقول:

وخذ رأيي وحسبك ذاك مني	على ما فيَّ من عوج وأمتِ
وماذا يبتغي الجلساء عندي	أرادوا منطقي وأردت صمتي
ويوجد بيننا أمدٌ قصيٌّ	فأمُّوا سمتهم وأممت سمتي

وإذن فالأدب في حاجة إلى أن يستقل، وإلى أن يكون حرًّا لا يتملق ولا يترضى ولا يسعى إلى الناس، وإنما يسعى الناس إليه. والأدب بعد هذا كله، ومن أجل هذا كله، في حاجة إلى أن يستأني ويتمهل ويظهر حين يريد أن يظهر لا حين يريده الناس على الظهور. والأدب لا يبغض شيئًا كما يبغض العجلة، ولا يفسده شيء كما يفسده الإسراع … هو متمهل حين يبحث ويستقصي، وحين يشتق مادته ويستخلص معانيه،

وهو متمهل مستأنٍ حين يؤلف ما جمع وما استخلص، ويلائم بين أجزائه. وهو متمهل مستأنٍ حين يصوغ هذا كله، ويضفي عليه الصورة التي يجب أن يضفيها عليه، وهو يحب أن يعيد النظر إلى نفسه مرة ومرة ومرات. وهو يريد أن ينظر إلى نفسه في المرآة، فيصلح هنا ويغير هناك، ويزيد في موضع، وينقص في موضع آخر، ويحاول أن يرضى عن نفسه قبل أن يظهر للناس. وليس شيء أشق عليه من أن يرضى عن نفسه؛ لأنه عسير لا يحب المياسرة، ولأنه ينظر دائمًا إلى مُثُل رفيعة، بعيدة المنال لا يكاد يدنو منها حتى تنأى عنه، ولا يكاد يبلغها حتى تفوته.

ولأمرٍ ما قيل إن بعض شعرائنا الجاهليين كانوا يُنشئون القصيدة ثم يعرضونها على أنفسهم ثم يطيلون النظر فيها والإصلاح لها، لا يُظهرونها للناس إلا بعد أن يفرغوا لها حولًا كاملًا ... ولأمر ما قيل إن شاعرًا فرنسيًّا معاصرًا أنشأ قصيدة من قصائده ثم فرغ لتنقيحها وتهذيبها وقتًا طويلًا، حتى اختطفها منه بعض أصحابه اختطافًا فأذاعها في الناس، ولولا ذلك لما أخرجها إليهم، وقد وُجد عنده بعد وفاته مئات من نسخ التجارب لهذه القصيدة.

والأدباء يختلفون بطأً وسرعةً في إنتاج ما ينتجون، لكن البطء والأناة والتحفظ والتمهل هي الخصال الأساسية للأديب الجدير بهذا الاسم.

فليس الأدب إذن من هذه البضائع التي تستجيب في يسر لما تحتاج إليه التجارة من السرعة والانتظام، وهو من أجل ذلك لا يستطيع أن يتوخى إرضاء الذين يستهلكونه، وهو من أجل ذلك مُعرَّض بطبعه للكساد، إلا أن يكثُرَ أَكْفَاؤه من القرَّاء وأن يجدوا الحاجة المُلجِئة والشعور المُلِحَّ والضرورة التي تدفعهم إلى القراءة دفعًا؛ هنالك يستطيع الأدب أن يجد في نفسه ما يحتاج إليه من العزة، وأن يجد من نفسه الاستجابة إلى ما ينبغي له من الأناة والتمهل ليتمكن من التجويد والإتقان.

من أجل هذا كله نفهم في غير مشقة هذا القلق الشائع بين الأدباء والذي يشغلهم عن الإنتاج، ويضطرهم إلى كثير من التساؤل، ويورطهم في كثير من الحيرة.

فالحياة الحديثة تفرض عليهم كثيرًا من المشكلات، وتثير في نفوسهم ألوانًا من العواطف وضروبًا من الشعور. وهم يجدون الحاجة إلى أن يصوروا ما يحسون وما يشعرون.

وقديمًا عرضت الحياة الخاصة والعامة على الأدباء ألوان العواطف وضروب الشعور ووجدوا الحاجة إلى الإنشاء فأنشئُوا، وإلى الغناء فغنوا، وإلى إعلان الرضى والسخط والاكتئاب والابتهاج فأعلنوا من ذلك كله ما أرادوا. لم يكونوا في حاجة إلى أكثر من أن يطلقوا ألسنتهم وأصواتهم بالغناء فيسمع لهم الناس، قبل أن تشيع القراءة، ثم لم يكونوا في حاجة إلا إلى أن يعمدوا إلى القلم والقرطاس ليكتبوا فيقرأ الناس بعد أن شاعت الكتابة والقراءة. فأما الآن فهم يستطيعون أن يطلقوا ألسنتهم وأصواتهم فلن يسمع لهم أحد غير أنفسهم، وهم يستطيعون أن يعمدوا إلى القلم والقرطاس وأن يكتبوا ما يحبون فلن يقرأ لهم غير أنفسهم وغير ذوي خاصتهم من الصديق. هم مضطرون إلى أن يلجئُوا إلى المطبعة وإلى الناشرين، وما أكثر المطابع وما أكثر الناشرين! ولكن الوصول إلى تلك وإلى هؤلاء دونه أهوال لا تقل مشقةً وخطرًا عن تلك الأهوال التي ذكرها أبو العلاء في بيته المشهور:

فيا دارها بالحزن إن مزارها   قريب ولكن دون ذلك أهوال

وقد يخدع الناشر عن نفسه فينشر ما يقدم إليه الأديب ثم يلتمس له القراء فلا يجد إليهم سبيلًا، إما لأنهم لا يحبون أن يقرءُوا، وإما لأنهم لا يستطيعون أن يشتروا ما يعرض عليهم، وإما لأنهم يجهلون ما يُنشر بين حين وحين لأن الناشر لا يملك وسائل الإعلان أو لا يريد أن ينفق ما ينبغي من المال ليتاح له الإعلان.

وإذا نُشِر الكتاب ثم لم يُقرَأ شقي به الأديب الذي أنفق جهده ووقته وحرص على أن ينفع الناس فحيل بينه وبين ما أراد، وشقي به الناشر الذي أنفق في نشره المال وعقد به الآمال فضاع عليه ما أنفق وذهبت آماله مع الريح وكرِهَ أن يُلدَغ من جُحر مرتين.

وكانت القراءة والكتابة — فيما مضى من الزمان — كما كان الأدب والعلم والثقافة، وقفًا على قلة من الناس هم الذين يعنون بذلك ويفرغون له أو يمنحونه أجزاء من أوقاتهم تقصر أو تطول؛ فكان من اليسير على الأديب أن يبلغ طبقة القراء في غير مشقة ولا عسر، وإنما هم نسَّاخ يكتبون وورَّاقون يبيعون، فأما الآن فقد كثر الكتَّاب والقراء وسيزدادون كثرةً من يوم إلى يوم، وشاع الأدب والثقافة والعلم وستزداد شيوعًا من عام إلى عام، وأصبح الوصول إلى طبقات القرَّاء والمثقفين على اختلاف حظوظهم من القراءة والثقافة شاقًّا عسيرًا، يحتاج من الوسائل والأداة إلى ما لا يُتاح إلا بعد الجهد والتكلف.

أضف إلى كل هذا أن الحياة الحديثة تتعقد من يوم إلى يوم وتشغل الإنسان عن نفسه أكثر وقته، فهو في حاجة إلى العمل وجه النهار، وهو في حاجة إلى الراحة بعد العمل. فإذا أخذ قسطه من الراحة، فما أكثر ما يدعوه إلى اللهو ويحبب إليه الفراغ؛ فهذه الأندية التي يلقى فيها الناسَ ليقول لهم ويسمع منهم، وهذه القهوات العامة التي يجلس فيها ليرى الذاهبين والجائين ويلقي كلمة هنا ويسمع كلمة من هناك، وهذه الدُّور التي تدعوه إلى السينما أو إلى التمثيل أو إلى ما شئت من ألوان العبث … كل ذلك يستغرق من وقته آخر النهار وصدرًا ممتدًّا من الليل. فإذا عاد إلى داره وثابت إليه نفسه كانت حاجته إلى الراحة أشد من حاجته إلى القراءة، فإن وجد من نفسه نشاطًا للقراءة، فإنما هو النشاط للقراءة اليسيرة التي لا تشق ولا تجهد ولا تحتاج إلى روية وتفكير.

والأدب يكره اليسر في الإنتاج وهو يكره اليسر في الاستهلاك أيضًا، وهو يريد من الأديب أن يستأني في الإنشاء، ويريد من القارئ أن يتأنى في القراءة، فهو جهد مشترك يجب أن يحمل عبئه المُنتِج والمستهلك جميعًا. فإذا أُتيحت للرجل المثقف وسائل القراءة اليسيرة أو الثقافة السهلة بعد ما بذل من الجهد والعناء طول النهار وصدرًا من الليل، أحب ذلك ومال إليه. وما هي إلا أن يمد يده ويمس بعض الأزرار فإذا الراديو يغرقه بفنون من الجد والهزل والموسيقى والغناء، وما هي إلا أن يمد يده إلى صحيفة من هذه الصحف الكثيرة التي تعينه في رفق وتسلية على انتظار النوم، أو تدعو إليه النوم فيستجيب لدعائها في سرع سريع.

فأين يقع الكتاب المتقن الممتع الذي بذل فيه منتجه ما بذل من الجهد، واحتمل في تأليفه ما احتمل من العناء، وأَرِق فيه ليله وأنفق فيه صفوة نهاره؟ أين يقع هذا الكتاب من كل هذا اليسر المريح، ومن كل هذا الإغراء الذي يصعب الامتناع عليه؟ هذه بعض المشكلات التي يشقى بها الأدب في هذه الأيام، وهي ليست مقصورة على مصر ولا على البلاد العربية ولكنها شائعة في أقطار الأرض كلها، غير أنها في مصر وفي البلاد العربية أشدُّ شدة وأعنف عنفًا؛ فالقرَّاء في شرقنا العربي — على كثرتهم الآن — ما زالوا قلة قليلة بالقياس إلى شعوب هذا الشرق، والمثقفون منهم ثقافةً تهيِّئهم لقراءة الأدب الصحيح والانتفاع به والاستمتاع بروعته وجماله أقل من القليل كما يقال. فأي غرابة في أن يتردد الناشرون مخافة أن يتعرض مالهم وجهدهم للضياع؟ وأي غرابة في أن يسوء ظن الأديب بالأديب؟ فإذا كان الأمر كذلك في بلاد الغرب على كثرة قرائها وشيوع الثقافة العميقة بينهم، فأجدر أن تكون الشكوى في بلادنا أشد لذعًا وأمض وقعًا منها في تلك البلاد.

والأمر لا يقف عند هذا الحد من الصعوبة والعسر، فقد اختلطت القيم وتشابهت، وعميت حقائقها على الناس في هذه الأيام، وكان حظنا من هذا الاختلاط أعظم من حظ بلاد الغرب لقلة الثقافة العميقة المتينة بين قرائنا، فكثُرَ بيننا أولئك الذين يطلقون الأحكام إطلاقًا ويرسلونها إرسالًا لا يتعمقون ولا يتدبرون؛ لأن وسائل التعمق والتدبر تعوزهم فهم يحتاجون إلى علم بحقائق الأشياء أكثر مما أتيح لهم أن يعلموا ليروا ويفكروا ويستقصوا قبل أن يطلقوا ما يطلقون من الأحكام، وقبل أن يرسلوا ما يرسلون من الأحاديث.

فمنهم من يرى أن الأدب عندنا قد ضعف وتهافت لأنه قديم قد بَعُدَ عليه العهد، ولأن أصحابه الذين ينتجونه يعيشون في عصور جديدة بالقياس إليهم، لم يألفوها، وهي لا تلائم طبائعهم، فهم غرباء في هذه العصور قد طالت عليهم أعمارهم وآن لهم أن يميتوا أنفسهم قبل أن يدركهم الموت، فيأخذوا أنفسهم بالصمت ويصدوها عن الإنتاج الذي لا يلائم البيئة الجديدة التي لا تألفهم ولا يألفونها. ولا يقول هؤلاء الناس لأنفسهم إن هؤلاء الأدباء هم الذين أنشئُوا البيئة الجديدة حين أحدثوا ما أحدثوا في الأدب من تطور عميق واسع بعيد المدى، فهم ليسوا غرباء عن هذه البيئة؛ لأنها بيئتهم التي صنعوها بأيديهم وأرادوها لأنفسهم ولأبنائهم، وإنما تعقدت أمور الحياة في هذه البلاد كما تعقدت في غيرها من أقطار الأرض، فصعب الاتصال بين الأدب وعامة الناس؛ لكثرة ما طرأ من وسائل التيسير على الناس فيما يقرءُون ويسمعون، وفيما يثقفون به أنفسهم من طريق النظر والسمع والقراءة اليسيرة الخاطفة الرخيصة التي لا تكلف الناس من الجهد العقلي ومن فراغ البال ما تكلفهم قراءة الأدب الرفيع. ومنهم من يقول إن الناس جميعًا في حاجة إلى أن يقرءُوا ويفهموا ويذوقوا ويستمتعوا بالجمال الأدبي، فيجب أن يكون الأدب قريب التناول يستطيع كل إنسان أن يذوقه ويستمتع به، وليس كل الناس قد تعمق اللغة وعرف من أسرارها ودقائقها ما يمكنه من إساغة هذا الأدب الذي يحتفظ بجمال الصورة ورونق الأسلوب، ويحرص على أن يتخير المعاني الكريمة ويؤديها بالألفاظ العذبة الرائعة التي يحسن وقعها في السمع وموضعها في القلب.

فينبغي أن يكون الأدب شعبيًّا يفهمه ذو الثقافة الممتازة وذو الثقافة المتوسطة وذو الثقافة الضئيلة، ولا ينسون إلا شيئًا واحدًا هو أن الأدب فن رفيع. والفن الرفيع لا ينزل، وإنما يرقى إليه طلابه ومحبوه. وليس الأدباء مكلفين أن يعلِّموا الناس ويبلغوا بهم من التعليم والثقافة إلى حيث يستطيعون أن يذوقوا الآداب الرفيعة والفنون الجميلة، وإنما

يُطلَب ذلك إلى الذين يقومون على شئون التربية وأمور التعليم. وكل ما يُطلَب إلى الأديب ألا يكون أدبه ممعنًا في الغرابة متعمدًا للغموض، وألا يؤدَّى في ألفاظ وأساليب لا تعيش في هذه الأيام، وإنما كانت تعيش في العصور القديمة البعيدة العهد. فلا ينبغي لمن يكتب الآن أن يتكلف مذهب ابن المقفع، أو طريق الجاحظ، أو أسلوب الحريري والبديع الهمذاني، ولا ينبغي له أن يرهق الناس من أمرهم عسرًا فيفرض عليهم الرجوع إلى المعاجم في كل سطر.

فالجمال لا يكون في غرابة اللفظ وخشونته، ولا في خفاء المعنى وغموضه، ولا في التواء الأسلوب وتعقُّده، وإنما الجمال شيء آخر يناقض هذه الخصال كل المناقضة ويخالفها أشد الخلاف. ولا على الأديب إذا أدى أدبه في هذه اللغة اليسيرة في غير ابتذال، السهلة في غير إسفاف، الرصينة في غير إغراب … لا على الأديب ألا يفهمه الذين لم تكمُل أداتهم من المعرفة، ولم يَعظُم حظهم من الثقافة، وإنما على هؤلاء أن يكملوا معرفتهم ويعظموا حظوظهم من الثقافة، شأنهم في ذلك شأن ذلك الذي قال لأبي تمام ذات يوم: لمَ لا تقول ما يُفهَم؟ فأجابه أبو تمام: ولمَ لا تفهم ما يقال؟

ولا تعاب الصورة الرائعة لأن غير المبصرين لا يرونها، ولا تعاب الموسيقى الممتازة لأن الذين فقدوا السمع لا يسمعونها. فكيف بالذين يتعمدون ألا ينظروا ويتعمدون ألا يصغوا، ويريدون أن يُلقَى جمال الفن في أذواقهم وقلوبهم إلقاءً دون أن يتكلفوا الاستمتاع به؟

ويزعمون أن أدب الثورة لم يوجد بعد مع أن الثورة قد شبَّت منذ أكثر من عام، كأن الأدب شيء يكفي أن يقال له كن فيكون، أو أن يقال له تغير فيتغير بعد يوم وليلة. إنما تغير الثورة أول ما تغير نظم الحكم وأوضاع الحياة العامة، وما يحتمل التغيير من الصلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بين الناس. فأما الطبائع والنفوس والأذواق والعقول فيحتاج تغييرها إلى وقت طويل جدًّا لا يحصى بالعام وبعض العام، وإنما يحصى بالأعوام الطويلة المتتابعة. والذين يقولون هذا الكلام ينسون أو يجهلون أن الأدب يمهد للثورة وينشئها ويشب جذوتها في النفوس بما يلقي في قلوب الناس من الآراء الجديدة، وبما يصور لعقولهم من القيم المستحدثة، وحين ينقل أذواقهم من طور إلى طور، وحين يبغض إليهم القديم من أوضاعهم الاجتماعية ويدفعهم إلى تغيير هذه الأوضاع. فإذا شبت الثورة كان شبوبها دليلًا على أن الأدب قد أدرك النجاح وظفر ببعض غاياته. ثم تعمل الثورة بعد ذلك في الأدب عملًا بطيئًا مستأنيًا متصلًا، فتغيره

بعد حين يقصُر أو يطول. ويكفي أن تذكر أن الإسلام لم يغير الشعر العربي الجاهلي تغييرًا خطيرًا إلا بعد ظهوره بنصف قرن، وأن الثورة العباسية كانت نتيجة الأدب الأموي، ولم تُنشِئ أدبها العباسي الخالص إلا بعد أكثر من نصف قرن.

وقل مثل ذلك في الثورة الفرنسية، مهَّد لها أدب القرن الثامن عشر، ولم تُنشِئ أدبها إلا في أواسط القرن التاسع عشر. وقل مثل ذلك فيما شئت من الثورات، فالذين كانوا ينتظرون أن يصبحوا في الخامس والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ وبين أيديهم أدب جديد يلائم الثورة ويطابقها؛ يخطئون أشد الخطأ وأشنعه. وحسْبُ الأدب أن ينظر فإذا الثورة تلائمه كل الملاءمة وتطابق ما كان يصوِّر للناس من المُثُل العليا في الحياة العامة على اختلاف فروعها. إنما الأدباء قوم يحلمون، والثورة تعبير وتفسير لأحلامهم. وستبعث الثورة في نفوس الأدباء أحلامًا أخرى أجمل من أحلامهم الأولى، وستعبِّرها الثورة وتفسرها بما تحدث من تطور وما تبدع من نظام.

كذلك تمضي حياة الناس، لا سبيل إلى تغيير أسلوبها ولا إلى تغيير ما رسمت الطبيعة لها من طريق، فالذين يذكرون قدم الأدب وغرابته في البيئة الحديثة، والذين يذكرون صعوبة الأدب وارتفاعه على الطبقات القارئة، والذين يعيبون الأدب بأن الثورة لم تنشئه، إنما يقولون بغير تدبر ويرسلون أحكامهم في غير روية ولا أناة ولا تعمق لحقائق الأشياء. وحقائق الأشياء تدل في غير غموض ولا التباس على أن الحياة الإنسانية الحديثة قد أثارت للأدب الإنساني كله على اختلاف مواطنه وبيئته مشكلات كثيرة صوَّرنا بعضها آنفًا وما يزال بعضها الآخر في حاجة إلى التصوير. والأدب يشقى بهذه المشكلات في كل مكان ويلتمس لها الحلول. ونشعر نحن بهذه المشكلات أكثر مما يشعر بها غيرنا من الأوروبيين والأمريكيين؛ لأن أدبنا الحديث ما زال في شبابه، وقد طرأت له هذه المشكلات قبل أن يُمكَّن له في الأرض، ولأن قراءنا قلة، ولأن المثقفين بين هؤلاء القراء أقل من هذه القلة جدًّا، ولأن مصاعب الطبع والنشر ومشكلات السينما والراديو وما يشبههما من الملهيات والمغريات أيسر من الأدب تحصيلًا وأقرب منه منالًا.

فلا تقل إن الأدب الحديث ضعيف، ولا تقل إنه غريب قد نبت به الدار، ولا تقل إنه غير ملائم لطبيعة الذين يقرءُونه، ولكن قُل إنه مُمتحَن بطائفة من المشكلات أكثرها مشترك بينه وبين الآداب الأخرى، وبعضها الآخر عارض لا يلبث أن يزول حين تَصلُح الحياة الاقتصادية ويُنشر التعليم وتتصل المعرفة والثقافة إلى أعماق الشعب.

إذا قلت هذا لم تَعْدُ الحق ولم تتجاوز الصواب.

الأدب والحياة

أريد أن أعتذر إلى أصحاب الجد من قرائنا وهم — والحمد لله — ما زالوا كثيرين، وإنما أعتذر إليهم من أني سأبدأ هذا الحديث بأشياء يرونها وأراها أوضح من أن تجري فيها الأحاديث؛ لأنها بديهية مقررة قد اتفق الناس عليها واطمأنوا إليها منذ أقدم العهود، ولكن ماذا أصنع وماذا يصنع غيري من أصحاب الجد، إذا اقتضت ظروف الحياة الأدبية أن نستأنف الحديث في بعض الأوليات التي كنا نظن أن الإنسانية قد فرغت منها؟

وأول ما أبدأ به من هذه البديهيات هو هذا السؤال: لماذا يُنتِج الأديب شاعرًا كان أو ناثرًا؟

أما أصحاب الأصالة في الأدب فليس عندهم على هذا السؤال إلا جواب واحد؛ وهو أن الأديب إنما ينتج لأن طبيعته تقتضيه الإنتاج، ولأن البيئة من حوله تقتضيه الإنتاج أيضًا، أو لأن الله قد خلق الجماعة الإنسانية وفيها طائفة من الظواهر الاجتماعية، ومن هذه الظواهر أن ينتج الأدباء ويسمع الناس أو يقرءُوا.

ولسنا نعرف بيئة إنسانية، بادية أو متحضرة، متقدمة في الحضارة أو مقصرة فيها، إلا ولها لون من الأدب يلائم طاقة أدبائها للإنتاج، وطاقة أعضائها الآخرين للقراءة أو الاستماع. ومن أجل ذلك رأينا أهل البادية من العرب قبل أن يمسهم جناح من الحضارة يحفلون بما أتيح لهم في حياتهم تلك من الأدب. يقول شاعر القبيلة، ويسمع له سائرها، ويحفظ كثير منهم عنه بعض ما يقول أو كل ما يقول، وقد يشيعونه من حولهم في حياتهم تلك المتنقلة، فيتجاوز شعر الشاعر قبيلته إلى قبائل أخرى. ويتفاوت شعر الشعراء في شيوع شعرهم وانتشاره، وما ينشأ عن ذلك لأصحابه من الشهرة وبُعد الصوت.

وقد تغيرت أطوار تلك الأمة البادية، فتحضرت قليلًا أو كثيرًا، ولكنها لم تنسَ شعرها القديم من جهة، ولم تكتفِ به من جهة أخرى، وإنما حفظته، وأضافت إليه وأنشأت شعرًا متحضرًا يشبه أو لا يشبه ما حفظت من شعرها القديم.

ثم أغرقت في الحضارة، وفرضت لغتها ودينها وأدبها على أمم أخرى، وأنشأت لونًا جديدًا من الحضارة لم تألفه في عهودها الأولى ولم تعرفه الأمم الأخرى قبل أن تخضع للسلطان الجديد. وهي في هذا الطور من حياتها لم تنسَ أدبها، ولم تعرض عنه، ولم تكتفِ به، وإنما حفظته وأضافت إليه أيضًا، ثم أدركها شيء من الخمول بعد النباهة، ومن الضعف بعد القوة، ومن التفرق بعد الاجتماع، ومن الخضوع بعد التسلط، فلم تنسَ قديمها في الأدب، وإنما حفظته وحاولت موفقة أو غير موفقة أن تزيد فيه وتضيف إليه. لا نعرف أنها أهملت الأدب أو أعرضت عنه، أو زهدت فيه، على اختلاف العصور وعلى اختلاف الأطوار وعلى تتابع المحن وازدحام الخطوب حتى صارت إلى ما هي عليه الآن، وحتى أصبح أدبها أطول الآداب الحية عمرًا، وأشدها بقاءً، وأقدرها على مقاومة الكوارث والأحداث …

كل هذه حقائق أولية يعرفها المثقفون جميعًا، وتُدرَّس للشباب في مدارسهم ومعاهدهم، ولكني سأنتقل من هذا السؤال وجوابه إلى سؤال آخر ليس أقل غرابة من السؤال الأول، وليس الجواب عليه أقل إغراقًا في البداهة من الجواب على السؤال الأول: فيمَ كان قدماء شعراء العرب يقولون الشعر؟ وفيمَ كانوا يخطبون؟ وفيمَ كانوا يكتبون؟ وأصحاب الأصالة في الأدب يجيبونك بأنهم كانوا ينشئون الأدب فيما كانت طبيعة حياتهم تقتضيه من فنون القول.

كانوا يتغنون الرضى إذا رضوا، ويتغنون السخط إذا سخطوا. يتغنون الحزن إن أصابهم الحزن، والسرور إن أتيح لهم السرور. كانوا يصورون ما كانوا يجدون من ألوان الحس والعواطف والشعور، وكانوا يحبون ما يعرض عليهم أدباؤهم من هذه الصور، فيتحدثون بحبهم لها ورضاهم عنها، وكانوا يكرهون بعض ما يعرض عليهم أدباؤهم من هذه الصور، فينصرفون عنها ويسخطون عليها ويتحدثون عن هذا السخط وذلك الانصراف، فهم قد عرفوا الأدب ونقد الأدب في جميع عصورهم منذ عرفهم التاريخ إلى الآن، وهم ليسوا بِدعًا في ذلك من الأمم الأخرى؛ لأن الأدب ليس ظاهرة عربية فحسب، إنما هو ظاهرة إنسانية، ولأن النقد كذلك ليس ظاهرة عربية فحسب، وإنما هو ظاهرة إنسانية أيضًا.

وما دُمت تحرص على أن تسمع أو تقرأ ما ينتج الأدباء، وما دُمت تتحدث عما سمعت أو قرأت حديث الراضي أو حديث الساخط، فأنت معنيٌّ بالأدب ناقدٌ له على نحو ما من العناية وعلى نحو ما من النقد.

الأدب إنسانيٌّ إذن، والنقد إنسانيٌّ أيضًا، والأدب يصور حياة الناس والنقد يبين ملاءمة هذا الأدب لأذواقهم أو مخالفته لها. وإذن فلا يكون الأدب أدبًا حتى يصور حياة الناس، وليس في الأرض أدب إلا وهو يصور حياة أصحابه.

ومن هنا كان الأدب مصدرًا من مصادر التاريخ الإنساني، وعسى أن يكون بالقياس إلى بعض الأمم، أو بالقياس إلى بعض أطوار هذه الأمم، أخطر مصادر التاريخ.

ولأمرٍ ما قال قدماؤنا إن الشعر الجاهلي ديوان العرب؛ لأنهم لم يكادوا يعرفون شيئًا من أمر هؤلاء الجاهليين إلا من طريق هذا الشعر. ومن المحقق أن الشعر الإسلامي ديوان العرب في القرن الأول للهجرة، وأنك إذا اعتمدت على المصادر التاريخية وحدها، أضعت أشياء خطيرة جدًّا من حياة المسلمين في ذلك العصر. وأكاد أعتقد أن الأمر كذلك بالقياس إلى حياة الأمة العربية على اختلاف عصورها وأطوارها وبيئاتها، وأكاد أعتقد كذلك أن شأن الأمم الأخرى في هذا كشأن الأمة العربية؛ فالأدب يصوِّر حياة النفوس والقلوب والأذواق على نحو لا يستطيع التاريخ أن يصوره، ولا أن يسجله ولا أن ينقله إلينا نقلًا صحيحًا دقيقًا.

وإذن فالذين يقولون يجب أن يكون الأدب للحياة، ويظنون أنهم يقولون شيئًا جديدًا، لا يقولون في حقيقة الأمر شيئًا، ويخطئون حين يظنون أنهم يبتكرون شيئًا لم يألفه الناس منذ أقدم العصور. فكل أدب في أي أمة من الأمم إنما هو يصور نوعًا من أنواع حياتها، ولونًا من ألوان شعورها وذوقها وتفكيرها وانعكاس صور الحياة في نفوسها. وأكبر الظن أن الذين يقولون يجب أن يكون الأدب للحياة إنما يريدون شيئًا يحسونه في أعماق نفوسهم ولكن عقولهم قد لا تحققه.

فإذا أرادوا أن يعبِّروا عنه أخطأهم التعبير، وعسى أن يحققوا في نفوسهم أشياء ثم تمنعهم ظروف الحياة على اختلافها من أن يعربوا عنها في إفصاح ويصوروها في جلاء ووضوح.

فقد طرأت في الحياة الإنسانية الحديثة ظواهر جديدة لعلها لم تطرأ للأمم قبل هذا العصر الحديث، وأمسُّ هذه الظواهر بالأدب انتشار المعرفة وتغلغل الثقافة في طبقات من شعوب لم تكن تصل إليها قبل أن تتقرر حقوق الشعوب، وقبل أن تستمتع الشعوب بهذه الحقوق استمتاعًا واقعًا.

فكان الأدب يتجه إلى الطبقات المثقفة ولا تصل منه إلى الطبقات التي لم تدركها الثقافة إلا أصداء غامضة لا تبلغ أعماق نفوسها فضلًا عن أن تستقر فيها. فأما الآن فقد تقررت سيادة الشعوب وتقرر حقها في أن يأخذ أفرادها على اختلافهم بما يتاح لهم من حظ في المعرفة والثقافة، وأصبح الأدب مكلفًا أن يبلغ هذه الطبقات التي لم يكن يبلغها من قبل. أصبح مكلفًا أن يبلغها مرتين: يبلغها أولًا لينقل صور حياتها إلى الأديب، ويبلغها ثانيًا ليرد إليها هذه الصور، وقد صاغها الأديب في فنه وأضفى عليها ما يقتضيه الفن من الجمال الذي يحبِّب الخير ويرغِّب فيه ويبغِّض الشر ويصد عنه.

والأمر بعد ذلك في حاجة إلى كثير من التأني والتحقيق؛ فالأدب في أي أمة من الأمم إنما نشأ شعبيًّا ثم تطور بمقتضى الحضارة حتى ضاقت ميادينه وانقطعت أو كادت تنقطع الصلة بينه وبين طبقات الشعب التي لم يتح لها التعليم.

فالشاعر العربي في الجاهلية وفي القرن الأول للهجرة لم يكن يقول الشعر لطبقة بعينها من الناس، وإنما كان يقوله لكل الذين كانوا يستطيعون أن يفهموه ويذوقوه، وكانت بيئته كلها تستطيع أن تفهم الشعر وتذوقه. والمحقق أن زهيرًا مثلًا لم يقُلْ شعره لتفهمه طبقة بعينها من قبيلته، وإنما قاله ليفهمه كل من سمعه من العرب ويذوقه، لا فرق في ذلك بين القوي والضعيف ولا بين الغني والفقير ولا بين سادة القبيلة وسائر أفرادها. ثم لم يكد شعره يُنشَد حتى فهمته قبيلته وفهمه غير قبيلته من العرب الذين كانوا يعيشون في نجد والحجاز وغيرهما من الأقاليم التي كان أهلها يتكلمون لغة زهير.

وقل مثل ذلك بالقياس إلى الشعراء الجاهليين جميعًا وبالقياس إلى الشعراء الإسلاميين أيضًا. شعر زهير وامرئ القيس والنابغة والأعشى وشعر جرير والفرزدق والأخطل كان شعرًا يصور الحياة العربية كما كان أصحابها يحيونها؛ لأن الأغنياء والفقراء والأقوياء والضعفاء كانوا يتكلمون لغة واحدة، وكانت حظوظهم من المعرفة والثقافة واحدة أو متقاربة أشد التقارب وأقواه.

وإذا شق علينا نحن أن نفهم هذا الأدب ونذوقه إلا إذا هيَّأنا أنفسنا لذلك تهيئة خاصة بالدرس والجهد والتحصيل، فليس هذا لأن هذا الأدب لا يصور حياة أصحابه، بل لأنه لا يصور حياتنا نحن ولا يشتق منها. وقل مثل هذا في شعر الشعراء القدماء من اليونان: لم يكن يقال لطبقة بعينها وإنما كان يقال للبيئة التي عاش فيها الشعراء، فلما تحضَّر اليونان وتعقدت حياتهم أصبح شعر أولئك الشعراء بالقياس إليهم كشعر الجاهليين والإسلاميين بالقياس إلينا.

والمهم هو أن الأديب لا يُنشِئ أدبه لفرد من الناس، ولا لجماعة محدودة منهم، وإنما ينشئه لبيئته التي يعيش فيها ولهذه البيئة كلها، وهو واثق بأن أدبه سيُفهَم ويُذاق. ولم يكن العرب الجاهليون جميعًا أغنياء ولا أقوياء، وإنما كانوا كغيرهم من الشعوب؛ فيهم من يتاح له الثراء ومن يقضي عليه الضيق.

وقل مثل ذلك في العرب الإسلاميين، والخطأ كل الخطأ أن يظن ظانٌّ أن الشعراء حين كانوا يمدحون السادة وأصحاب الثراء، إنما كانوا يقولون الشعر لهم وحدهم، ولو كان الأمر كذلك ما احتفل ممدوحٌ بمدح قط، ولو كان الأمر كذلك أيضًا ما عُني الناس بهذا المدح بعد موت الممدوحين وبعد العهد بهم، فلم تكن عناية زهير بهرم بن سنان مقصورة عليه دون غيره من عامة العرب، وإنما مدح زهير صاحبه ذاك ليأخذ عطاءه من جهة، وليعجب الناس بشعره من جهة أخرى، وعسى أن يكون حرصه على إعجاب الناس بشعره أشد من حرصه على الظفر بعطاء الممدوح. ولأمرٍ ما قال بعض ولد زهير إن ما نال زهير من ممدوحه ذاك قد فني وأدركه البلى، ولكن شعر زهير فيه لم يفنَ ولا سبيل إلى أن يدركه الفناء.

ولقد انقضت الألعاب الأولمبية اليونانية وانقضى المستبقون فيها من السادة والطغاة منذ قرون طويلة جدًّا، ولكننا ما زلنا نقرأ شعر بندار ونعجب به ونحرص عليه إلى الآن. وليس كل الناس يستطيعون أن يقرءُوا هذا الشعر كما أنهم جميعًا لا يستطيعون أن يقرءُوا شعر زهير قراءة الفاهم الذائق، وإنما يتاح ذلك لمن هيَّأ نفسه للقراءة والفهم والذوق.

فلا تقل إن الأدب القديم لم يكن يصور الحياة بل قل إنه لم يصبح مصورًا لحياتنا نحن، وهنا تأتي المشكلة التي يتورط فيها كثير جدًّا من دعاة الأدب الجديد عندنا في هذه الأيام؛ فهم يعيبون الأدب القديم جملة بأنه كان أدبًا بعيدًا عن الحياة وبأنه كان أدب ملوك وبأنه كان أدب إقطاع، وينبغي إذن أن نُعرِض عنه الإعراض كله، وأن نمقته أشد المقت وننفر منه أعظم النفور، وننشئ لأنفسنا أَدبًا يلائم الحياة، والحياة هنا هي حياتنا نحن هذه التي نحياها في هذه الأيام. ولو حقق هؤلاء الكتاب في عقولهم هذا الذي يدعون إليه لأنكروه أشد الإنكار ولبرَّءُوا أنفسهم منه أقوى التبرئة وأعنفها، فهم إنما يدعون إلى شيء يسير جدًّا هو أن نلغي القديم كله إلغاءً، ونجتث الإنسانية من أصولها، وننشئ إنسانية جديدة تقوم على هذه الحياة التي تحياها الشعوب الآن.

وما أعرف أن أحدًا من هؤلاء السادة يريد أن يلغي الأدب القديم حقًّا لأن بعضه أُنشئ للملوك ولأصحاب الإقطاع، فهم أعقل عقلًا وأحصف رأيًا وأحسن تقديرًا للأمور

ورعاية لحقوق الثقافة من أن يريدوا مثل هذا أو يدعوا إليه. ولست أعرف أدبًا أُنشئ للملوك، ولا قصر عليهم، وإنما أعرف أن الملوك وأصحاب الثراء اتخذوا وسائل لإنتاج الأدب في بعض الظروف.

وأؤكد لك أني حين أقرأ قول الشاعر القديم للرشيد:

وعلى عدوِّك يا ابن عم محمد رحوان ضوء الصبح والإظلامُ
فإذا تنبَّه رُعْتَهُ وإذا غفا سلَّت عليه سيوفَك الأحلامُ

لا أكاد أقف عند الرشيد ولا عند إخافته للعدو نيامًا وإيقاظًا، وإنما الذي يعنيني قبل كل شيء هو أن هذا الشعر جيد يروع بما فيه من تصوير ما ينبغي أن يكون عليه الملك اليقظ الحازم الذي يحرص على رعاية الدولة ويحوطها، لا من غارة العدو فحسب، بل من طمعه في الغارة عليها.

وليس يعنيني أن يكون الرشيد قد كان كما وصفه الشاعر أو لم يكن، وإنما الذي يعنيني هو هذا المثل الأعلى الذي رسمه الشاعر للذين يقومون على شئون الأمم وينهضون بأعباء السلطان فيها، سواء أكانوا ملوكًا أم خلفاء أم رؤساء جمهوريات.

وإذا كان هذا كله لا يعنيني فأجدر ألا أحفل بأن هذا الشاعر قد صدق أو كذب، فقد ذهب الشاعر وذهب ممدوحه وذهب عصره وذهب مع هذا كله صدق الشاعر وكذبه، وبقي الشعر صادقًا أروع ما يكون الصدق في تصوير المثل الأعلى لرؤساء الدول حين يذودون عن دولهم.

ومثل هذا يقال في المدح الجيد الذي ساقه الشعراء إلى الملوك وأصحاب الثراء. ليس المهم أن يصدق الشعراء أو يكذبوا بالقياس إلى الذين يمدحونهم ويثنون عليهم، وإنما المهم أن يصدق الشعراء في تصوير المثل العليا فيما يُنشِئون من مدح وثناء؛ لأن المادحين والممدوحين يذهبون وتبلى أشخاصهم، ولكن المُثُل العليا التي يصدقون في تصويرها تبقى للناس ما بقي الناس.

وهذا هو معنى ما يقال من أن الأدب الصحيح الجدير بهذا الاسم خالدٌ مهما يُصِب أصحابه وبيئاتهم من الخطوب وأحداث الزمان. وهذا هو السر في أن التراث الأدبي والفني عزيز على الإنسانية المثقفة؛ لأنه يصور لها الجمال، والجمال الخالد لا يدركه الفناء.

وما أظن هؤلاء السادة يريدون أن يلغوا من أدب شكسبير ما مدح فيه الملوك والأشراف لأن عهد الملوك والأشراف قد انقضى، وما أحسبهم يريدون أن يلغوا آثار أصحاب الفن الخالدين من أصحاب التصوير والنقش والعمارة لأن هذه الآثار قد أُنشِئت لملك أو أمير أو شريف من أصحاب الإقطاع.

فقد ذهب هؤلاء جميعًا، وذهب معهم الذين أنشئُوا لهم هذه الآثار، وبقيت الآثار تراثًا خالدًا، نحوطه كلنا بما نملك من القوى والجهود، ويحرص عليه منا الذين يحبون القديم والذين يدعون إلى التجديد.

والتراث المصري القديم كله على اختلافه — فنًّا كان أو أدبًا — قد أنشئ للملوك، أو أنشئ في ظل الملوك، أو أنشئ في حياة شديدة التأثر بالملوك وأصحاب الإقطاع، وما أعرف أن أحدًا منا يريد أن يلغي هذا التراث أو يعرض عنه أو يزهد الناس فيه.

فالقضية إذن توضع وضعًا خاطئًا من أساسها؛ فهؤلاء السادة لا يكرهون القديم لأنه قديم، وهم لا يكرهونه لأنه أنشئ للملوك وأصحاب الإقطاع، ولكنهم يرون حياتنا قد أخذت تتغير وتسلك سبيلها المستقيمة جادة إلى الخير والإصلاح.

وهم يرون كذلك أن اليقظة قد أخذت تبلغ نفوس الشعب وتتغلغل حتى تصل إلى أعماقه، وهم من أجل هذا كله يريدون أن يكون ما ينشأ من الأدب مصوِّرًا لحياة الشعب وآماله وآلامه وحاجاته وغاياته أيضًا.

يريدون هذا كله ولا يريدون أن ينقصوا من قيمة الأدب القديم شيئًا، ولكن ألسنتهم تجمح وأقلامهم تجور عن القصد. وهم يرون الناس يكرهون الملوك لسوء آثار الملوك فيهم ولأن الثورة قد طردت ملكًا، فلا يجدون بأسًا في أن ينتفعوا بهذه الظروف ليروجوا لدعوتهم، ويزيدوها إلى الناس قربًا وإلى قلوبهم حبًّا. وكثير منهم يخيل إلى نفسه أنه يرضي الثورة بذلك، ويتقرب إلى رجالها، ولكنهم في حاجة شديدة إلى الإنصاف وأخذ النفس بشيء من الاعتدال.

فالباطل لا يُرضي أحدًا والحق لا يُغضِب الرجل الرشيد، وما أحسبهم يستطيعون أن يصارحوا الثورة بأن الأدب القديم شر يجب أن يزول، وفساد يجب أن يُلغَى، وإثم يجب أن تُمحَى آثاره. وبأن أول ما يجب من ذلك أن يترك القديم لقدمه، وأن نحرق الكتب التي سجلته ونحظر درسه في المدارس والمعاهد ونعاقب الناس على التحدث به أو التحدث عنه؛ لأنه أنشئ للملوك وأصحاب الإقطاع، أو أنشئ في ظلهم، وقد ألغينا الملكية وألغينا الإقطاع، فيجب أن نلغي كل شيء أنشئ في ظلهما.

هذا كلام يمكن أن يقال، وما أكثر الكلام الذي يقال! ولكن الشيء المحقق أن أحدًا لن يسمع له، ولن يحفل به، ولن يلتفت إليه، ولن يوجد المِعول الذي يعمل في هدم الأهرام أو هدم مسجد من المساجد التي أنشأها الملوك وأصحاب الإقطاع، ولن توجد النار التي تضرم لتحريق ديوان من دواوين الشعر أو كتاب من كتب النثر.

ولو قد تحدث أحد هؤلاء السادة إلى رجل من رجال الثورة في شيء من ذلك أو في شيء يشبه ذلك من قريب أو بعيد، لما رأى منه إلا ازدراء ولما سمع منه إلا زجرًا وانتهارًا، وما أعرف شيئًا يسوء الثورة والقائمين عليها من هذا الكلام الذي يقال في غير تفكير ولا قصد ولا تدبر من قائليه.

فليقولوا ولنقل معهم إن حياة جديدة قد أخذت تجري في شعب مصر، وإن الأدب الجديد يجب أن يكون ملائمًا لهذه الحياة، يصور حقائقها الواقعة، ويوجهها إلى ما ينبغي أن تتجه إليه، ويُبصِّر الناس بما يضرهم ليجتنبوه وبما ينقصهم ليسعوا إليه.

ونحن حين نقول هذا نرضي أنفسنا ونرضي شعورنا بالحاجة إلى التجديد، ولكن المحقق أن الأدب ليس في حاجة إلى هذا القول؛ فهو بطبعه ملائم للبيئة التي ينشأ فيها، وما أظن أن أديبًا من الأدباء المعاصرين يخطر له أن يمدح الآن ملكًا أو يثني على إقطاع.

أما بعد فقد خُلق الأدب للحياة، وعاش للحياة دائمًا، ولاءم البيئات التي كان ينشأ فيها على اختلاف العصور والظروف، ولن يكون الأدب الجديد عندنا بدعًا من آداب الدنيا كلها.

فليُرِح هؤلاء السادة أنفسهم، وليوجِّهوا جهودهم إلى ما ينفع الناس ويجدي عليهم، وإلى ما يغني هذا الأدب الجديد ويضيف إليه ثراءً جديدًا، ولينقلوا الخصومة من الأدب نفسه إلى صورة الأدب، فما عسى أن يكون الأدب الذي يريدون أن ينشأ في حياتنا الجديدة وأن يُوجَّه إلى الناس؟ أيكتب في لغة رثة وأساليب غثة ولهجة تشبه لهجات الأحاديث التي تجري في الشوارع والقهوات والأندية؟ أم يريدون أن يكون الأدب كما عرفته الإنسانية دائمًا فنًّا جميلًا يساق إلى الناس في زيٍّ جميل؟

هذه هي المسألة التي ينبغي أن يدور حولها الحديث، وإنه لحديث طويل.

الأدب والحياة أيضًا

وكذلك غضب الغاضبون، وثار الثائرون، وتساءل المتسائلون؛ منهم من أعلن ذلك في الفصول الطوال والقصار، ومنهم من استخفى بذلك يتحدث به إلى الرفيق والصديق، ومنهم من كتب إليَّ في بعض ذلك الكتب ومن سألني عن بعض ذلك في التليفون، وهذا كله ليس شيئًا يسيرًا مما أردت إليه حين تحدثت عن الأدب والحياة، فقد أردت إلى أن يستيقظ النائم، ويتنبه الغافل، ويخرج الهادئ من هدوئه، ويزعج المطمئن الراضي عن اطمئنانه ورضاه … فما أعرف شيئًا أضرَّ بالحياة العقلية وأدفعَ لها إلى البلادة والجدب من هذا الذي كاد شبابنا وشيوخنا من الأدباء والمثقفين يتورطون فيه من الجمود والخمود والركود، والرضى بما كان، والاطمئنان إلى ما هو كائن، والاستخفاف بما يمكن أن يكون …

وقد تعودت دائمًا أن أُوثر سخط العقول على رضاها، وأن أحب لها القلق وأكره لها ما يمكن أن تضطر إليه من هذا الأمن المخيف الذي ينتهي بها إلى الفتور وإيثار الدعة، والاطمئنان الذي يحبب إليها الراحة ويغريها الكسل ويزين لها الاستسلام والتسليم أيضًا.

وما أعرف أني رضيت عن شيء منذ سنين كما رضيت في هذا الأسبوع عن بعض الأحاديث التي انتهت إليَّ بالتليفون، والأسئلة التي وصلت إليَّ في الرسائل، والأسئلة التي وُجِّهت إليَّ في الصحف وفي «الجمهورية» خاصة … فكل هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن في حياتنا العقلية شيئًا من أمل لم يفتر بعد ولا ينبغي أن يدركه الفتور.

كان هذا بعض ما أردت إليه، لا كل ما أردت إليه. فإني لا أقنع بالأمل ولا أكتفي بالرجاء، فالآمال تكذب وتصدق والرجاء ينجح ويخيب، وإنما أريد أن ينتهي الأمل إلى عمل، وأن يؤدي الرجاء إلى الجهد والعناء، وإلى الجد والكد، وإلى تجديد الأدب بالمعنى

الدقيق الصحيح لهذه الكلمة، بالمعنى الذي لا يقوم على إرسال الأحكام الغامضة وإطلاق الكلام الذي لا محصول له ولا تحقيق فيه.

وأحب أن يطمئن الأساتذة الذين يضعون أنفسهم موضع الريبة ويظنون أني أردتهم أو أردت بعضهم حين كتبت ما كتبت، فإني لم أتحدث عن كاتب بعينه، ولم أفكر في هذا الكاتب أو ذاك، وإنما أردت إلى هذه النزعة المبهمة العامة التي أخذت تظهر وتشيع منذ حين، والتي تدعو إلى أشياء لا تحققها ولا تعرف لها حدودًا، وإنما تصور شعورًا غامضًا بالضيق وطموحًا غامضًا إلى شيء من السعة والإسماح، فتتعجل وتقضي قبل أن تحقق، وتقطع في الأمور قبل أن تستبين حقائقها، وتدعو فيما تدعو إليه إلى أن يكون الأدب في سبيل الحياة دون أن تحقق معنى هذا الكلام. فالأدب ليس وسيلة ولا ينبغي أن يكون وسيلة، والأديب لا ينشئ أدبه ليحقق هذا الغرض أو ذاك ولا ليبلغ هذه الغاية أو تلك، وإنما الأدب غاية نفسه والأديب يكتب لأنه لا يستطيع إلا أن يكتب.

فأما أن يُسخَّر الأدب ليكون وسيلة من وسائل الإصلاح أو سبيلًا من سبل التغيير في حياة الشعوب، فهذا تفكير لا ينبغي أن نساق إليه ولا أن نتورط فيه. وليس معنى هذا أن الأدب بطبعه عقيم، وأن الأديب أَثِرٌ بطبعه، ولكن معناه أن الإصلاح والتغيير وتحسين حال الشعوب وترقية شئون الإنسانية أشياء تصدر عن الأدب صدورًا طبيعيًّا كما يصدر الضوء عن الشمس، وكما يصدر العبير عن الزهرة، وكما تثير الروضة في نفسك ما تثير من الشعور بالجمال؛ فضوء الشمس لا يصدر عنها لتحقيق الأغراض وبلوغ الغايات التي تحققها أنت وتبلغها به، وإنما يصدر عنها بطبيعته وتنتفع أنت به، وتستمتع به أيضًا، وتحقق به أغراضك، وتبلغ به غاياتك، وتوجهه من هذا كله إلى ما تريد وإلى ما تستطيع؛ لأنك تجده يغمرك ويتاح لك، ويهديك ويتيح لك ما تجد فيه من النفع.

والزهرة لا تنشر عَرْفها وشذاها لتتملق منك هذا الحس الذي رُكِّب في غريزتك.

وهي لا تتألق بجمالها ونضرتها وروائها وبهجتها لتتملق فيك حسًّا آخر رُكِّب في طبيعتك.

بل هي لا تعرفك وعسى ألا تعرف نفسها، فهي أجدر ألا تريد لنفسها عطرًا أو جمالًا أو رواءً، فضلًا عن أن تريدك بهذا كله أو بعضه.

وقل مثل ذلك في أشياء كثيرة في هذه الطبيعة يخيِّل غرور الإنسان للإنسان، وحرص الإنسان على منفعته، وتهالكه على ما يرضيه وإشفاقه مما يسوءه أنها تؤدي إليه ما تؤدي خدمةً له وإرضاءً لحاجاته وتحقيقًا لمنافعه.

مع أنها تجهله كل الجهل، وما أرى أنه سيتاح لها في يوم من الأيام أن تعرفه أو تفرض له وجودًا.

وماذا تريد من الإنسان الذي استقر في نفسه على اتصال القرون وتعاقب الأجيال أنه سيد، وأنه لا بد له من مسود، وأن أغراضه وغاياته ومنافعه ينبغي أن يذلل لها الكون؟ وإذا كان هذا رأيه في الطبيعة، وإذا كان استغلاله للطبيعة قد خيل له أنه سيدها ومالكها وأنها خادمته بل أَمَته، يتصرف فيها كما يتصرف السيد الملك، وأتاح له عقله بما اهتدى إليه من استكشاف واستغلال لبعض موارد الطبيعة أن يزداد إمعانًا في هذا الغرور وأن يفتن بنفسه فتونًا لا حد له، حتى يلقى في روعها أنه يستطيع بعد أن أتيح له استغلال الطبيعة أن يستغل الإنسان أيضًا ويسخِّره لأغراضه وغاياته ما صلح منها وما لم يصلح، ما كان منها مستقيمًا وما كان منها معوجًّا شديد الاعوجاج، ورحم الله أبا العلاء الذي أنفق حياته يدعو الإنسان إلى شيء من التواضع والقصد، ويذكِّره إن نفعته الذكرى بأن الطبيعة ليست ملكه وبأنه ليس فيها إلا شيئًا ضئيلًا، بل يذكره بأن النحل لا تنتج العسل له، ولا تفكِّر فيه حين تنتج العسل، وإنما تنتجه لنفسها ولأنها لا تجد من إنتاجه بدًّا.

غرور الإنسان وامتلاؤه بنفسه واعتداده بقوته خيَّل إليه أن لكل شيء غاية إنسانية يجب أن يبلغها الإنسان، ثم لم يلبث هذا الخيال أن أصبح في نفسه حقيقة وأن ملأه إعجابًا وتيهًا.

فسخَّر من حياته هو كل شيء لتحقيق أغراضه وإرضاء حاجاته كما سخَّر الطبيعة لإرضاء هذه الحاجات وتحقيق تلك الأغراض، فلا قيمة للأدب إلا إن حقق نفعًا، ولا قيمة للعلم إلا إن أرضى حاجة. ثم تجاوز الغرور به كل طور فظن أن النفع والغاية يجب أن يكونا في تيسير شئونه المادية وتطويع حياته التي يحياها كل يوم، فالأدب يجب أن يقصد به إلى الإصلاح وإلى الترقية وإلى تغيير حياة الناس ونقلها من طور إلى طور.

والعلم يجب أن ينتهي إلى الإنتاج المادي الذي يخرج ما في هذا العلم من ثمرات تجعل العيش يسيرًا وثيرًا. لكل شيء ثمن، وثمن مادي يجب أن تأخذه الأيدي وأن تتناوله الأفواه وأن تحتويه الجيوب. هذه قيم أقل ما يمكن أن يقال فيها أنها وليدة الغرور وسوء التحقيق للأشياء، وأنها تنتهي بالإنسان إلى مادية منكرة توشك آخر الأمر أن تجعله أداة إنتاج لا أكثر ولا أقل.

وكذلك يجب على الأديب أن ينشئ من الأدب ما يذلل الحياة وييسِّر وسائلها ويتيح للجائع أن يشبع، وللعاري أن يكتسي، وللمريض أن يصح، وللظمآن أن يجد الري،

ويصبح الأدب إذن أداة من أدوات وزارة الشئون الاجتماعية تستعين بها على تحقيق ما أُنشئت له من الأغراض.

والتعليم كله يجب أن يكون أدوات للإنتاج الذي يملأ الأرض مالًا وخصبًا وثراءً بعد أن مُلئت عدمًا وجدبًا وفقرًا.

والغريب أن الأدب في نفسه يحقق للناس كثيرًا من منافعهم ويرضي كثيرًا من حاجاتهم ويلائم دائمًا — كما قلت من قبل — حياة الناس؛ لأنه صورتها التي تشتق منها وتعود إليها. ولكن الناس في هذه الأيام يتعجلون الأمور ويملأ عليهم الشبع والري وامتلاء الأيدي ويُسر الحياة نفوسهم وعقولهم وقلوبهم فيطلبون إلى الأدب منافعهم في إلحاح مزعج مريب مع أنه يحقق لهم هذه المنافع كما حققها لهم دائمًا، ولكنه يحققها عفوًا على غير تعمد لها ولا قصد إليها. وهؤلاء الذي يلحون على الأدب في أن يكون سبيلًا إلى تيسير الحياة هم أشبه بمن يلح على الشمس في أن تجعل ضوءها أكثر نفعًا وأعم فائدة، إلا أن الشمس لا تحفل بمن يلح عليها في ذلك إن وجد؛ لأنها لا تسمعه ولا تعقله، على حين أن الأدب أو الأديب على الأقل يسمع ويعقل ويقدر الأمور ويفسد عليه هذا الإلحاح أمره ويوشك أن يغلَّه ويرده إلى الجدب ويمنعه من الإنتاج.

فالأدب لا يكره شيئًا كما يكره أن يكون وسيلة، والأدباء لا يكرهون شيئًا كما يكرهون أن يكونوا أدوات تُستغَل وتستذل وتُبتغى بها المنافع والحاجات.

وقد قلت في الحديث الماضي إن المادحين من الشعراء والكتَّاب أيضًا في العصور القديمة لم يكونوا يتخذون الأدب وسائل إلى السادة، وإنما كانوا يتخذون السادة وسائل إلى الإنتاج الأدبي ينتفعون بشوقهم إلى المدح ورغبتهم فيه وبذلهم المال للظفر به. والشيء المحقق أن أبا نواس من شعراء العرب وبندار من شعراء اليونان وهوراس من شعراء الرومان وراسين أو شكسبير من شعراء الفرنسيين والإنجليز لم يكونوا هم وأمثالهم يتخذون الملوك والسادة غايات لأدبهم، وإنما كانوا يطلبون عندهم المال والعون لينفقوهما فيما تتيح لهم الحياة التي كانوا يحيونها وكانت تيسر لهم الإنتاج الأدبي الذي نجد فيه الآن وستجد فيه الأجيال المقبلة غذاء القلوب والأذواق والعقول.

كل ما يؤخذ به هؤلاء السادة الذين يدعون إلى أن ينشأ الأدب في سبيل الحياة هو أنهم يريدون أن ينزلوا بالأدب فيجعلوه وسيلة بعد أن كان غاية، وينكرون أن يكون الأدب أول ما يكون وقبل كل شيء غذاء للأرواح، توشك المادية الحديثة الجامحة أن تضطرهم إلى جعل الإنسان كله أداة وأن تضطرهم إلى أن ينكروا ما في الإنسان من روح، من حقه أيضًا أن يقدم له الغذاء الذي يلائمه.

ليست الحياة شبعًا بعد جوع، وسعة بعد ضيق، وغنًى بعد فقر فحسب، ولكنَّ فيها شيئًا آخر أرقى من هذا كله وأقوم من هذا كله؛ هو هذا الروح الذي يحب الخير لأنه الخير ويحب الجمال لأنه الجمال، والذي ينبغي أن يكون الشبع والري والفن وسائل تمكِّنه من أن يجد غذاءه الفني الرفيع. إن الذين يتخذون المادة غاية، أو يتعرضون لاتخاذها غاية يهدرون ما في الإنسان من كرامة، وسيهبطون به إلى لون من ألوان الضعة لا ينبغي أن يهبط إليه.

ولست أسمي أحدًا بعينه ولا أفكر في أحد بعينه، وإنما أذكر هذه النزعة التي أخذت تعُم وتشيع والتي أشرت إليها منذ حين. وهذه النزعة لم تأتنا من غير مصدر، ولم تثُرْ في نفوس أصحابها عبثًا أو فجاءة، ولكنها نزعة معروفة قد أصبحت رسمية في غير موطن من مواطن الأرض، وكثر الدعاء إليها في غير مواطنها حتى أصاب كثيرًا من الأمم شيء من شررها.

وكل ما أتمناه هو ألا تتأصل فينا هذه النزعة التي لا يقوم عليها أدب صحيح، بل لا يقوم عليها علم صحيح أيضًا. فلم يكن العلم وسيلة قبل هذه الظروف الأخيرة التي لابست حياة الناس في هذا القرن، وإنما العلم معرفة تغني النفوس وترفع الإنسان عما حوله من الأشياء والأحياء لا غاية له إلا هذا ولا بأس بأن ينشأ عنه ما نشأ من هذه الاختراعات الكثيرة الخصبة التي يسرت حياة الناس وأتاحت للعلم نفسه أن يرقى، فالرقي يدعو إلى الرقي والفوز بالاستزادة من الفوز. إنما العلم والأدب غذاء للعقول والأذواق قبل كل شيء، وإذا أخذت العقول والقلوب والأذواق حاجتها من هذا الغذاء كانت خليقة أن تملأ الدنيا من حولها خيرًا ويسرًا وبهجة وجمالًا.

إنما الشيء الذي أفهمه وأطلبه وألح فيه وأرجو أن يشاركني الشيوخ والشباب في فهمه وطلبه والإلحاح فيه هو ألا يجمد الأديب ولا تخمد جذوته، ولا يكون صدًى للماضي ليس غير، وإنما يمضي مع الدنيا من حوله فيتطور معها ويصورها في حاضر الأمر ومستقبله كما صورها في ماضيه. ولست أخشى من هذا كله شيئًا مع إلحاحي في الدعاء إلى التطور، فأدبنا قد تطور تطورًا خطيرًا في هذا العصر الحديث لا يشك في ذلك إلا المبطلون والذين في قلوبهم مرض. كان أدبنا في هذا العصر ملائمًا عن بعد لما كان يملأ الدنيا حوله من الأحداث، ولما كانت تدفع الدنيا إليه من التطور حين ثار العقاد والمازني وشكري وطه حسين بشوقي وحافظ والمنفلوطي والمويلحي وأمثالهم.

وكان هذا الأدب ملائمًا لما حوله من التطور عن قرب أي قرب، حين ثارت مصر في أعقاب الحرب الأولى، تريد أن تتحرر من الإنجليز. وهو من غير شك سيلائم حياتنا

الجديدة في عهدنا الجديد كما لاءم حياتنا من قبل وكما مهد لهذا العهد الجديد، وخلق له مُثُله العليا، ولكن حياتنا في العهد الجديد لم تكد تتحقق، ولم تكد أعلامها تستبين، فما زال العهد الجديد يريد أن يحقق نفسه ويبين معالمها. قد أنشأ أشياء وهو في سبيل إتمامها، والذي يريد أن ينشئه أكثر من الذي أنشأه بالفعل. وتطور الأدب محققٌ ولكنه يتم في أناة وريث، ويحتاج إلى الوقت ليظهر واضحًا جليًّا.

وما ينبغي أن نظن أن الأدب كالثروة يمكن أن يتغير نظامها بصدور القانون الذي ألغى الملكيات الكبيرة، وأعدَّ لتوزيع الثروة توزيعًا قوامه العدل.

فليس الأدب أرضًا، وليس الأدب مالًا، وليس الأدب مادة، وإنما الأدب روح، والروح يرى وينظر ويلح في الرؤيا والنظر، ثم يسيغ ثم يتمثل ثم ينتج بعد ذلك في مهل ما أساغ وما تمثل. فالذين يتعجلون تطور الأدب يشتطون على أنفسهم وعلى الأدب في وقت واحد، ولو قد كان الأدب يتطور بالقوانين أو يتحقق بمجرد الرغبة فيه لكنت أسرع الناس إلى أن أطلب إلى الثورة إصدار قانون يقضي بهذا التطور وينظمه كما أخذت في تنظيم الاقتصاد وشئون الحكم. ولكن تأثير القوانين في الأدب بطيء لا يظهر إلا حين تتأثر الحياة كلها بهذه القوانين. فليطالب دعاة التجديد بتطور الأدب كما أطالب به، وليوجهوا هذا التجديد توجيهًا صحيحًا مستقيمًا لا إسراف فيه ولا شطط ولا جموح.

ويسألني الأستاذ لويس عوض عن هؤلاء الذين أرادوا هدم الأهرام والمساجد وتحريق الكتب والدواوين لأنها قديمة أنشئت في ظل الملوك والإقطاع. وليسمح لي الأستاذ بأن أعتب عليه عتبًا مرًّا كما عودته دائمًا وكما عودت زميله الأستاذ عبد الحميد يونس وغيرهما من الذين تفضلوا فاستمعوا لي.

فهذا السؤال الذي وجهه إليَّ ليس له موضوع، وإنما أخطأ الأستاذ قراءة ما كتبت أو قرأه قراءة خاطفة كما تعود كثير من الشباب في هذه الأيام أن يخطفوا القراءة والكتابة أيضًا لا يستأنون بهما ولا يتمهلون فيهما، تعجلهم عن ذلك هذه السرعة التي تقتضيها الحياة الحديثة والتي يجب على الأدب أن يقاومها ويخلص منها. فالسرعة لا تنتج أدبًا وإنما تنتج كلامًا، كما أن السرعة لا تنتج علمًا صحيحًا. ولا أعرف عالمًا تعجله الحياة الحديثة عن أن يستأني ببحثه وتجاربه ليستكشف ما يستكشف العلماء من القوانين والظواهر.

لم أقل إذن إن أحدًا أراد هدم الأهرام والمساجد وتحريق الكتب والدواوين، بل قلت في عبارة صريحة واضحة للذين يستأنون بالقراءة ولا يخطفونها: ما أظن هؤلاء السادة يريدون هدم الأهرام والمساجد إلى آخره.

فأنا كما يرى الأستاذ لم أتهمه ولم أتهم زميليه الكريمين ولم أتهم أحدًا غيرهم بمحاولة هذا الإثم العظيم، بل نزَّهت طلاب التجديد عنه تنزيهًا، وأردت أن أبين لهم بعض ما في دعوتهم من الإسراف، فضربت لهم هذه الأمثال التي روَّعتهم والتي ضاقوا بها ضيقًا شديدًا. ويسألني كذلك الأستاذ لويس عوض: من هم الذين يتقربون إلى الثورة ويتملقونها على حساب الأدب وفي غير روية ولا اعتدال؟ وأجيبه في صراحة ووضوح أيضًا بأنهم هم هؤلاء الذين يكتبون إليه في كل يوم، والذين يلقي ما يكتبون إليه في سلة المهملات كما يقول. فلم أُبعد إذن حين خشيت من هذا التقرب السخيف الذي لا يراد به إلا التملق وابتغاء الحظوة.

وكم أتمنى للأستاذ وزملائه من الشباب مع ما أتمناه لهم من الأناة والريث ألا يسرعوا إلى سوء الظن، فإن بعض الظن إثم، وألا يقدروا أن كل ما يقال يمكن أن يتجه إليهم هم دون غيرهم من الناس، فليس هم الناس جميعًا، وفي الأرض قوم غيرهم كثير، يفكرون ويكتبون ويخوضون فيما يعرفون وما لا يعرفون.

ولست أذكر أن بين الأستاذ إسماعيل مظهر وبيني خصومة أو لجاجًا؛ لأني لا أعد الاختلاف في رأي من الآراء الأدبية والثقافية مصدرًا من مصادر الخصومة واللجاج.

لم أُرِد إذن أحدًا من هؤلاء الثلاثة الكرام الذين يكتبون في الجمهورية، بل لم أرد أحدًا بعينه كما قلت، وإنما أردت هذه النزعة الجامحة التي تحتاج إلى أن نردها إلى شيء من القصد والاعتدال.

وأخرى لا أريد أن أدع هذا الحديث دون أن ألمَّ بها إلمامًا سريعًا، وأنا في هذا الإلمام أريد شخصًا بعينه، وهو يعرف نفسه وقد يعرفه كثير من الناس دون أن أحتاج إلى تسميته. وهذا الموضوع الذي أريد أن ألمَّ به هو هذه الشعوبية الحديثة التي أخذت تمعن في هذه الأيام في لون من العنف لا أعرف له موضعًا ولا موضوعًا، فالأدب العربي عند هذا الأستاذ الكريم هباء كله لا يغني عن الناس شيئًا؛ لأن ألف سنة تحول بيننا وبين أعلامه والأفذاذ من رجاله، فصلتنا بهذا الأدب مقطوعة أو كالمقطوعة، والطلاب في المعاهد والجامعات أشد حاجة إلى أن يدرسوا فولتير وروسو وبرنارد شو ومن إليهم من أعلام الأدب الحديث، منهم إلى أن يدرسوا أدبنا العربي ذاك الذي بعُد به العهد وطالت عليه القرون. في هذا الكلام سرفٌ يضر كثيرًا ولا يجدي على قائله ولا على غيره من قارئيه شيئًا، وإنما هو يحفظ ويسوء ويغري بما لا ينبغي أن يُغرَى به الناس في هذه الأيام؛ لأنه ينقل الخصومة من تجديد الأدب إلى الأدب العربي القديم كله أقيِّم هو أم سخيف؟

أندرسه أم لا ندرسه؟ أننتفع بدرسه أم نضيع ما ننفق فيه من الوقت والجهد؟ وهذه الخصومة كما ترى سخفٌ كلها لا تغني عن أحد شيئًا، فلن يضير الأدب العربي ولن يغض منه أن يرضى عنه فلان أو يسخط عليه، وقد عملت أجيال كثيرة من الناس في قرون طويلة من الدهر على أن تغض من هذا الأدب فلم تضيِّع شيئًا. لم يغض منه تسلط الترك ولا غارات التتار ولا الحروب الصليبية، وإنما قاوم هذا كله مقاومة رائعة وانتصر على هذا كله انتصارًا رائعًا، واستأنف من الحياة والقوة والخصب ما يملأ الأرض به جمالًا ونورًا.

ولم يدعُ أحد إلى إهمال الأدب الحديث، ولم تقصِّر جامعة من جامعاتنا المدنية في درسه لطلابنا وهي لم تبلغ الكمال في هذا الدرس، كما أنها لم تبلغ الكمال في درس الأدب العربي؛ لأن الكمال شيء لا يُبلغ وإنما يسعى الناس إليه وينتفعون بسعيهم إليه. وما أعرف أن جامعاتنا قصرت في هذا السعي أو نكلت عنه. ومن السخف كل السخف أن يُحكَم في سهولة ويسر بالعقم على أدب عاشت عليه الإنسانية المتحضرة قرونًا وأتاح لهذا الأدب الحديث ما يمتاز به من قوة وخصب، من روعة وجمال. وإنه لمن المؤلم الممض حقًّا أن نقرأ بمصر في هذه الأيام كهذا الذي نقرؤه بين حين وحين، وأن نقرأ في الوقت نفسه كتبًا تُؤلَّف ومقالات تُنشر في تمجيد هذا الأدب والإشادة به في أوروبا هذه التي يُفتن بها بعضنا فتونًا.

والأستاذ الذي كتب هذا الكلام يعرف حق المعرفة أني لن أُتَّهم بالغض من الأدب الأوروبي الحديث، وقد كنت من أشد الناس ترغيبًا فيه ومشاركة في نشره وتقريبه إلى العقول العربية، فإذا ضقت بهذا الكلام الذي يذيعه في غير روية ولا أناة فلا يدفعني إلى هذا تعصب للقديم أو تعصب على الحديث، وإنما يدفعني إليه إيثار القصد والاعتدال على الإسراف والجموح. وقد قامت حياتنا الحديثة على إحياء الأدب العربي ودرس الآداب الأوروبية الحديثة، وستقوم دائمًا على هذين العنصرين من عناصر الحياة الخصيبة. وعلى هذين العنصرين نفسهما، قامت حياة العرب القدماء أو قل حياة الأمة الإسلامية القديمة على إحياء الأدب العربي، ودرس الثقافات الأجنبية التي عرفتها في تلك العصور. فنحن نسلك نفس الطريق التي سلكها القدماء، نقيم حضارتنا الحديثة على ما أقام القدماء عليه حضارتهم تلك المزدهرة.

ما أشد حاجة الأستاذ إلى القصد في هذه الأقوال التي لا تدل على شيء!

والأستاذ نفسه يسرف ويجمح مرة أخرى حين يزعم أن أدبنا الحديث لم يعرف الثورة ولم يدعُ إليها لأنه قام على الخوف، ولأن الذين أنتجوه كانوا خائفين، وهو لا

يسوء الأدباء؛ لأن أحدًا لا يسمع له ولا يصدقه، بل هو لا يسوء نفسه وإن أراد بإسرافه أن يسوءها، فهو من شيوخ الأدباء الذين دعوا إلى التجديد وشاركوا فيه ومهدوا للثورة فأحسنوا التمهيد.

وخلاصة هذا كله أن حياتنا الأدبية الحديثة إذا احتاجت إلى شيء في هذه الأيام فإنما تحتاج أول ما تحتاج إلى الاعتدال في الحكم وحسن التقدير للأمور والتأني والاستبصار قبل الإقدام على الكتابة والإذاعة، ذلك أجدر أن يتيح لأدبنا الحديث من النهوض والرقي والخصب وتصوير الحياة والتعبير عنها بعض ما يطمع فيه ويطمح إليه.

صورة الأدب

أما اليوم فإني أريد أن أثير خلافًا جديدًا بين الأدباء، بعد ذلك الخلاف القديم الذي لم ينقضِ بعد، وما أرى أنه سينقضي اليوم أو غدًا، بل ما أرى أنه سينقضي قبل أن ترضى حاجات الناس من حياتهم إن أتيح لحاجات الناس أن ترضى في يوم من الأيام.

فقد تعلمنا فيما تعلمنا أن الجنة التي وعد الله عباده المتقين هي التي سترضى فيها حاجات الناس إلى أقصى ما يمكن أن يبلغ الرضى؛ لأن فيها كل ما يمكن أن يُشتهَى وكل ما يمكن أن يلذ وما لا يخطر على قلوب الناس.

وقد صور أبو العلاء في رسالة الغفران طرفًا من هذا الرضى الذي سيتاح لأهل الجنة من المتقين فأحسن التصوير وجوَّد فيه، سواء أكان قد قصد به إلى الجد أم قصد به إلى الدعابة والفكاهة. والمهم هو أن حاجات الناس في هذه الدنيا لن تنقضي؛ لأن حاجة من عاش لا تنقضي كما قال الشاعر القديم.

وإذن فسيكون بين الناس دائمًا قوم يريدون الأدب على أن يكون وسيلة إلى إرضاء الحاجات وطريقًا في بلوغ المآرب، وسيكون بينهم قوم آخرون يرتفعون بهذه الحاجات عن الأغراض والأعراض التي يبتغي الناس في حياتهم اليومية المادية، إلى أغراض أخرى تبتغيها القلوب والعقول والأذواق. ولن يكره هؤلاء للأدب أن يصوِّر بؤس البائس، وجوع الجائع، وحرمان المحروم بشرط ألا يُفرض ذلك عليه فرضًا ولا يأخذه بذلك قانون أو مرسوم أو مذهب سياسي محتوم.

سيختلف الناس إذن دائمًا في معنى الحياة التي ينبغي أن يكون الأدب وسيلة إليها أهي حياة الجسم، أم حياة الروح، أم حياة الجسم والروح معًا؟

وكم أحب للأستاذ مظهر وله خاصة أن يتفكر في هذا في أناة وروية، وأن يخلو به إلى نفسه ساعة من نهار أو ساعة من ليل، فقد يتغير رأيه شيئًا وقد يحتاج إلى أن

يحتاط ويستأني، فما أعرف أنه من الذين يريدون أن ينزلوا بالأدب إلى حيث يكون وسيلة إلى إرضاء الحاجات المادية للناس في حياتهم هذه التي يحيونها، وإني لأقرأ له بين حين وحين أحاديث تروقني وترضيني، وهي مع ذلك لا تطعم جائعًا، ولا تسقي صاديًا، ولا تكسو عاريًا، ولكنها تسلي البائس عن بؤسه والمحروم عن حرمانه إن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؛ لأنها تمس مسائل تعني الروح وحده ولا تعني الجسم من قريب أو بعيد، تسمو إلى ما بعد الطبيعة وتنأى عن الطبيعة نفسها نأيًا شديدًا.

ليفكر الأستاذ في هذا كله، فقد يأخذ أمر الأدب على طبيعته كما ينبغي أن يؤخذ، وقد يراه فنًّا يلتمس الجمال حيثما وجد إليه سبيلًا، يأخذه من بؤس البائس وسعادة السعيد، ويأخذه من المادة المظلمة ومن الروح المشرق، ويأخذه من الأرض إن وجده في الأرض ومن السماء إن وجده في السماء، ويخترعه اختراعًا من أعماق نفسه إن لم يجده هنا أو هناك.

لنختلف إذن في الأدب أوسيلة هو أم غاية؟ وإذا كان وسيلة فإلى أي شيء نتوسل به؟ ولكني أريد أن أثير اختلافًا آخر، فما أحب للأدباء أن يطمئنوا ولا أن تستقر نفوسهم في الوسائل والغايات، وإنما أحب لهم أن يختصموا وأن يختصموا دائمًا؛ لأني أجد في خصومتهم رضًى ومتاعًا، وعسى أن يكون في خصومتهم للناس مثل ما أجد فيها من الرضى والمتاع. فما عسى أن تكون صورة هذا الأدب الذي يريده بعضنا على أن يكون وسيلة طيعة، ويريده بعضنا الآخر أن يكون غاية سامية نبيلة؟ أتكون هذه الصورة شيئًا نأخذه كما نجده ونقول فيه مثل ما قال ذلك التاجر العامي للجاحظ في بعض عروض التجارة: كما تجيء يكون.

أو نأخذه كما يقول العامة في هذه الأيام حيثما اتفق. أم تكون شيئًا آخر نستأني به ونتلطف له ولا نخرجه للناس إلا شائقًا رائقًا حسن الموقع في الأذن والقلب والعقل والذوق جميعًا؟

هذه هي القضية التي أريد أن أعرف فيها رأي الشباب من أدبائنا؛ لأني أعرف فيها رأي الشيوخ.

أيريد شبابنا أن يأخذوا الأدب كما يجيء، وأن يقولوا لنا كما يقول بعضهم لبعض وكما كان يقول ذلك التاجر القديم: كما يجيء يكون؟ أم يريدون أن يكون الأدب جميلًا في مادته وصورته جميعًا؟ والجمال لا يأتي عفوًا إلا في القليل النادر، وهو يحتاج أكثر الأحيان إلى فنون من الجهد وصنوف من العناء وإلى كثير من الوقت وكثير من المحاولة

والمزاولة والمطاولة. وما أحب أن يظن الشباب من الأدباء أني أثيرهم رغبة في إثارتهم، أو تلهِّيًا بما يكون من أمرهم حين يثورون؛ فإني أجد في ذلك شيئًا من الرضى والمتاع من غير شك، ولكن الرضى والمتاع وحدهما ليسا هما اللذين يدفعانني إلى إثارة هذه القضية، وإنما يدفعني إليها ما أراه من ميل الشباب إلى التهاون في التعبير كما يتهاونون في التفكير أحيانًا. تخطر لكثير منهم القضية فيُسرع إلى تسجيلها ثم يُسرع إلى إخراجها للناس، لا يحقق معناها ولا يستأني به حتى يتم نضجه، ولا يتأنق في صورتها ولا يجدُّ في تسويتها حتى تخرج نقية رضية تستهوي النفوس ويحسن موقعها في القلوب.

وأنا أعلم أننا نعيش في عصر السرعة وأن وقتنا يعدل الأضعاف المضاعفة من وقت القدماء، فيومنا يعدل شهورًا من شهورهم، وشهرنا يعدل أعوامًا من أعوامهم، وعامنا يعدل من أعوامهم عشرات.

أعلم هذا وأعلم أن حاجاتنا كثيرة، وأنها عاجلة، وأنها تزدحم وتختصم، وتتدافع ويصدم بعضها بعضًا، ويناقض بعضها بعضًا، في كثير من الأحيان، وهي بذلك تستغرق من وقتنا أكثره ومن جهدنا أعظمه، وتوشك ألا تترك لنا شيئًا من الوقت لنستأني بالتفكير أو سمِّه شيئًا من الجهد لنتأنق في التعبير. وأعلم بعد هذا كله أن كثيرًا منا يكتبون أدبهم لينشر في الصحف، وللصحف ضروراتها التي تقتضيها السرعة والدقة والنظام. فالكاتب رهن بكل هذه الضرورات، ولكني مع ذلك، بل على رغم ذلك، أريد للأدب أن يكون عصيًّا أبيًّا لا يُكتب ليُنشر في الصحف، بل يُنشر في الصحف لأنه كُتب. وأنا أريد أكثر من هذا، أريد ألا يكتب الأدب لينشر في الكتب، وإنما ينشر في الكتب لأنه قد أنتج وأصبح نشره يسيرًا.

ومعنى هذا كله أني أريد للأدب أن يكون قبل كل شيء وعلى رغم كل شيء مقاومة بأدق ما لهذه الكلمة من معنى، مقاومة للنفس التي قد تكره الجهد وتضيق بالعناء وتنوء بالمشقات. ولا بد للأديب من أن يروضها، ويسوسها حتى تألف الجهد والعناء والمشقة وترى أنها أيسر ما يجب لإنتاج الأدب الرفيع الذي يستحق وحده أن يسمى أدبًا، ومقاومة للحاجات الكثيرة العاجلة المزدحمة. فما ينبغي أن يكتب الأدب ليتيح إرضاء حاجاته مهما تكن هذه الحاجات، بل ينبغي أن يكتب لأنه ألح على الأديب واشتد في الإلحاح حتى شغله عن حاجاته وألهاه عن منافعه، وأنساه أنه في حاجة إلى الطعام والشراب وغير الطعام والشراب من حاجاته الملحة. ومقاومة بعد هذا كله لمرض السرعة الذي تفرضه حياتنا الجديدة؛ فليس الأديب محتاجًا إلى أن يسرع في الإنتاج لأن الدنيا

من حوله تجري حتى توشك أن تنقطع أنفاسها، وإنما الأديب محتاج إلى أن يستأني ويستأني، وإلى أن يجدَّ ويكدَّ ويحتمل صنوف العناء؛ ليخرج أدبه كما ينبغي أن يكون، لا ليجيء أدبه كما يمكن أن يكون. ومقاومة بعد هذا وذاك لضرورات الصحف والمطابع، فلا على الأديب أن تفوته صحيفته إذا لم يتح له أن يمدها بما تنتظر منه، ولا على الأديب أن يغضب أصحاب المطبعة إن أبطأ به الإنتاج عما ضربوا له من موعد. ذلك كله خير له من أن يتعجل فيرضي الصحيفة والمطبعة ويسخط الفن ويفسد أدبه وقد يفسد معه ذوق كثير من القراء.

وهنا تنكر الصحف وتثور، فهي لا تستطيع أن تنتظر الأدب حتى يتم نضجه ويصبح نشره شيئًا لا حرج فيه. فمن أراد أن يكتب لها على شرطها فليفعل، ومن أبى ألا يكتب على شرط الأدب فليلتمس لنفسه مذهبًا آخر من مذاهب النشر، وطريقًا أخرى من طرق الكسب. وهذه مشكلة عرضت للأدب منذ كانت الصحف. وكلت نفسها بنفسها فنشأ لها فن بين ذلك ليس هو بالكلام السوقة الذي لا قيمة له، ولا بالأدب الرفيع الذي يكلف صاحبه الكدَّ والجدَّ والعناء، وإنما هو فن وسط يحتل منزلة بين المنزلتين، في أكثره من الأدب روح وفيه مع ذلك من اليسر والسهولة واللين والمؤاتاة ما يلائم السرعة والانتظام.

والخطر كل الخطر الذي يتورط فيه كثير من الناس وقد تورط فيه جيلنا هذا الذي نعيش فيه إلا قومًا يُحصَون؛ هو أن نكتفي بهذا الفن الوسط فنراه الأدب كل الأدب، ونقنع به لنرضي حاجة نفوسنا إلى الجمال الرفيع، وحاجة قلوبنا وأذواقنا إلى الغذاء الممتاز.

شتان ما بين أدب يكلف صاحبه جد النهار وأرق الليل قبل أن يظفر منه بما يبتغي وبما يرضي ذوقه أن يقدمه إلى الناس، وكلام آخر يُكتب لأن الحاجة والصحيفة والمطبعة اقتضت أن يُكتب ويُقدَّم ويُنشر في أوقات معينة وفي موضوعات لعلها لم تكن تخطر للكاتب على بال، ولعل كثيرًا منها أن يكون قد فجأ الكاتب على غير توقع له، ولعل بعضها أن تُفرَض الكتابة فيه على الكاتب فرضًا. ولست أدري أي كُتَّابنا القدماء ذاك الذي أعجب الناس ببراعته ومهارته وأراد بعض الأمراء أن يختبر طبعه وقدرته على الاستجابة لدعوة الفن، فطلب إليه أن يكتب لساعته بعض ما تعود من فصوله الجميلة الرائعة، فأقبل على دواته وقرطاسه وانتظر وأطال الانتظار وجدَّ وكلف نفسه من الجد ما لم تتعود، ولكنه لم يصنع شيئًا وسخر الناس منه ولم يكن من حقهم أن يسخروا.

فالأدب لا يستجيب لكل دعوة ولا يطيع كل أمر، وهو لا يجيب الأديب نفسه كلما دعاه، وإنما الأديب هو الذي ينبغي أن يكون على أهبة لإجابة الأدب حين يدعوه. ولأمر ما قال ذلك المعلم القديم من شيوخ المعتزلة لبعض الطلاب: خذ من وقتك ساعة نشاطك وفراغ بالك. وساعة النشاط وفراغ البال هذه لا تأتي حين تريدها الصحيفة أو المطبعة ولا حين يريدها الأديب نفسه، وإنما تأتي حين تريد هي أن تأتي. والأدب بعد ذلك يستطيع أن يؤاتي الأديب في هذه الساعة كما يستطيع أن يُعرِض عنه إعراضًا.

وبين الأدب والأديب فنون من الخصام والعناد يعرفها الأدباء المطبوعون، فما أكثر ما يشعر الأديب بالحاجة إلى الكتابة وبالميل إليها والرغبة الشديدة فيها، فيتهيأ لها ويدعوها بما ألف من وسائل الدعاء، ولكنها لا تحفل به ولا تستجيب له، فيشغل نفسه بما شاء الله من ألوان العمل. وما أكثر ما يكون الأديب ماضيًا فيما يمضي الناس فيه من أمور الحياة، لا يفكر في نثر ولا في شعر، ولا في شيء يشبه الشعر أو النثر من قريب أو بعيد، ولكن داعي الكتابة يدعوه ويلح عليه ثم يملك عليه نفسه، وإذا هو ينصرف عما كان ماضيًا فيه إلى الكتابة والإنشاء. وربما كان من أخص خصائص الأدب أنه هكذا عصيٌّ أبيٌّ متمنعٌ متشددٌ في التمنع حين يُراد على نفسه، ثم هو بعد ذلك رضيٌّ سمحٌ طيعٌ حين لا يدعوه داعٍ ولا يفكر فيه مفكر.

والأدباء يعرفون هذا كما يعرفون أنفسهم، ولهم في سياسة الأدب ورياضته وتذليله وتدليله فنون ومذاهب يمكن أن يطول فيها القول الذي لا يخلو من طرافة ولا يتعرض لسآمة أو إملال.

وإذن فكيف ينبغي أن يكون هذا الأدب العصيُّ الأبيُّ حين يخرج للناس ليهدي إليهم الراحة والروح، ويرفعهم إلى حيث يستمتعون بالجمال الصفو الذي تأنس إليه وتنعم به كرام النفوس؟

يجب أن يكون جميلًا ما في ذلك شك. وما رأيك في شيء تقرؤه فيشعرك بالجمال الذي لا يلبث أن يملأ نفسك وقلبك، وأن يأخذ عليك حياتك من جميع أقطارها مع أنه قد يريد إلى أن يصور لك القبح القبيح؟ واقرأ شعر بودلير فسترى من ذلك الأعاجيب. وقد ذكرت بودلير وفي ذهني آخرون من معاصريه أو الذين جاءوا بعده من الفرنسيين والإنجليز. ذكرت هؤلاء متعمدًا ولم أرد أن أذكر القدماء من شعرائنا، فقد ينبو كثير من شبابنا عن هؤلاء القدماء لأسباب منها ما يقال ومنها ما لا يقال. يجب إذن أن يكون الأدب جميلًا، ولكن أين يكون جماله؟ أيكون في معانيه أم يكون في ألفاظه، أم يكون في نظامه وأسلوبه، أم يكون في هذا كله أجمع؟

في هذا يختلف النقاد اختلافًا شديدًا منذ أقدم العصور التي فكر فيها الناس في الأدب وتحدثوا عنه، فقد كره كثير من قدمائنا شعر أبي تمام لأنه احتفل لمعانيه وأكره الألفاظ على أن تذعن لهذه المعاني، وذهب في جمال الألفاظ والمعاني مذهبًا لم يألفه الشعراء الأقدمون، فقالوا إنه أسرف في الاستعارة والمجاز ودفع إلى كثير من الإغراب وأتى الناس بما لم يألفوا، وانحرف عن السنة الموروثة وعنُف باللغة حتى كلفها شططًا.

وقوم آخرون أحبوا أبا تمام لهذه الخصال نفسها. رأوا أنه قد مال بهم عن الطرق المطروقة والمذاهب المألوفة، وأطرفهم بأشياء جديدة شغلتهم عما كان القدماء يبدءُون فيه ويعيدون. ولم يتجه إلى آذانهم وحدها ولا إلى قلوبهم وأذواقهم وحدها، وإنما اتجه إليها وإلى العقول فاضطرها إلى أن تُعنَى بالشعر وأن تقف عنده فتطيل الوقوف، وأن تستخرج مكنونه وتنعم بنتيجة ما تكلفت من جهد وما احتملت من عناء، وتشعر كلما فهمت بيتًا أو ذاقت قصيدة أنها قد استخرجت كنزًا من أعماق الأرض أو لؤلؤًا من أغوار البحر، ولم تصل إلى استخراجه إلا بعد المشقة الشاقة والعسر العسير. وقوم ضاقوا بمسلم بن الوليد لأنه احتفل بالألفاظ أكثر من احتفاله بالمعاني، وجعل يتكلف بينها نعوتًا من الموسيقى التي تأتي من المطابقة والجناس وما إليهما من هذه المحسنات المختلفة التي تزين اللفظ في الأذن وتخضع المعنى لهذه الزينة، فتجعله تابعًا ومن حقه أن يكون متبوعًا. وآخرون كَلِفوا بمسلم لهذه الصفات نفسها؛ فهم قد ألفوا الاستمتاع بالموسيقى وأحبوا أن يجدوا هذه الموسيقى في كل ما يرون ويسمعون.

وليس المحدثون من الأوروبيين أقل اختلافًا في ذلك من القدماء، فمنهم من يؤثر جمال اللفظ والمعنى على أن يكون هذا الجمال قريبًا داني القطوف، لا تجد العقول والأذواق والقلوب جهدًا ولا مشقة في فهمه وذوقه والاستمتاع به. ومنهم من ينأون عن هذا كله وينهون عنه ويضيقون بالحياة كما يحياها الناس، وبكل هذه الأشياء التي ألفها الناس مصبحين وممسين، ويلتمسون الجمال الأدبي في حياة يبتكرونها هم ويخترعونها اختراعًا وهم يأتون في ذلك بالأعاجيب التي أقرؤها أنا ويقرؤها كثير غيري فلا نفهم منها شيئًا، ولا نذوق منها شيئًا، وربما دفعتنا إلى الإغراق في الضحك المتصل.

والذين درسوا الآداب الأجنبية يعرفون من هذا الاختلاف شيئًا كثيرًا، ولعل منهم من حاول أن يصنع في أدبنا العربي مثلما صنع بعض المحدثين من الأوروبيين في آدابهم.

وقد حدَّثت في أعقاب الحرب الأخيرة بأن فتى رومانيًّا أقبل ذات يوم إلى باريس وله مذهب في الفن الأدبي طريف أراد أن يُقنِع به شيوخ الأدب فلم يجد عندهم شيئًا، وحاول

أن يفتن به الشباب فاستجاب له بعضهم وقتًا قصيرًا ثم انصرفوا عنه ولم يعودوا إليه. ولست أدري إلامَ صار أمر هذا الفتى، وأكبر الظن أنه عاد إلى حظيرة الأدباء المألوفة أو التمس وجهًا آخر من وجوه الحياة. وكان مذهبه يسيرًا جدًّا ولكنه سخيف جدًّا، فهو قد ضاق بالحياة التي يحياها الناس وضاق بالأدب الذي يألفونه وباللغات التي يتكلمونها، وأراد أن يحدث الموسيقى الأدبية بالملاءمة لا بين الألفاظ التي تأتلف منها اللغات، بل بين الحروف التي تتكون منها الألفاظ. وتستطيع أنت أن تتصور هذا النوع من الهوس وأن تقطع بأنه قد انتهى إلى ما لم يكن بد من أن ينتهي إليه.

الأدباء إذن يختلفون منذ أقدم العصور في جمال الأدب أين يكون؛ أيكون في ألفاظه أم يكون في معانيه؟ أم يكون في الألفاظ والمعاني جميعًا؟ وقد رأيت بعض الشعراء المعاصرين من الفرنسيين من كان يقول ويكتب في غير كتاب من كتبه أن بين الشعر والنثر فرقًا خطيرًا، فالنثر يُقتل بمجرد أن يُفهم، فأنت لا تكاد تقرأ نثرًا في كتاب أو مقالة وتفهمه إلا قتلته واستللت روحه واستأثرت بها، وأصبح الكتاب أو المقالة شيئًا هامدًا لا حياة فيه بالقياس إليك، فهو كدَنِّ أبي نواس حيث يقول:

ما زلتُ أستلُّ روحَ الدنِّ في لطف   وأستقي دمه من جوف مجروح
حتى انثنيت ولي روحان في جسدي   والدنُّ منطرحٌ جسمًا بلا روح

ذلك شأن النثر. فأما الشعر فله شأن آخر؛ لأن جماله لا يأتي من فهم معانيه فلا سبيل إلى قتله ولا إلى استلال روحه، وإنما يأتي جماله من ألفاظه وصوره وهذه الأخيلة التي تثيرها ألفاظه وصوره في نفسك، والتي لا سبيل إلى أن تُستل منه أو تُفصل عنه، كما أنه لا سبيل إلى أن تُجرِّد الشعر من ألفاظه أو تنتزع منه صورته انتزاعًا.

فالشعر باقٍ؛ لأنه أقوى وأشد امتناعًا من أن يفهم، ومن أجل ذلك فهو أقوى وأشد امتناعًا من أن يدركه الفناء.

كذلك كان يقول بول فاليري، وكذلك كان يكتب في كثير من كتبه ورسائله.

وأظن هذا كله يكفي لبيان ما أردت إلى تبيينه من اختلاف الأدباء في جميع العصور حول الجمال الأدبي؛ أين يكون؟ ومن أين يأتي؟ ولكنهم متفقون دائمًا على أن الأدب لا يكون إلا جميلًا؛ لأن طبيعته تقتضي ذلك، وهو لم يوجد إلا للسمو بالنفس إلى حيث تشهد المشاهد الرفيعة من الجمال، شأنه في ذلك شأن غيره من الفنون الجميلة، فأنت لا تدري من أين يأتي جمال الصورة التي تعجبك وتروقك؛ أيأتي من اللون، أم يأتي من

شيء آخر وراء اللون؟ وما عسى أن يكون هذا الشيء؟ وأنت تعلم حق العلم أنك قد ترى شخصًا من الأشخاص فلا يروقك ولا يشوقك ولا يقع من نفسك موقعًا ذا بال، ولكنك ترى لهذا الشخص نفسه صورة قد أتقن المصور تصويرها فتقف عندها وتطيل الوقوف ولا تكره أن تعود إليها لتراها حينًا بعد حين.

وأنت تدري ما مصدر الجمال الذي يروقك ويبهرك حين ترى تمثالًا رائعًا، أهو مادة التمثال؟ هيهات، إنك ترى هذه المادة على أصلها فلا تثير في نفسك شيئًا، أهو موضوع التمثال؟ هيهات، إن أمر موضوع التمثال كأمر موضوع الصورة، فما أكثر ما يصور المصورون ويمثل المثَّالون معاني لا تُرى وقيمًا تحسها النفوس والعقول. وأنت حين تسمع لحنًا رائعًا فيسحرك ويخطف نفسك فيسمو بها إلى حيث لم تكن تقدر أن تبلغ، لا تستطيع أن تحدد هذا الجمال ولا أن تعرف معرفة دقيقة من أين يأتي.

فخذ الأدب إذن كما تأخذ الموسيقى والنحت والرسم والتصوير. خذه على أنه متعة لروحك وغذاء لقلبك وعقلك، وليكن جمال الأدب حيث يمكن أن يكون، ليكن في الألفاظ أو في المعاني أو في النظم والأسلوب أو في هذا كله. والأدب آخر الأمر فن من الموسيقى يأتلف من هذه الأشياء كلها، من الألفاظ والمعاني والأساليب وما يعرض من صور وما يثير من عواطف وما يبعث من شعور. فليكن جماله شيئًا شائعًا لا يستطيع أحد أن يقول إنه ينحصر في اللفظ أو في المعنى أو في الأسلوب.

وإنما الشيء الذي ليس فيه شك هو أن الكلام لا يكون أدبًا حتى يوجد فيه هذا الجمال الذي تجده فيما تنتجه الفنون الجميلة الأخرى. وليكن موضوع الأدب بعد ذلك ما يكون؛ ليكن في الأرض أو في الجو أو في نفس الإنسان، وأعماق الضمير. ليكن موضوعه جميلًا أو قبيحًا، محببًا أو بغيضًا، فليس يعنيني من الأدب إلا أن يُحدِث في نفسي ما يحدثه الأثر الفني من هذا الشعور الرفيع بالجمال. فأين نحن من هذا كله حين نستحضر الأدب وحين نفكر فيه أو نتحدث عنه؟ أترانا نستحضر كل هذه المعاني، أم ترانا لا نستحضر إلا حاجاتنا ومآربنا والوسائل التي تبلغنا هذه الحاجات وهذه المآرب؟ وكذلك نعود إلى حيث ابتدأنا، مع أني لم أفكر قط في أن أعود إلى حيث ابتدأت، ولا في أن أتحدث عن الأدب، أوسيلة هو أم غاية؟ وإنما أردت أن أتحدث عن صورة الأدب. وقد استبان لك كما استبان لي أن من أعسر العسر أن تفصل بين صورة الأدب ومادته؛ فالأدب يوشك ألا يخضع لهذا النوع من التحليل الذي يعمد إليه العلماء وأصحاب الكيمياء منهم خاصة، فإذا عمد النقاد إلى تحليله فهم يقاربون ولا يحققون.

وآية ذلك أنهم لا يتفقون ولا سبيل إلى أن يتفقوا على حقائق مقررة للنقد كتلك الحقائق المقررة في الطبيعة والكيمياء وغيرها من العلوم. ومن هذه الحقائق المقاربة التي يتحدث فيها النقاد فيكثرون فيها الحديث أن اللغة هي صورة الأدب وأن المعاني هي مادته، وهذا كلام مقارب لا تحقيق فيه. فكثير من النقاد القدماء خاصة تصوروا أن المعاني تشبه الأجسام، وأن الألفاظ تشبه الثياب، وأن المعنى الجميل كالجسم الجميل يجب أن يُختار له الزي الرائق الذي يظهر فيه. وهذا كلام إذا حاولنا تحقيقه لم نجد وراءه شيئًا، فنحن نعرف الأجسام قبل أن تلبس الثياب، ونعرف الثياب قبل أن تسبغ على الأجسام، ونستطيع أن نحقق الفصل بينها. ولكننا لا نعرف المعاني المجردة التي لم تتخذ ثيابها من الألفاظ، ولا نعرف الألفاظ الفارغة التي تنتظر المعاني لتلبسها، وإنما نعرف الألفاظ والمعاني ممتزجة متحدة لا تستطيع أن تنفصل ولا أن تفترق، وما أعلم أننا نستطيع أن نتبادل المعاني مجردة دون ما يدل عليها من لفظ أو صورة أو رمز، وما أعلم أننا نستطيع أن نتبادل الألفاظ الجوف التي لا تدل على شيء؛ فليس ذلك من شأن العقلاء وإنما هو شيء قد يعرض للمحمومين والمجانين.

وإذن فصورة الأدب ومادته شيئان لا يفترقان أو هما شيء واحد إذا شئت، وأضف إليهما عنصرًا ثالثًا إن صح أن يُستعمل العدد في مثل هذا الموضع. وهذا العنصر يلزمهما لزومًا لا فكاك منه وهو عنصر الجمال، فالناس يتحدثون بالألفاظ التي تدل على المعاني، وهم يتبادلون ما يدور في رءوسهم من الخواطر، ويحققون بهذه الألفاظ ذوات المعاني ما يحتاجون إليه من الأغراض والآداب، ولكنهم في أحاديثهم وفي قضاء أغراضهم وآرابهم لا ينشئون أدبًا، إلا أن يتعمدوا ذلك ويستأنوا به ويقصدوا إليه حين يكتب أحدهم إلى صاحبه رسالة يضع فيها خلاصة نفسه، في هذه الصورة الجميلة الرائعة التي نسميها أدبًا. وحين يكتب أحدهم لخاصة الناس أو عامتهم رسالة يتهيأ لها ويتأنق فيها ويريد أن تبلغ قلوبهم وأن تثير فيها ما يريد أن يثير من العواطف والشعور.

وقل مثل ذلك في التحدث إلى الأفراد والجماعات وفي الأسفار التي تكتب ويراد ببعضها إلى الفن الرفيع وببعضها الآخر إلى أداء ما يمكن أن يحتاج الناس إلى أدائه من المعاني، حيثما وجد الجمال في الكلام كان الأدب، وحيثما خلا الكلام من هذا الجمال كان ما شئت أن يكون!

كذلك فكر الأدباء منذ أقدم العصور. وما أرى إلا أنهم سيفكرون على هذا النحو ما أتيحت لهم الحضارة، وما أرى أننا نستطيع أن نتصور أمة بادية أو حاضرة تعيش

وتتخذ الكلام لغة دون أن يكون لها من هذا الكلام أدب على هذا النحو، ودون أن يكون لها من هذا الكلام صور تحمل الجمال إلى القلوب والأذواق والعقول.

وما أدري أيفهم أدباء الشباب هنا الأدب على هذا النحو، أم لهم فيه مذهب آخر؟ فإن تكن الأولى فعند الصباح يحمد القوم السرى كما يقول المثل القديم، وإن تكن الثانية فما أشد حاجتي إلى أن أقرأ وأفهم عنهم، وما أشك في أني سأنتفع وسأستمتع بما يكتبون.

يوناني فلا يُقرأ

زعموا أن ناقدًا قديمًا سمع شاعرنا العظيم أبا تمام ينشد قصيدته المشهورة:

أَهُنَّ عَوادي يُوسفٍ وصَوَاحِبُه   فعزمًا فقدمًا أدركَ السُّؤل طالبُه

فقال له: لمَ لا تقول ما يُفهم؟ فأجابه أبو تمام: ولم لا تفهم ما يقال؟

ذكرت هذه القصة حين قرأت ما وجَّه إليَّ الأديبان الكريمان عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم منذ حين في صحيفة المصري الغراء حول ما كتبت عن صورة الأدب ومادته. وذلك أني قرأت المقال فلم أفهمه فسألت نفسي: ما بال هذين الأديبين لا يكتبان ما يُفهم؟ ثم قلت لنفسي قبل أن يقولا لي: ولمَ لا أفهم أنا ما يكتبان؟ وأعدت قراءة المقال في أناة وعناية وتنبُّه، ولكني لم أفهم في القراءة الثانية أكثر مما فهمت في القراءة الأولى، فقلت لنفسي كما قلت لها إثر القراءة الأولى، ثم أجبت بما أجبت به إثر تلك القراءة أيضًا.

وقرأت المقال للمرة الثالثة فلم أزدد فهمًا، وإنما وقفت بعد هذه القراءة أسأل نفسي: لمَ لا يكتب الأديبان الكريمان ما يُفهم؟ ثم أجبت نفسي هذه المرة بأن فهمي هو الذي فل حده، وأدركه الفتور والقصور فعجز عن أن ينفذ إلى دقائق الأدب وروائع ما ينشر للناس.

فالأديبان من غير شك عليمان ماذا يريدان أن يقولا، ولولا أن علمهما بذلك واضح عندهما كل الوضوح، مشرقٌ في نفوسهما كل الإشراق لما دفعاه إلى صحيفة المصري لتنشره، ولولا أن الصحيفة فهمته أوضح الفهم، وذاقته أحسن الذوق وأدقه لما نشرته ولما شغلت به الناس.

ثم رأيت الأستاذ العقاد يناقش الأديبين في بعض ما كتبا في شيء من القسوة القاسية والعنف العنيف، فلم أشك في أن فهمي قد أدركه القصور والفتور حقًّا، فلولا أن الأستاذ العقاد قد فهم عن هذين الأديبين لما ناقشهما في قسوة أو في لين، ولكني قرأت كلام الأستاذ فرأيته يناقشهما بنوع خاص فيما أضافا إليه من أنه ما زال يذهب مذهب القدماء، ويقرأ القصيدة فيعجب منها بالبيت، ويرى أن هذا البيت الذي أعجبه يعدل المألوف من أمثاله، والأستاذ يرد الأديبين إلى الحق ويبين لهما أنه قد خرج على هذا المذهب القديم قبل أن يولدا في أكبر الظن؛ أي منذ أربعين عامًا. وإذن فقد فهم الأستاذ العقاد ما قيل عنه في ذلك المقال ولم ينبئنا بأنه فهم أو لم يفهم ما قيل عن الأدب في نفسه. وأكبر الظن أنه لم يفهمه كما لم أفهمه، وكما لم يفهمه كثير غيره وغيري من الأدباء الذين يحسنون القراءة والفهم فيما علمت بعد شيء من السؤال والاستقصاء عند شباب الأدباء وشيوخهم. وإذن فأنا أُكبر الأديبين الكريمين من أن يكتبا ما لا يفهم، وأرى أن قصورنا عن فهم ما أرادا إليه إنما يأتي من أن مدرستهما الحديثة تخالف عما ألفنا من مناهج البحث ومذاهب القول وأساليب التعبير عن ذات النفوس، وما أريد أن أتجنى عليهما ولا أن أقول فيهما غير الحق، فاقرأ معي بعض ما يقولان:

> ولكن صورة الأدب كما نراها ليست هي الأسلوب الجامد وليست هي اللغة، بل هي عملية داخلية في قلب العمل الأدبي لتشكيل مادته وإبراز مقوماته. ونحن لا نصف الصورة بأنها عملية، مشيرين بذلك إلى الجهد الذي يبذله الأديب في تصوير المادة وتشكيلها، بل لما تتصف به الصورة نفسها في داخل العمل الأدبي نفسه، فهي حركة متصلة في قلب العمل الأدبي، نتبصر بها في دوائره ومحاوره ومنعطفاته، وننتقل بها داخل العمل الأدبي من مستوى تعبيري إلى مستوى تعبيري آخر حتى يتكامل لدينا البناء الأدبي كائنًا عضويًّا حيًّا. وبهذا الفهم الوظيفي للصورة تتكشف أمامنا ما بينها وبين المادة من تداخل وتفاعل ضروريَّين، فمادة العمل الأدبي ليست بدورها معاني — كما يقول عميد الأدب والمدرسة القديمة — بل هي أحداث تقع وتتحقق داخل العمل الأدبي نفسه، ويشارك التذوق الأدبي في وقوعها وتحقُّقها …

أعربيٌّ هذا الكلام أم سرياني؟! أيمكن أن يقرأه الرجل المثقف ذو الثقافة العميقة الرفيعة، أو ذو الثقافة المتوسطة القريبة، فيخرج منه بطائل ويحصِّل منه شيئًا يمكن

الاكتفاء به والوقوف عنده للتأمل والمناقشة؟ وما عسى أن يكون هذا العمل الأدبيُّ؟ وما عسى أن يكون قلبه؟ وما عسى أن تكون هذه العمليات الداخلية التي تقع في قلب العمل الأدبي؟ وما عسى أن يكون اشتباك هذه العمليات وإفضاء بعضها إلى بعض ليكمل بها العمل الأدبي ويستقيم كائنًا عضويًّا حيًّا؟ لقد كان المثقفون في القرون الوسطى الأوروبية يجهلون اليونانية، فإذا عثروا على ما هو مكتوب بالحروف اليونانية تركوه وقال بعضهم لبعض: يوناني فلا يُقرأ.

ثم أصبحت هذه الجملة كناية يعبر بها عما يصعُب فهمه ويستعصي تحصيله وتحقيقه كهذا الكلام الذي نقلت لك طرفًا منه.

والمؤلم حقًّا أن الأديبين وأمثالهما يظنون أنهم يقولون كلامًا يُفهم، ويتحدث بعضهم إلى بعض بهذا الكلام ويظنون أن بعضهم يفهم عن بعض، ثم يتحدثون إلى الناس مثل ما يتحدثون به إذا خلوا إلى أنفسهم، فإذا لم يفهم الناس عنهم رموهم بالجمود وقالوا إنهم من المدرسة القديمة. وما عسى أن تكون المدرسة القديمة التي تكتب فيقرأ الناس ويفهمون عنها، في غير مشقة ولا عناء، ويستبقون إلى قراءة ما تكتب وإلى تذوقه، ويرضون منه عما يرضون ويسخطون منه على ما يسخطون؟ ولكنهم يرضون عن فهم ويسخطون عن فهم، وقد يُعيدون القراءة استزادةً من المتاع واستظهارًا لما يحبون أن يستظهروا منه لا طلبًا للفهم، وجدًّا في سبيل التحصيل والتحقيق، وعجزًا آخر الأمر عن الفهم والتحصيل والتحقيق جميعًا.

وكيف يريد الأديبان وأمثالهما أن أعرف أو أنكر ما يقولون، فأنا لا أستطيع أن أعرف ولا أستطيع أن أنكر إلا بعد أن أفهم وأحصل وأحقق، فأقبل عن بصيرة أو أرفض عن بصيرة. فأما إذا عرضت عليَّ الطلسمات والألغاز التي لا سبيل إلى فك رموزها، فلست منها في شيء وليست هي مني في شيء، وإنما أقرأ ثم أقول كما كان يقال في القرون الوسطى: يوناني فلا يُقرأ. نعم يوناني فلا يقرأ حتى أعرف قلب العمل الأدبي، وحتى أعرف هذه العمليات التي تقع أو تحدث أو تجري في داخل هذا القلب، وحتى أعرف هذا الاشتباك الذي يكون بين هذه العمليات وكيف يفضي بعضها إلى بعض.

وقد ذكر الأديبان بعض كتَّابنا القُصَّاص على أنهم يحسنون كتابة القصة على هذا المذهب الذي صوراه في هذه الطلسمات والألغاز، وهم الأساتذة: محمود تيمور، وتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ.

وأنا أزعم أن هؤلاء الكتَّاب من قُصاصنا المجوِّدين ليسوا أحسن مني حظًّا حين يقرءُون هذا الكلام، وأخشى ألا يجدوا مثل ما أجد من الصبر على قراءته مرة ومرة؛ لأنهم

يؤثرون أن ينفقوا وقتهم فيما ينفعهم وينفع الناس، وأن يقرءُوا ما يجدون من ورائه طائلًا وما يظفرون فيه بغذاء للعقل أو متعة للقلب والذوق.

فأما قلب العمل الأدبي وداخله الذي تجري فيه العمليات وما يكون بين هذه العمليات من اشتباك وإفضاء، وهذه الكائنات العضوية الأدبية التي تخرج من هذه العمليات فما أظن أنهم يحفلون بها أو يطيلون عندها الوقوف.

ولولا أني لا أحب أن أقسو على الأديبين الكريمين، كما قسا عليهما الأستاذ العقاد، لرحمتهما وأشفقت عليهما من هذا العناء الذي لا غناء فيه لهما ولا لغيرهما من الذين يقرءُون هذه الطلسمات التي لا أستطيع أن أحقق لها رأسًا أو ذيلًا، ولكنَّ كلًّا ميسرٌ لما خُلق له كما يقال. وأكبر الظن أنهما خُلقا كما خُلق أمثالهما لهذه الأحاجي والفنون من اللغز، ينفقون فيها أوقاتهم ويريحون فيها قرَّاءهم من الكلام الواضح الذي يُفهم فيدعو إلى التأمل والتدبر والتفكير.

واقرأ إن شئت نتائج هذا الكلام التي استخلصها الأديبان من بحثهما هذا العجيب الظريف:

ونحب أن نستخلص مما سبق أن ذكرنا الأمور الآتية:

أولًا: أن مضمون الأدب في جوهره أحداث تعكس مواقف ووقائع اجتماعية.

ثانيًا: أن الصورة الأدبية أو الصياغة عملية لتشكيل هذا المضمون وإبراز عناصره وتنمية مقوماته.

ثالثًا: أن تحديد الدلالة الاجتماعية للمضمون الأدبي لا يتعارض مع توكيد قيمة الصورة أو الصياغة الأدبية، بل يساعد على الكشف عن كثير من الأسرار الصياغية.

رابعًا: أن النقد الأدبي — على هذه الأسس السابقة — ليس دراسة لعملية الصياغة في صورتها الجامدة فحسب، بل هو استيعاب لكافة مقومات العمل الأدبي وما يتفاعل فيه من علاقات وأحداث عمليات. وبهذا يصبح الكشف عن المضمون الاجتماعي ومتابعة العملية الصياغية للعمل الأدبي مهمة واحدة متكاملة.

خامسًا: ومن هذا تقرر كذلك أن العلاقة بين الصورة والمادة أو بين الصياغة والمضمون لا تكون علاقة متآزرة متسقة إلا في الأعمال الأدبية الناجحة.

أما العمل الأدبي الفاشل كذا، فهو ذلك العمل الذي يقوم بين صياغته ومضمونه تخلخل وتنافر وعدم اتساق. وعلى هذا فإن المدارس الفنية التي تهتم بالشكل كالسريالية كذا والمستقبلية مثلًا مدارس فنية غير مكتملة.

هذه هي الأسس العامة التي تقوم عليها حركتنا النقدية والإبداعية على السواء. وبهذه الأسس نعدُّ أنفسنا على خلاف بيِّنٍ مع أصحاب المدرسة القديمة.

وهذا الكلام نفهم بعضه في عناء ولا يُفهم بعضه الآخر إلا عند قائليه أو كاتبيه إن استطاعوا له فهمًا. والذي يُفهم منه كلام يقال، فإذا حققته لم تجد له معنى ذا خطر أو قُل لم تجده صحيحًا.

كالذي زعم الأديبان من أن مضمون الأدب في جوهره أحداث تعكس مواقف ووقائع اجتماعية، فكل أثر أدبي لا يصور المواقف والوقائع الاجتماعية عند هؤلاء السادة ليس أدبًا. ومعنى ذلك أن الأدب لا ينبغي أن يصف الطبيعة التي نعيش معها على هذه الأرض، فالأنهار والأشجار والجبال والسهول والوديان والحيوان وما شاء الله من هذه الأشياء التي تتألف منها الطبيعة؛ لا تصلح موضوعًا أو مضمونًا للأدب فيما يرون. والسماء ونجومها وكواكبها لا يمكن أن تكون موضوعًا للأدب؛ لأنها ليست مواقف ولا وقائع اجتماعية. والرياح العاصفة والنسيم العليل والحر والبرد والسحاب والمطر والبرق والرعد لا يمكن أن تكون موضوعًا للأدب؛ لأنها ليست مواقف ولا وقائع اجتماعية.

وإحساس الفرد وشعوره ومناجاته لنفسه عما يجول في ضميره من الخواطر وما يثور في قلبه من العواطف وما يضطرب في نفسه من المعاني، لا يمكن أن تكون موضوعًا للأدب؛ لأنها ليست مواقف ولا وقائع اجتماعية.

وقس على هذا كل ما يصور شيئًا غير المواقف والوقائع الاجتماعية لا يمكن أن يكون موضوعًا للأدب. وكذلك تلغي أكثر الأدب القديم والحديث؛ لأنه لا يصور البؤس والجوع وحاجة الناس إلى ما ييسر حياتهم. فالإنسان عند هؤلاء السادة وعند أساتذتهم أيضًا قد خُلق ليأكل ويشرب ويحيا حياة ميسرة، فجِدُّه وجهده وتفكيره وتدبره وتأمله وشعوره وعواطفه؛ كل هذا يجب أن يتجه إلى شيء واحد ليس غير، وهو تيسير الحياة الاجتماعية وإرضاء حاجات الناس التي تتصل بأجسامهم وحدها. فصفوة الشعر الذي قاله القدماء والمحدثون وصفوة النثر أيضًا ليست أدبًا؛ لأنها لا تصور مواقع ولا مواقف اجتماعية إلا قليلًا. فمن شاء أن يلغي عقله وضميره وقلبه وروحه وأن يصبح جسمًا

ليس غير، فليسرع إلى المدرسة التي يدعو إليها هؤلاء السادة ليأكلوا مريئًا وليشربوا هنيئًا وليناموا وادعين وليكونوا كهذه الأدوات الكثيرة التي نسخرها لمرافقنا المختلفة.

هذا مثلٌ لما يفهم من كلام الأديبين الكريمين. فأما ما لا يُفهم منه فكثير، لا أدلك عليه لأنك لست محتاجًا إلى أن يدلك عليه أحد. ومن الطبيعي أن يكون هؤلاء السادة على خلاف شديد الوضوح مع المدرسة التي يسمونها القديمة؛ أي التي تقرر أن الإنسان ليس جسمًا فحسب وإنما هو جسم وروح، وأن القيم ليست طعامًا وشرابًا ودورًا وثيابًا، وإنما هي خير وشر وحق وباطل وجمال وقبح إلى آخر هذه الأشياء التي عاشت عليها الإنسانية قبل أن تنشأ هذه المدرسة الحديثة في أواسط القرن الماضي.

ومن هنا نفهم أن يكون شعر إليوت غير ذي خطر؛ لأن هذا الشاعر الإنجليزي مسيحي متعمق لدينه، يؤمن بأن له قلبًا وعقلًا وروحًا، وتسمو نفسه إلى ما فوق المادة، فهو لا يفزع للمواقف والوقائع الاجتماعية بالمعنى الذي يفهمه هذان الأديبان الكريمان وأمثالهما من أصحاب المادة الخالصة في الحياة.

أما الشاعر الروسي مايكوفسكي فشاعر عظيم حقًّا عند هؤلاء السادة؛ لأنه يمجد الحضارة الصناعية التي تتيح للناس أن يأكلوا ويشربواويناموا وينعموا بحياة رضية راضية.

ومن هنا أيضًا كان الكاتب الأيرلندي جيمس جويس غير ذي خطر؛ لأنه عُنيَ في قصته المشهورة «أوليس» بالضمير الفردي ووصف الانهيار النفسي وتحلل الشخصية الفردية. فأما الكاتب الروسي إيليا اهرنبورج فكاتبٌ عظيم ما في ذلك شك؛ لأنه يصور الحياة الاجتماعية ومقاومة النازية الألمانية في قصته العاصفة. ومثل هؤلاء السادة عندي مثل ذلك الأعرابي الذي أقبل من سفر بعيد، وكان متعبًا مكدودًا قد آذاه الجوع فلم يكد يدخل على أهله حتى وجد زوجته قد رزقته صبيًّا أثناء غيبته، وأقبل من في الدار ومن في الخباء يقدمون إليه ابنه ويطرونه، فأعرض عنهم مغضبًا وقال: ماذا أصنع به، أآكله أم أشربه؟! وفهمت عنه زوجه العليلة فقالت: غرثان فاربكوا له. تريد أنه جائع فأعدوا له طعامًا. فهؤلاء السادة لا يعرفون من الأدب أو لا يحبون أن يعرفوا من الأدب إلا ما يصوِّر جوع الجائعين الذين يجب أن يُقدَّم إليهم الطعام.

فأما أنا فقد شهد الله أني أحسست الجوع فلم يشغلني عما يمتع القلب والذوق والعقل، وأحسست الشبع فلم يشغلني عن جوع الجائعين وحاجة المحتاجين. وأنا من أجل ذلك أحب الأدب الذي يصور المواقف والوقائع الاجتماعية إذا أحسن تصويرها،

وأحب الأدب الذي يصور حياة الروح وطبيعة الأرض والسماء والجو والبحر إذا أحسن تصويرها أيضًا. وأنا من أجل ذلك أجد المتعة في شعر إليوت وقصص جيمس جويس كما أجدها في شعر مايكوفسكي وقصص إيليا اهرنبورج.

كل ما فيه روعة وجمال يروقني ويشوقني ويمتعني ويرضيني مهما يكن موضوعه. لا أنفر من الأدب المادي لأنه مادي، ولا أحب الأدب الروحي لأنه روحي، وإنما أنفر من الآثار التي لا تحقق معنى الأدب ولا تهدي إلى ما ينبغي أن يهدي الأدب إليه من هذا الشعور بالجمال سواء أصوَّر المادة، أم صوَّر الروح.

ولا عليَّ أن أكون من المدرسة القديمة أو من المدرسة الجديدة فهذا كله كلام يقال، ولم يخدعني الكلام عن حقائق الأشياء قط. وبعد هذا كله أحب أن أسأل هؤلاء السادة أن يتفضلوا فيبينوا لي في وضوح وفي كلام يفهمه مثلي من أوساط الناس ما عسى أن يكون مضمون الأدب هذا؛ أهو المعاني، أم هو الحقائق المادية والمعنوية التي تنعكس في هذه المعاني؟ ما الذي يجدونه في شعر مايكوفسكي حين يمجد الصناعة؟ أيجدون المصانع وأدواتها، أم يجدون صور هذه الصناعة والأدوات وصور إنتاجها وصور الآثار التي يحدثها هذا الإنتاج في الحياة الاجتماعية؟ أليسوا يحمدون هذه الصور حين تحسن التأدية للحقائق الاجتماعية والدلالة عليها؟ وهذه الصور ما هي؟ أمادة هي أم معنى؟ فإن تكن مادة فكيف يتاح لهذه المصانع الضخمة وهذه الأدوات الثقال وهؤلاء العمال ورؤسائهم ومهندسيهم ومديريهم وما ينتجون، وهؤلاء الناس الذين لا يُحصَون والذين ينتفعون بثمرات هذا الإنتاج؛ كيف يتاح لهذا كله ولهؤلاء الناس كلهم أن يجمعوا أشخاصهم وأعيانهم بين دفتي كتاب؟ وإن تكن صورًا، ففيم الأخذ والرد والجدال الذي لا يغني في أن نسميها صورًا أو نسميها معاني؟

وأرجو لذلك أن يجيبني هؤلاء السادة في وضوح واضح وجلاء لا لبس فيه ما عسى أن تكون هذه الصياغة، أهي التأليف بين المعاني أو بين هذه الصور لتلتئم وتأتلف والدلالة عليها بالألفاظ التي يؤديها إلى القراء؟ أم هي شيء آخر؟ فإن تكن الأولى ففيم الأخذ والرد والجدال الطويل؟ وقد قلت لهم إن الألفاظ وحدها لا تغني شيئًا، وإن المعاني وحدها لا تغني شيئًا، وإن الأدب لا يكون إلا إذا ائتلفت المعاني فيما بينها وائتلفت الألفاظ فيما بينها وبين المعاني، وكان الجمال الفني هو الذي ألَّف بينهما فأحسن التأليف. وإن تكن الصياغة شيئًا آخر فما عسى أن تكون؟ وأحب أن يريحوا أنفسهم ويريحوا قراءهم من قلب العمل الأدبي وداخله والعمليات التي تجري فيه واشتباك هذه العمليات وإفضاء بعضها إلى بعض، فقد أحب أن أقرأ لهم كلام الأيقاظ لا كلام النيام.

أما بعد فقد شغلني الحديث عن هؤلاء السادة والحديث إليهم عما كنت أريد أن أوجِّه إلى الأستاذ العقاد من شكر جميل على ما أهدى إليَّ من تحية كريمة في مقاله الأخير، وعلى ما أهدى إليَّ من تعزية أيضًا. ولعل الأستاذ يعلم أني لم أحفل قط بأن أكون عميدًا لأدب قديم أو جديد، ولم أعترف لنفسي قط بعمادة لهذا الأدب أو ذاك، ولم يعنِني قط أن تأتي هذه العمادة من المجددين أو المحافظين؛ لأني لا أعرفها ولا أقرها، فضلًا عن أن أطلبها أو أطمع فيها أو أتلقاها من أي ناحية تجيء.

كما شغلني الحديث عن هؤلاء السادة وإليهم عن أن أؤكد للأستاذ العقاد أني قرأت كثيرًا جدًّا من الدراسات النفسية، ورُضْتُ نفسي على كثير من العناء في قراءة هذه الدراسات حتى استقامت لي وأصبح من اليسير عليَّ أن أقرأها في غير مشقة ولا جهد، فإذا إذن لم أنكر إقحام التحليل النفسي في الدراسات الأدبية بالقياس إلى القدماء خاصة عن جهل لهذه الدراسات، وإنما أنكر ذلك لأن القدماء لا يصلحون موضوعًا للتحليل النفسي إلا على نحو من التجوز لا يغني من العلم الصحيح شيئًا.

والأستاذ العقاد يعلم أن الدراسات النفسية ألوان مختلفة، فمنها الدراسات النفسية القديمة التي لم تعتمد على التجربة في المعامل وإنما اعتمدت على الملاحظة؛ ملاحظة الفرد لنفسه وتحليل ما يجد حين يشعر ويفكر وحين يرضى ويسخط وحين يفرح ويحزن، وملاحظة الفرد لغيره من الناس حين يقفون هذه المواقف ويتعرضون لمثل ما يتعرض له من الشعور والتفكير.

ومنها علم النفس الذي يعتمد على التجربة والاختبار في المعامل المخصصة لهما. وأحب أن أقول للأستاذ إني حين كنت عميدًا لكلية الآداب منذ وقت طويل جدًّا جعلت دراسة علم النفس التجريبي جزءًا أساسيًّا من الدراسات الفلسفية في الكلية، وحاولت أول محاولة لإنشاء معمل لهذه الدراسات التجريبية في علم النفس. وعلم النفس التجريبي هذا ليس يسيرًا يقتصر على مذهب واحد، وإنما هو معقد أشد التعقيد ويذهب فيه العلماء مذاهب مختلفة، ما أظن الأستاذ في حاجة إلى أن أدله عليها. ولست أدري أشهد الأستاذ العقاد تلك المحاضرات التي ألقاها أستاذ عظيم من أساتذة علم النفس التجريبي هو الأستاذ الفرنسي دوما، وكنت أنا الذي دعاه إلى إلقاء هذه المحاضرات، وقد اعتمد في إفهام الطلاب والمستمعين ما أراد أن يوجه إليهم من حديث على الصور الشمسية التي عرضها عليهم بالفانوس السحري كما يقال.

فلست إذن غريبًا عن هذه الأنواع من الدراسات النفسية التي يفرغ لها الفلاسفة ويفرغ لها كثير من الأطباء أيضًا. فأما التحليل النفسي فشيء يُعنَى به الأطباء خاصة

ويفرغ له بعضهم ويقفون عليه جهدهم وتعليمهم وتأليفهم، وهو يُدرَّس في بعض كليات الطب الأوروبية ويُهمل في بعضها الآخر. وقد قرأت لبعض هؤلاء الأطباء كتبًا منها ما أنكرته وجادلت فيه لأنه اتخذ الذين مضوا من الناس موضوعًا لكتبهم ككتاب الأستاذ لافورج الفرنسي عن تليران، ومنها ما لم أُبِح لنفسي الجدال فيه لأنه يعتمد على التجربة المباشرة والملاحظة الشخصية. ولست من هذا كله في شيء.

والأستاذ يعلم أن كلية الآداب في جامعة إبراهيم تُعنَى بعلم النفس التحليلي هذا، وأستاذه طبيب تخرج في باريس وهو معروف في البيئات الأجنبية التي تعنى بهذه الدراسات، وبينه وبيني خطوب حين يتحدث إلى فنون من الأحاديث في هذا اللون من العلم، أو بعبارة أصح: في هذا اللون من الدرس. فأنا أزعم أن التحليل النفسي بهذا المعنى لم يصبح علمًا بعد، وإنما هو في طور المحاولات التي قد تنتهي إلى أن تصير علمًا في يوم من الأيام.

ومن الناس قوم يسرفون أشد الإسراف في الإذعان للتحليل النفسي حتى يبلغوا صور الإضحاك ويتعرضوا لشيء من السخرية؛ فقد حُدِّثت أن بعض الأمريكيين لا يعرضون أنفسهم على جراح الأسنان إلا بعد أن يعرضوا أنفسهم على الطبيب النفسي، ولا سيما إذا احتاج أحدهم إلى أن ينزع أحد أضراسه، ومن جراحي الأسنان الأمريكيين من لا ينظر في فم المريض إلا بعد أن ينظر الطبيب النفسي في ضميره. وأحب أن أعترف للأستاذ العقاد بأني ما زلت إلى الآن غير مؤمن بالعيادات النفسية التي أخذت تكثر في هذه الأيام.

والذي أريد أن أصل إليه من هذا كله هو أني حين أنكرت إخضاع أبي نواس لهذا النوع من التحليل النفسي كنت أعلم حق العلم ما كنت أقول، وكنت أعمد إليه عن إرادة وبصيرة وثقة؛ لأني أرى كل ما ينتج من إخضاع القدماء لهذا التحليل ضربًا من الظن لا يرقى إلى العلم، ولا ينتهي بأصحابه إلى اليقين، ولا يلزم قرَّاءه الاقتناع به والاطمئنان إليه. وما زلت أرى هذا الرأي لم يصرفني عنه الأستاذ العقاد بما كتب في مقاله الأخير، وما أرى أنه سيصرفني عنه الآن على أقل تقدير.

وخير من إنفاق الجهد في هذه المحاولات أن ينفق الأستاذ وأنفق أنا ما نملك من الجهد في المدرسة الفنية الأدبية لشعر أبي نواس وغيره من الشعراء القدماء، وهنا لا نستطيع أن نستغني عن نتائج علم النفس سواء أقام على الملاحظة أم على التجربة. وأقول علم النفس ولا أقول التحليل النفسي، فالفرق بين هذين النوعين واضح؛ أحدهما وهو الأول علم لا شك فيه، والثاني محاولة لم تصبح بعد علمًا.

وملاحظة أخيرة وهي أن عدول أبي نواس عن ذكر الأطلال لم يكن مقصورًا على أبي نواس وحده في ذلك العصر، وإنما كان نوعًا من البديع الذي ظهر في تلك الأيام. وأحب أن يُفهم البديع بمعنى التجديد. وفي كتب الأدب على اختلافها كلام كثير عن تسخيف الذين يذكرون الأطلال من الشعراء وهم يعيشون في المدن، ويذكرون الصحراء وهم لا يرونها، ويذكرون الإبل وهم لا يركبونها. وأبو نواس نفسه يلم بهذا المعنى في القصيدة التي أولها:

صفة الطلول بلاغة القدم　　فاجعل صفاتك لابنة الكرم

فيذكر في هذه القصيدة أن الذين يصفون الأطلال من شعراء الحضر مقلدون يقولون بما لا يعلمون.

أفيرى الأستاذ أن كل من ذهب هذا المذهب من الشعراء والأدباء قد كان عليل النفس بالنرجسية أو غيرها من هذه العلل التي يذكرها أصحاب التحليل النفسي.

فأما البيت الذي رواه الأستاذ العقاد لأبي نواس في أن خليفةً أو أميرًا أو وزيرًا أمره بوصف الطلول وهو قوله:

دعاني إلى وصف الطلول مسلط　　تضيق ذراعي أن أجوز له أمرا

فلا غرابة فيه مطلقًا، فقد كان الرشيد والأمين يلومان أبا نواس في استهتاره بالجديد وإغراقه فيه، ويعنفان عليه في اللوم، ويحبسانه في الجهر بوصف الخمر وشربها كما يحبسانه في الشعوبية وذم العرب والإسراف في تفضيل بعض القبائل على بعض، وفيما اتُّهم به أحيانًا من الزندقة. فأي غرابة في أن يأمره أحدهما أو أحد وزرائهما بوصف الطلول تمتعًا به أو امتحانًا له؟ وما حُفظ من هذه القصيدة يدل على ذلك دلالة واضحة.

وأعيد على الأستاذ العقاد ملحًّا أن الخير له ولقرائه أن يبذل في الدرس الفني لأبي نواس شيئًا من جهده الخصب، ذلك أجدر به وأجدى على القراء.

الحياة في سبيل الأدب

نعم، الحياة في سبيل الأدب، ما خطبها؟ أتستحق أو لا تستحق أن يُعنَى بها الكتَّاب، ويخصصوا لها من حين إلى حين فصولًا طوالًا أو قصارًا يعرضون فيها لخطوبها العظام، وأهوالها الجسام، ومشاكلها التي لا تحصى؟

فقد شبعنا من الأدب في سبيل الحياة حتى أدركتنا الكظة أو كادت تدركنا، وإن كنت أنا لم أُومِن بعد بهذا المذهب الذي نُقل إلى مصر نقلًا في غير تثبت ولا تمحيص.

وآن لنا فيما يظهر أن نعرض للحياة في سبيل الأدب، فقد نجد فيها ما يلذ ويمتع، وقد نجد فيها ما يسلي الهم ويعزي قليلًا أو كثيرًا عن هذه المحن الكثيرة المتصلة التي تصيب الأدباء في ذات نفوسهم، وفي أكرم الأشياء عليهم وآثرها عندهم، والتي قد تعرضهم للأخطار التي لا سبيل إلى وصفها ولا إلى تقديرها؛ لأنها قد تنتهي أحيانًا بالأديب إلى المحنة الكبرى التي لا علاج لها ولا انصراف عنها، وهي الموت في سبيل الرأي أو في سبيل كلمة تقال وليس من قولها بد.

ولأمر ما قال الشاعر القديم:

يموت الفتى من عَثرةٍ بلسانه وليس يموتُ من عثرةِ الرِّجل

وعثرة اللسان هذه قد يكون مصدرها الحمق وقد يكون مصدرها حب الحق والحرص على النصح للناس وإن كرهوا النصح والناصحين. والمحن لا تعرض للأدباء وحدهم لأنهم يقولون ما لا يرضي الناس، ولكنها تعرض للفلاسفة، وتعرض للمصلحين، وتعرض للذين يحاولون أن يلقوا في روع الناس ما لم يألفوا وما لم يحبوا، ويريدون أن يحملوهم على منهج جديد من مناهج الحياة مخالف للمناهج التي آثروها بالحب

ووصلوا بها قلوبهم وعقولهم وصلًا، وكرهوا أن يزعجهم الناس عنها بعد أن طال اطمئنانهم إليها.

وهذه المحن إنما تعرض للأدباء والفلاسفة والمصلحين لأنهم لم يملكوا ألسنتهم ولا أقلامهم، وإنما ملكتهم ألسنتهم وأقلامهم فاستجابوا لها، ولم يمتنعوا عليها؛ لأن هذه الأقلام وتلك الألسنة إنما كانت تترجم عن قلوبهم وعقولهم وعما ملأها من الخواطر والعواطف، وعما ملكها من المذاهب والآراء.

لم يكن سقراط معروفًا بقول الشعر ولم يكن معروفًا بكتابة النثر، بل يحدثنا مؤرخوه بأنه لم يترك أثرًا مكتوبًا نظمًا أو نثرًا، وإنما أنكر كثيرًا من حياة معاصريه في نفسه، ثم ملأ عليه هذا الإنكار عقله وقلبه، ثم فاض هذا الإنكار على لسانه، فانطلق يتحدث به إلى الناس في أنديتهم وملاعبهم، وفي حوانيتهم ومتاجرهم حتى ضاق به من ضاق، فرفعوا أمره إلى القضاء الذي قضى عليه الموت بعد أن سمع لخصمه وسمع له ورأى أنه لا ينكر من آرائه ولا من مذاهبه شيئًا.

فلسان سقراط هو الذي قضى عليه الموت إذن؛ لأن سقراط لم يحسن إمساكه في فمه، ولم يمنعه من أن يترجم عما كان يضطرب في نفسه من الخواطر والآراء.

والأدباء والفلاسفة الذين قضت عليهم ألسنتهم وأقلامهم بالعذاب ثم بالموت والذين عرَّضتهم ألسنتهم وأقلامهم لكثير من الخطوب الثقال، أكثر من أن أحاول إحصاءهم في هذا الحديث، وهم بعد ذلك معروفون لا يجهلهم المثقفون الذين يعنون بتطور الإنسان وتنقله بين هذه الأطوار المختلفة من الحياة حتى انتهى إلى هذا الطور الحديث الذي يعيش فيه.

وأدبنا العربي قد عرف هذه الألوان من المحن، وكان له ضحاياه الذين جرَّت ألسنتهم الموت على بعضهم، والعذاب على بعضهم الآخر، والحرمان على كثير منهم.

وكثير من أدبائنا الذين قضى عليهم الموت بتهمة الزندقة في بعض العصور إنما قتلتهم ألسنتهم؛ لأنها مكلتهم ولم يملكوها، ولأنها أعربت عن ذات نفوسهم وكان من الممكن أن تمسك عن هذا الإعراب. ولست أدري أَقُتل بشار لأنه كان زنديقًا أو لأنه كان أشد انحرافًا عن حقائق الدين من الذين قتلوه، أم قُتل لأنه لم يملك لسانه فهجا وزيرًا من وزراء الخليفة الذي أمر بضربه حتى الموت؟

وليس من شك في أن المتنبي قد قتله لسانه حين انحرف به عن العروبة إلى مدح الفرس والثناء عليهم، وكان لسانه خليقًا أن يقتله في غير موقف من مواقفه من أولئك الملوك والأمراء الذين أثنى عليهم ثم انحرف عنهم.

وتحضرني وأنا أملي هذا الكلام قصة ذلك العالم اللغوي الذي كان يؤدب أبناء المتوكل إن صدقتني الفكرة، والذي علَّمهم فيما علَّمهم ذات صباحٍ ذلك البيت الذي رويته آنفًا:

يموت الفتى من عثرة بلسانه وليس يموت المرء من عثرة الرجل

فلما حضر الغداء من ذلك اليوم جلس الأستاذ مع تلاميذه إلى مائدة الخليفة وكان الخليفة قد سُعي إليه بهذا الأستاذ واتُّهِم عنده بالتشيع، فسأله أثناء الغداء كالمداعب: أأبنائي أحب إليك أم أبناء علي؟! وأجابه الأستاذ بما لم يرضه لأنه لم يملك لسانه، فأمر الخليفة به فقُتل على نحو بشع شنيع.

والأدباء الذين تعرضوا للفقر والبؤس والحرمان لا لشيء إلا لأنهم أحبوا الأدب وكَلِفوا به ووقفوا حياتهم عليه أكثر من أن يبلغهم الإحصاء، وهم ليسوا مقصورين على أمة بعينها، ولا على جيل دون جيل. وما زال في كثير من أقطار الأرض أدباء يسعدون بأدبهم فيما بينهم وبين أنفسهم، ويشقون بأدبهم فيما بينهم وبين الناس، ويتعرضون بأدبهم لصروف كثيرة؛ فمنهم من يتعرض للحرمان أو ما يشبه الحرمان، ومنهم من يتعرض لغضب السلطان سواء أكان هذا السلطان فردًا مستأثرًا بالحكم، أم برلمانًا يدير أمره على الشورى ويقيم حياة شعبه على الحرية والديمقراطية.

وحياة هؤلاء الأدباء، من يمتحن منهم بالشر وهم الأكثرون ومن يتاح لهم الخير وهم الأقلون، جديرة بشيء من العناية وجديرة بشيء من الرعاية أيضًا. فقد ينبغي للإنسانية بعد أن بلغت ما بلغت من الرقي وعرفت ما عرفت من الحقوق أن تعصم الذين يحيون في سبيل الأدب من التعرض للمحنة والبلاء؛ ذلك لأنهم حين يحيون في سبيل الأدب إنما يحيون في سبيل الذين يقرءُون أدبهم من الأجيال المعاصرة ومن الأجيال التي تأتي بعدهم إن أتيح لأدبهم البقاء. وما أكثر ما يتبين الناس بآخرة بعد فوات الوقت حين لا يتاح لهم تدارك ما فاتهم أنهم قصروا في ذات هذا الأديب أو ذاك، وأنهم جَنَوا على هذا الأديب أو ذاك! وخير من ذلك بالطبع أن يعصم الناس أنفسهم من هذا التقصير وأن يكفلوا لهؤلاء الأدباء ولغيرهم من الذين يحيون لعقولهم من الفلاسفة والعلماء وأصحاب الفن حياة كريمة تنأى بهم عما يهينهم في أنفسهم، وعما يشقيهم بحياتهم، وعما يعرضهم للخطر بسبب آرائهم التي تملك عليهم نفوسهم وألسنتهم وأقلامهم التي لا تحسن السكوت ولا السكون.

ولم يخطئ العباس بن الأحنف حين شبَّه نفسه بالذُّبالة التي نُصبت تضيء للناس وهي تحترق. فليس الأديب والفيلسوف والعالم وصاحب الفن إلا سراجًا يضيء لكثير أو قليل من الناس سبيلهم في الحياة التي يحيونها، وهو يعطيهم من ذات نفسه ويمنحهم خير ما عنده، وهو يشقى ليسعدوا ويبتئس لينعموا ويخاف ليأمنوا، فلا أقل من أن يمنحوه من ذات أنفسهم مثل ما يمنحهم من ذات نفسه، ومن أن يردوا عليه بعض ما يهدي إليهم من السعادة والمتعة والنعيم والأمن وراحة البال.

وأول ما ينبغي أن تكفله الجماعة المتحضرة للأديب هو الحرية، وأريد الحرية الحرة التي يأمن معها الغوائل ولا يتعرض معها لشر أو كيد أو هوان. فالأديب الحق حر بطبعه لا ينتظر أن تهدى إليه الحرية من أحد غيره، وإنما تولد معه حريته يوم يولد، وتنمو معه حين ينمو، وتصحبه منذ يدخل الحياة إلى أن يخرج منها. وهو لا يُؤْثر في الدنيا شيئًا كما يُؤْثر الأدب الحر، وهو يزدري أدبه أشد الازدراء ويضيق به أعظم الضيق إن فقد حريته في يوم من الأيام، وهذه الحرية التي يجب أن تكفل للأديب وللذين يعملون بعقولهم لا تطلب إلى الحكومات وحدها، وإنما تطلب إلى الحكومات وإلى الشعوب أيضًا. وربما كانت الحكومات في هذا العصر أقل خطرًا على حرية الأدباء والفلاسفة والعلماء وأصحاب الفن من الجماعات. فالحكومات آخر الأمر لا تحكم لنفسها في الأمم المتحضرة، وهي من أجل ذلك لا تطلب إلى الذين يعملون بعقولهم أكثر مما تطلب إلى غيرهم من الناس، وهي من أجل ذلك لا تستطيع أن تختص الذين يعملون بعقولهم بالشر أو الأذى أو الاضطهاد، وهي حتى حين تفرض الرقابة التي أمقتها أشد المقت لا تفرضها بالقياس إلى هذه الطوائف من دون غيرها من الناس، وإنما تفرضها بالقياس إلى الناس جميعًا لظروف موقوتة. وهذه الرقابة تزول بزوال هذه الظروف، وقد تخطئ الحكومات حين لا تختص هؤلاء العاملين بعقولهم بألوان من الرعاية تحتاج إليها طبيعة عملهم، ولكنها على كل حال ليست أشد خطرًا عليهم من الجماعات التي تضيق بهم أحيانًا وتشق عليهم أحيانًا، وتنتظر منهم أكثر مما تعطيهم، وتسرف عليهم في اللوم إن أسخطوها، وتبخل عليهم بالتشجيع إن أرضوها، وهي أشبه شيء بالقطط فيما يقول العامة تأكل وتنكر وتأخذ وتمنع. وهي ساخطة دائمًا بخيلة دائمًا، تلوم الأدباء إذا لم ينتجوا، وتستغل إنتاجهم حين ينتجون، ولا تكره أن يحرق الأدباء نفوسهم ليضيئوا لها سبلها، وتكره أشد الكره أن تتيح لهؤلاء الأدباء من الحياة ما يمكنهم من إحراق أنفسهم دون أن يحسوا ألم هذا الحريق الذي يصلَوْن حرَّه في الليل والنهار.

الأدب في سبيل الحياة كلمة تقال وتكتب ولا يكاد الذين يقولونها ويكتبونها يحققون معناها ولا يكادون يحققون نتائجها أيضًا. فما عسى أن تكون هذه الحياة التي يريدون أن يجعلوا الأدب وسيلة لها؟ أهي حياة الأجسام أم حياة القلوب والعقول؟ فإن تكن حياة الأجسام، فما أهون الغاية وما أخطر الوسيلة! وقد عاشت أجيال الإنسانية إلى الآن على أن الأجسام وسائل إلى إرضاء العقول لا على أن العقول وسائل إلى إرضاء الأجسام.

وإن كانت حياة العقول والقلوب والأذواق وملكات النفس الإنسانية كافة، فالأدب والفن والفلسفة والعلم لا غاية لها إلا إرضاء هذه الملكات وتمكينها من النمو والرقي والسمو إلى الكمال بمقدار ما يتاح للناس أن يسموا إلى الكمال. أهي حياة الأفراد أم حياة الشعوب؟ فإن تكن حياة الأفراد فما أهون الغاية وما أخطر الوسيلة، وويل لأدب لا ينشأ إلا لينعم به هذا الفرد أو ذاك!

وأنا بعد هذا لا أعرف هذا الأدب الفردي ولا أعلم أنه قد وُجد في وقت من الأوقات؛ فالأدب اجتماعي بطبعه كالإنسان الذي وصفه أرسطاطاليس بهذا الوصف منذ أربعة وعشرين قرنًا. ولا ينبغي أن تقف عند هذه السخافة التي كثر تكرارها، والتي تعيب على الأدب القديم أنه كان يتجه ببعض فنونه إلى الملوك والأمراء وأصحاب السعة من الأغنياء؛ فهذا الأدب الذي كان يوجَّه إلى هؤلاء الناس قلة ضئيلة بالقياس إلى الأدب الذي كان يوجَّه إلى الإنسان من حيث هو إنسان، وهو على رغم اتجاهه إلى هؤلاء الأفراد أدب اجتماعي وكثير منه إنساني لا يجادل في ذلك إلا المحمقون.

ونحن نقرأ الآن وستقرأ الأجيال غدًا وبعد غد أدبًا وُجِّه إلى هؤلاء الملوك والأمراء وأصحاب الثراء منذ القرون الطوال أشد الطول، فلمَ بقي إلى الآن ولمَ يبقى إلى غد وبعد غد، ولمَ لَمْ يمت مع قائليه ومع الذين وُجِّه إليهم من الأقوياء والأغنياء؟ أكان بقاؤه ممكنًا لو لم يكن فيه هذا العنصر الاجتماعي الإنساني الذي أتاح له البقاء وأتاح للأجيال المتعاقبة أن تفزع إليه تلتمس فيه اللذة والمتاع ونعيم النفس وغبطة القلب ورضى الضمير؟

الأدب إذن اجتماعي بطبعه، وهو موجه بطبعه في سبيل الحياة بأقوم معانيها وأبقاها وأرقاها ... حياة العقول والقلوب التي لا تموت ولا يدركها البلى، لا حياة الأجسام التي تُخلق من تراب وتصير إلى تراب.

والذين يقولون ويكتبون هذه العبارة النابية — الأدب في سبيل الحياة — لا يحققون نتائج ما يقولون ويكتبون كما أنهم لا يحققون معناه، كما رأيت. فكلمة الحياة هذه

كلمة عامة تطلق في غير تحفُّظ ولا تثبُّت ولا تجديد إلا عند العلماء الذين يدلون بها على معنى بعينه يعرفونه أحسن المعرفة ويحددونه أدق التحديد، ولا يكاد يخطر للذين يرسلون هذه الكلمة فيما يكتبون من الفصول وفيما يديرون بينهم من الحديث على بال.

وإنما الحياة عند هؤلاء كلمة مهملة مرسلة تدل على أشياء ليست بذات حدود واضحة مبينة؛ فالطعام والشراب حياة، والنوم واليقظة حياة، والجد واللعب حياة. وللحياة بعد ذلك معنى آخر يحبه الناس؛ لأنهم لا يحققونه ولا يحددونه ولأنه يغمرهم من جميع أقطارهم. فالحياة بهذا المعنى كل شيء أي أنها ليست شيئًا؛ لأن كل شيء هذه كلمة يراد بها الإحصاء والحصر مع أن الأشياء لا سبيل إلى إحصائها ولا حصرها. والأدب الحق لا يكره شيئًا كما يكره هذا العموم الفارغ من كل معنى دقيق، فأي معنى من معاني الحياة هذه يراد الأدب على أن يكون وسيلة إليها؟ أهي حياة العلماء الذين يعملون في معاملهم أم هي حياة اللاعبين، أم هي حياة الجادين؟ أم هي حياة هؤلاء الذين يريدون أشياء لا يعرفونها ولا تحققها عقولهم؟ أم هي كل هذه المعاني جميعًا؟

كلام يقال ولا يحصِّل شيئًا. وأكبر الظن، بل الحق الذي ليس فيه شك، هو أن أصحاب الأدب في سبيل الحياة إذا سألتهم عن هذه الحياة التي يريدونها لم تجد عندهم جوابًا مقنعًا، وإنما هي كلمة جاءتهم في بعض ما يقرءُون من الكتب والصحف والمجلات فأخذوها على علاتها واستعملوها على غير تحقيق لها ولا تثبت منها. فليحذروا أن تُفهم عنهم على وجه لم يريدوه ولم يقصدوا إليه، فقد يفهم منها العامة وأشباه العامة أن الأدب يجب أن يُسخر في سبيل الطعام والشراب، وما يشبه الطعام والشراب من هذه الحاجات المادية القريبة. وقد يفهم منها بعض المثقفين أن الأدب يجب أن يسخَّر لمذهب بعينه من مذاهب الإنسانية الحديثة في السياسة والفلسفة والاجتماع، وهو أن الأدب يجب أن يكون مسخرًا لإقناع العامة وأشباههم بأن الحياة مادة ليس غير، وبأن الروح وما يتصل به من العقل والقلب والملكات المختلفة، أساطير هام بها القدماء وهي لا تغني عن الناس شيئًا.

وما أظن أن أكثر الذين يرددون عبارة الأدب في سبيل الحياة يريدون هذا المذهب أو يفكرون فيه. فلنتفق إذن، إن كان من الممكن أن نتفق، على أن الحياة التي ينبغي أن يتجه إليها الأدب والتي يتجه إليها بالفعل، كما يتجه إليها العلم والفن والفلسفة، إنما هي حياة الجماعات الإنسانية من حيث إنها جماعات طامحة بطبعها إلى الرقي والسمو إلى الكمال بقدر الطاقة في جميع فروع النشاط الذي تبذل فيه جهودها على اختلافها.

وإذا اتفقنا على ذلك فإني أتحدى أصحاب الأدب في سبيل الحياة وأسألهم أن يدلوني على أدب قديم أو حديث لم يتجه إلى إرضاء هذه الحاجة الإنسانية … إلى ترقية الحياة الاجتماعية وتكميلها ونقلها من طور إلى طور. وقد يذكرون أدب الذين يريدون الفن للفن، ولكني أنصح لهم بأن يحتاطوا، فالذين يريدون الفن للفن لا يرتفعون بأنفسهم عن الجماعات الإنسانية، ولا يجعلون أنفسهم ملائكة، ولا يعيشون في السحاب، ولا يلتزمون هذه الخرافة التي تسمى البرج العاجي، ولكنهم يرون للجماعات الإنسانية نفسها كما يرون لأنفسهم أن تخلص بعض وقتها وبعض نشاطها وبعض ملكاتها للجمال من حيث هو الجمال، ولأداة الجمال التي هي الفن الرفيع أدبًا كان أو تصويرًا أو موسيقى أو ما شئت من الفنون الجميلة، ويريدون للجماعات الإنسانية كما يريدون لأنفسهم الارتفاع بين حين وحين عما يتصل بالمنافع العاجلة القريبة إلى ما هو أبقى منها وأرقى، يرون ذلك حقًّا على كل إنسان لنفسه لأنه أذكى للعقول، وأصفى للقلوب، وأنقى للأذواق، وأظهر للطباع، وأجدر بعد ذلك كله أن يتيح للإنسان حين يعود إلى حياته العملية أن يكون أخصب نشاطًا، وأكثر إنتاجًا، وأكرم على نفسه من الذين يقفون جهودهم كلها على إرضاء الحاجات وتحقيق المنافع وقضاء المآرب … وقد يصيب أصحاب هذا المذهب وقد يخطئون، ولكنهم على كل حال يرون الخير لأنفسهم وللناس فيما يذهبون إليه، فلا جناح عليهم إذن ما داموا لا يؤثرون أنفسهم بالخير من دون غيرهم، ولا جناح على غيرهم أن يخالفهم إلى مذهب غير الذي ذهبوا إليه، والمحقق أن الأدب الذي لا يتوخى إصلاح الجماعات الإنسانية من بعض وجوهها لم يوجد بعد. وأن الأدب منذ كان كالفن منذ كان، وكالعلم والفلسفة منذ كانا، ظواهر اجتماعية لا تستطيع أن تبرأ من ذلك حتى حين تحاوله، ولا يستطيع إنسان عاقل أن يجادل في ذلك أو يشك فيه.

وقد يرى أصحاب الأدب في سبيل الحياة أن أدباءهم المصريين الذين سبقوهم إلى الإنتاج لم يحققوا ما كان الناس ينتظرون منهم، ولم يعرضوا لمشكلات الجماعة المصرية كما كان ينبغي أن يعرضوا لها، فليطمئنوا فالأدب الذي يحقق كل ما كان ينتظر منه لم يوجد بعد، وما أرى أنه سيوجد في يوم من الأيام؛ لأن الكمال لا سبيل إليه، ولأن الجماعة الإنسانية تحيا في تطور متصل، ومعنى التطور الانتقال من حال إلى حال، ومعناه أيضًا أن تضيف الأجيال إلى ما أنتجت الأجيال السابقة، ولا ينبغي أن يلام جيل سابق لأنه لم يحقق ما يريد جيل لاحق.

وأنت لا تنتظر من أدباء القرن التاسع عشر في أي بلد من البلاد أن يحققوا ما يريده القرن الذي نعيش فيه، والعلماء الذين يعيشون الآن ويستكشفون من قوانين العلم ما لم تستكشفه أجيال العلماء التي سبقتهم لا يعيبون هذه الأجيال ولا ينكرون جهدها، وإنما يحمدون لها ما بذلت من جهد، ويقدرون ما استكشفت من العلم، ويضيفون إليه ما يستكشفون. وقل مثل ذلك في الذين يستغلون قوانين العلم للاختراع والابتكار.

والأدباء الذين يُدعَون شيوخًا الآن لا يُلامون لأن أدبهم قد لا يُرضي نزعات الشباب، ولا يلامون لأنهم لم يبلغوا ما يطمح إليه الشباب من الكمال الفني، وإنما ينبغي أن يعرف لهم الشباب ما أضافوا إلى أدب الأجيال التي سبقتهم وما جددوا بالقياس إلى أدب تلك الأجيال.

وقد ينبغي لأصحاب الأدب في سبيل الحياة من الشباب أن ينصفوا أنفسهم وألا يجوروا بها عن القصد وألا يورطوها في هذه الأحكام المخطئة الخاطئة.

فليس من الحق في شيء أن الشيوخ من أدبائنا قد أهملوا حياة الجماعة أو قصروا في علاج مشكلاتها أو صرفوا أنفسهم عنها عامدين، أو غير عامدين. وإنما الحق الذي ليس فيه شك والذي لا يجادل فيه إلا المحمقون والجاحدون، هو أن هؤلاء الشيوخ من الأدباء قد خاضوا مشكلات الحياة المصرية في شجاعة وجراءة وإقدام أتمنى مخلصًا أن تتاح لهؤلاء الشباب الذين يطلقون فيهم ألسنتهم بغير حساب.

وقِف عند أي شيخ من هؤلاء الشيوخ وقفة المنصف لنفسه ولغيره أيضًا، فسترى أنه لم ينفق حياته لاهيًا ولا ساهيًا ولم يضيِّعها عابثًا ولا لاعبًا، وإنما أنفقها جادًّا كادًّا وصابرًا مصابرًا، ومقاومًا لما رأى أنه الباطل أشد المقاومة وأقساها، ومدافعًا عما رأى أنه الحق أعنف الدفاع وأقواه، ومعالجًا من المشكلات الاجتماعية والإنسانية ما أتاح له علمه ودرايته وطبعه وتجاربه أن يعالجه.

وحدثني عن شيخ من هؤلاء الشيوخ ألَّف كتابًا أو نشر فصلًا لا يريد بتأليفه أو نشره إلا اللهو والعبث، ولا يقصد بتأليفه أو نشره إلا إيثار نفسه بالمتاع … بهذا المتاع الباطل الذي يخطر لبعض الكتَّاب من الشباب أن الأدباء قد يؤثرون به أنفسهم أحيانًا وإن كنت لا أعرف أنا واحدًا من هؤلاء الأدباء.

قف عند المازني — رحمه الله — وحدثني عن كتبه التي قرأها الناس أثناء حياته وهم يقرءُونها الآن بعد وفاته، وحدثني أي كتاب من هذه الكتب تستطيع أن تصفه بأنه لغو من القول لا ينفع قراءه حين يقرءُونه. وإن كتبه كلها تضطرب بين كتب تعليمية

كتلك التي تناولت النقد الأدبي للقدماء والمحدثين الشرقيين منهم والغربيين، وكتب أخرى صوَّر فيها تجاربه ومشكلاته التي تعرض لكثير من أمثاله في أطوار الشباب والكهولة والشيخوخة وبيَّن فيها كيف لقي هذه التجارب وكيف نفذ منها، وكيف واجه هذه المشكلات وكيف قهرها واقتحم عقابها، وهو في تصوير هذه التجارب والمشكلات وفي تصوير ما وجد لها من حلول يفتح لقرائه أبوابًا من التفكير، ويعرض لهم وسائل تتيح لهم لقاء التجارب كرامًا والخروج منها كرامًا، وتتيح لهم مواجهة المشكلات مبصرين لما يأتون من الأمر وما يدعون.

وهو يخطئ مرة ويصيب مرات، شأنه في ذلك شأن الناس جميعًا، لم يفرض الخطأ على أحدهم ضربة لازم، ولم تُكتب العصمة لأحدهم في اللوح المحفوظ، وإنما هم معرَّضون للضعف الذي يورطهم في الخطأ وللقوة التي تتيح لهم الصواب. والشيء الذي لا يريد بعض الناس عندنا أن يفهموه ولا أن يقبلوه هو أن الخطأ حق من حقوق الإنسان لا ينبغي أن يلام عليه أو يدان به أو يعاقب على التورط فيه، وإنما ينبغي أن يُدل عليه في رفق وأن ينبه إليه في ود ووفاء. والله الذي هو أقدر القادرين وأعدل الحاكمين لا يعاقب الناس على خطئهم كما لا يعاقبهم على نسيانهم، وإنما يتجاوز لهم عن الخطأ والنسيان، وهو قد علَّمهم أن يبتهلوا إليه فيسألوه ألا يؤاخذهم إن نسوا أو أخطئُوا، وهو قد أنبأهم بأنه كتب على نفسه الرحمة، وبأن مغفرته ميسرة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من بعد ذلك ويصلحون.

فما بال قوم منا لا يعترفون للإنسان بحقه في الخطأ، وما بالهم يتبعون في ذلك مذاهب الجامحين من أصحاب الدكتاتوريات الطاغية التي لا تعفو لأحد عن خطأ، ولا تتجاوز لأحد عن نسيان.

ودع المازني إلى من شئت غيره من شيوخ الأدب مَن سبق منهم إلى جوار ربه ومن لا يزال منهم مجاورًا للناس، وحدثني عن كتبهم التي يقرؤها الناس والتي أعرض الناس عن قراءتها، أكُتبت لغوًا وعبثًا أم كُتبت تعليمًا وإرشادًا، وتوجيهًا وعلاجًا لأمور رآها الكتَّاب الشيوخ من المشكلات في حياة الناس، وأرادوا أن يدرسوها ويبينوا للناس مصادرها ومواردها، وطريق الخروج منها والتغلب عليها؟

فما عسى أن يكون الأدب في سبيل الحياة إذن إذا لم يكن أدب هؤلاء الشيوخ في سبيل الحياة؟

كل ما بين أصحاب الأدب في سبيل الحياة وبيني من خلاف هو أن الأدب بطبعه لا يمكن أن يكون إلا في سبيل الحياة. فعبارتهم هذه لا تدل على شيء ولا تجدد شيئًا ولا

تدعو إلى شيء، كذلك أرى أنا. أما هم فيرون أنهم قد استكشفوا عظيمًا وجددوه تجديدًا خطيرًا، فإذا سألتهم عن هذا الشيء العظيم الذي استكشفوه وعن هذا التجديد الخطير الذي استحدثوه، لم تجد عندهم ردًّا مقنعًا، وإنما هو كلام عام عموم هذه الحياة التي يريدون أن يسخِّروا الأدب لها، مع أن الأدب مُسخَّر لها بطبعه قبل أن يريدوه على ذلك بل قبل أن يعرفوه ويشاركوا فيه.

وأنا بعد ذلك لا أرى لأحد كائنًا من يكون فردًا أو جماعة أن يكلف الأديب أن يوجه أدبه هذه الوجهة أو تلك، وإنما الأديب حر يكتب ما يشاء ويكتب كيف يشاء، والقرَّاء أحرار يقرءُون إن شاءوا، ويُعرِضون إن أحبوا، ويسخطون إن أثار فيهم الأدب سخطًا، ويرضون إن أثار فيهم الأدب رضًى، وليس بين الأدب وبينهم إلا هذا. ليس لهم على الأديب حق أن يكتب لهم ما يشاءون، وليس للأديب عليهم حق أن يرضوا عن كل ما يكتب، وإن لم يعجبهم ولم يقع منهم موقع الرضى.

هذا كلام قلته ألف مرة ومرة ولن أملَّ تكراره وإن غاظ بعض الناس وأحرج الصدور؛ لأن تكرار الحق لا ينبغي أن يمل.

وأعود إلى الحياة في سبيل الأدب فأسأل: أيريد الناس الذي يذوقون الأدب ويحبونه أن يُقدَّم إليهم هذا الأدب بين حين وحين أم لا يريدون؟ فإن تكن الأولى فأيسرها يوجب عليهم أن يُخلُّوا بين الأدباء وبين حريتهم في حياتهم هذه التي يفنونها على الأدب وقتًا، وأن ييسِّروا لهم هذه الحياة ويكفلوا لهم هذه الحرية الخصبة إن كان فيهم فضل من خير وبقية من حب لأنفسهم، فهم ينعمون بأدب الأدباء أكثر مما ينعم به الأدباء أنفسهم. وإن كانت الثانية فلا عليهم أن يكتب الأدباء أو لا يكتبوا، ولا عليهم إن كتب الأدباء لهم ما يحبون أو ما لا يحبون، فقد ينبغي إذا بخلوا بالخير على الأدباء ألا يجودوا عليهم بالشر.

ليصدقني القرَّاء أن شيوخ الأدباء في هذا العصر الحديث وقدماء الأدباء في العصور التي سبقت هذا العصر كانوا أعلم منهم بما للأدب عليهم من حق، وأفقه منهم بما للحياة الاجتماعية نفسها عليهم من حق؛ فلم يضيعوا وقتهم وجهدهم وقوتهم في البحث عن الأدب أيكون في سبيل الحياة أم في سبيل الموت، وإنما أنفقوا وقتهم وجهدهم ونشاطهم في قراءة الأدب وفهمه وذوقه وتمثُّله، وفي درس هذه الحياة الخصبة الممتعة المليئة بما يسوء وما يسر وبما يحزن وما يلذ، والتي كُتِب على الأدباء أن يحيوها، ووجدوا في هذا كله متاعًا لأنفسهم وللناس ونفعًا لأنفسهم وللناس. وأنا بعد ذلك لا أريد من الأدباء

وحدهم أن يحيوا في سبيل الأدب لأنهم ليسوا في حاجة إلى أن أريدهم على ذلك، فهم مُيسَّرون في طبعهم لهذه الحياة، وإنما أريد من شباب الأدباء أن يعرفوا كيف يخلصون نفوسهم وقلوبهم للحياة في سبيل الأدب لا للأدب في سبيل الحياة.

وأريد آخر الأمر من القراء جميعًا أن يخلصوا جزءًا من نفوسهم وجزءًا من وقتهم وجزءًا من نشاطهم للحياة في سبيل الأدب، وأن يأخذوا أنفسهم ساعة من نهار أو ساعة من ليل تقصُر أو تطول ليفرغوا فيها للقراءة والذوق، يقرءُون ويفهمون ويذوقون، لا ليقضوا الوقت ولا ليلتمسوا من القراءة والفهم والذوق منفعة مادية عملية قريبة أو بعيدة، بل ليغذوا عقولهم وقلوبهم ويمتعوا نفوسهم وأذواقهم، وليشعر كل واحد منهم بأن له ساعة يؤثرها على ساعات النهار والليل كلها؛ لأنها تشعره وتسعده بأنه إنسان بالمعنى الصحيح الدقيق الرفيع لكلمة الإنسان.

وإذا أنفق القارئ أكثر يومه حيوانًا يجد ويكد ليعيش هذه المعيشة الدنيا التي يحتاج إليها الجسم، فلا أقل من أن ينفق ساعة يعود فيها إلى نفسه، ويرتفع فيها على حيوانيته، ويصير فيها إلى إنسانيته الرفيعة، ويؤمن فيها بأن حياته الحيوانية لم تذهب عبثًا، وإنما أتاحت له أن يكون إنسانًا لحظات مهما تكن قصارًا فإنها عذبة نافعة جديرة بأن تُنفَق الحياة في سبيلها.

أصداء

تصل إليَّ بين حين وحين في هذه العزلة التي أويت إليها وقتًا ما، أصداء ضئيلة نحيلة لخصومات أدبية تثار في مصر.

وأحب أن أشكر قبل كل شيء أجمل الشكر وأخلصه لبعض أدباء الشباب ما يتفضلون به عليَّ أثناء غيابي عن مصر من هذه التحيات الكريمة، التي إن دلت على شيء فإنما تدل على أنهم يذكرونني ولا ينسونني. ولا عليَّ بعد ذلك أن تكون هذه التحيات ثناء أو هجاء، فكلا الأمرين عندي سواء.

وأحب أن يعلم هؤلاء الأدباء من شبابنا أني لم أتلقَّ قط ما يُهدَى إليَّ من الثناء إلا في كثير جدًّا من التحفظ والشك، ولم أتلقَّ قط ما يُهدَى إليَّ من الهجاء إلا في كثير جدًّا من الغبطة والرضى. ذلك أني أعرف من مواضع النقص في نفسي أشياء قد لا يعرفها الذين يثنون عليَّ، ولو قد عرفوها لضنُّوا بثنائهم أو اقتصدوا فيه.

وأعرف أيضًا من مواضع النقص أكثر مما يعرف الذين يهدون إليَّ الهجاء، فإذا قرأت هجاءهم انتفعت به أولًا وحمدت الله على العافية بعد ذلك.

وقد وصلت إليَّ أصداء حملة رقيقة أو عنيفة نهض بها بعض الكتَّاب ليثبتوا أني لا أُحسِن كتابة القصة، بل ليثبتوا أني لا أُحسِن الكتابة في القصة ولا في غيرها. وهذا كله حق لا شك فيه؛ فما زعمت في يوم من الأيام أني قاصٌّ أجيد فن القصص أو أقارب إجادته. ومن أين لي إتقان هذا الفن أو مقاربة إتقانه وأنا لم أدرسه في مدرسة ولم أتلقَّ أصوله عن أستاذ من أساتذة النقد، ولم أحفظ هذه الشروط العشرة أو العشرين أو التي هي أقل أو أكثر من العشرة أو العشرين، والتي ليس من حفظها بد، وليس من رعايتها بد أيضًا، ليكون الكاتب قاصًّا متقنًا لفنه، ولتكون القصة التي ينتجها رائعة

بارعة تستحق أن تسمى قصة وتستحق أن يقرأها القراء، وتستحق بعد ذلك أن يتخذها القُصَّاص الناشئون نموذجًا ومثالًا.

لم أزعم قط أني قاص؛ لأني لم أتعلم فن القصة، ولست أدري أين يستطيع الناس أن يتعلموه، ولم يرزقني الله هذه الموهبة فأتقن فن القصة دون أن أتعلم أصوله.

وأحب أن أرضي هؤلاء الأدباء الكرام من شبابنا فأؤكد لهم مخلصًا أني لم أعتقد قط أني كاتب مُجِيد، ولم أصدق قط أني أديب ممتاز، ولم أفهم قط هذا اللقب الذي أُهدِيَ إليَّ فجأة ومن غير وجه، وعلى غير تواطؤ من الذين أهدوه إليَّ فسمَّوني عميد الأدب العربي.

كل هذه الصفات أهداها إليَّ القراء دون أن أطلب إليهم إهداءها، ودون أن أُومِن لهم بالحق في إهدائها إليَّ دون غيري من الأدباء، ودون أن أطمئن إليها حين أهديت إليَّ. والذين يعرفونني من الخاصة والأصدقاء يشهدون من غير شك أني لم أسمع قط ثناءً عليَّ ولا تقريظًا لي إلا رفعت كتفي وهززت رأسي ساخرًا من نفسي ومُعرِضًا عن الثناء والتقريظ.

فليطمئن الأدباء من شبابنا وليعلموا أنهم حين يسيئون الظن بأدبي وبإتقاني لفن القصة أو غيره من الفنون، لا يبلغون من سوء الظن بعض ما أبلغ أنا حين أنظر إلى نفسي وحين أنظر إلى ما أنتج من الآثار.

وأنا أريد أن أزيدهم رضى إلى رضى واطمئنانًا إلى اطمئنان، فأؤكد لهم مرة أخرى أن سوء الظن بنفسي وأدبي لا يقف عند هذا الحد الذي صورته لهم، وإنما يتجاوزه إلى أشياء أخرى لست أدري كيف لم تخطر لهم إلى الآن؛ فبعضهم مثلًا يراني أزهريًّا، وقد نشأت في الأزهر ما في ذلك شك، ولكن ما رأيهم في أن الأزهريين قد لفظوني منذ زمن بعيد؟ أقصوني عن الأزهر حينًا ما، ثم ردوني إليه بعد ذلك. فلما تقدمت لامتحانهم نهائيًّا وظننت أني سأظفر بإجازته الأخيرة ردوني عن هذه الإجازة أعنف رد، فحمدت الله على السلامة، وقنعت من الغنيمة بالإياب. أنا إذن أزهري عند بعض الناس وغير أزهري عند الأزهريين أنفسهم، فأنا ساقط بين كرسيين كما يقول الفرنسيون؛ يرفضني الأزهريون لأنهم لم يمنحوني إجازتهم، ويرفضني المثقفون ثقافة أجنبية لأني أزهري لا أعرف من ثقافتهم هذه الأجنبية إلا القشور. والغريب أن كلمة القشور هذه كُتِبت عليَّ منذ أول الشباب، فقد كان شيوخنا في الأزهر يعيبون عليَّ طلب الأدب الذي كانوا يرونه قشورًا، والتقصير في طلب اللباب الذي هو العلم الأزهري الخالص.

كنت طالبًا للقشور عند الأزهريين، وأنا متعلق من الثقافات الأجنبية بالقشور عند المتأصلين في هذه الثقافات، فأنا صاحب القشور شابًّا وصاحب القشور شيخًا، قد كُتب عليَّ ألا أعرف من كل شيء إلا قشوره. ورحم الله لبيدًا فقد أحسن لي ولأمثالي النصيحة حين قال:

فاقنعْ بما قَسَمَ المليكُ فإنَّما   قَسَمَ الخلائقَ بيننا علَّامُهَا

وأذكر أني حين كنت أستاذًا في الجامعة كنت أصدر بعض الكتب كما يصدر الأساتذة الجامعيون بعض الكتب، فكان الناقدون لهذه الكتب يقولون: ما لهذا الرجل وللبحث العلمي والأدبي مع أنه ليس منهما في شيء؟ هلا أنفق جهده في هذا الأدب الخالص الذي يحسنه، وفي هذه الفصول الأدبية التي يتقنها وتنشرها له الصحف راضية ويقرؤها القراء مشغوفين بها؟ فإذا أصدرتُ كتابًا من كتب الأدب الخالص قال الأدباء الخالصون المخلَصون: ما لهذا الرجل وللأدب يخوض فيه وليس منه في شيء، وإنما هو صاحب بحث أدبي وعلمي فما له لا يقصر جهده على ما يحسن؟ وما له لا يعيش جامعيًّا كما أراد الله له أن يعيش؟ وما له يقحم نفسه فيما لا علم له به ولا غناء له فيه؟ أنكرني الجامعيون إذن في بعض الوقت وأنكرني غير الجامعيين من الأدباء في بعض الوقت أيضًا.

وكذلك كنت دائمًا ضائعًا؛ يأبى الأزهر أن أكون أزهريًّا، ويأبى غير الأزهريين إلا أن أكون أزهريًّا، وتأبى الجامعة أن أكون جامعيًّا، ويأبى غير الجامعيين من الأدباء أن أكون إلا جامعيًّا. ويصدق فيَّ قول جرير في هجاء بعض معاصريه:

ويسقطُ بينها المرئيُّ لغوًا   كما ألقيتَ في الدية الحوارا

والغريب أني لم أحاول أن أفرض نفسي على الأزهريين، ولا على غير الأزهريين، كما لم أحاول أن أفرض نفسي على الجامعيين، ولا على غير الجامعيين، وإنما حملني الله — عز وجل — عبئًا من أعباء الحياة فحاولت أن أنهض به كما استطعت، فأرضيت قليلًا من الناس ثم لم ألبث أن أسخطتهم وأسخطت كثيرًا من الناس ثم لم ألبث أن أرضيتهم، ثم اضطربت الأمور أي اضطراب واختلطت أي اختلاط وإذا أنا الآن لا أفرق بين الراضين عني والساخطين عليَّ؛ لأني لا أميز أولئك من هؤلاء. وأغرب من هذا كله أني لم أرض عن

نفسي قط ولم أعرفها في يوم من الأيام، وإنما سخطت عليها دائمًا وأنكرتها دائمًا. وأشد من هذا كله غرابة، أني لا أستطيع أن أحمل نفسي على الصمت الذي يريحني ويريح مني. لا أستطيع أن أحمل نفسي على الصمت؛ لأنها تأبى إلا الكلام حين يوجد موضع للكلام، ولأني إن أكرهتها على ما لا تحب واضطررتها اضطرارًا إلى الصمت وحملتها على الإغراق فيه؛ جاءني الراضون عني والساخطون عليَّ فاستكرهوني على القول وأخرجوني من العزلة وخلطوني بأنفسهم وأشركوني في خصوماتهم ومشكلاتهم التي لا تنقضي.

ليسخط عليَّ من الأدباء الشباب والشيوخ من شاء إذن، فلن يكون سخطهم عليَّ مهما اشتد أعظم من سخطي على نفسي، وليرضَ عني من شاء من أدباء الشباب والشيوخ، فلن يستطيع رضاهم عني مهما يعظم أن يرضيني عن نفسي. ولكنْ هناك شيء لا أفهمه على كثرة ما حاولت أن أفهمه.

فقد وصلت إليَّ أصداء تنبئني بأن بعض أدبائنا لا يرون أني لا أحسن كتابة القصة فحسب، بل يرون أني عقبة في سبيل إتقان القصة. أعترف بأني لا أفهم هذه العقبة ولا أعرف من أين تأتي ولا أعرف كيف تكون، فالأصل أن الذين لا يحسنون فنًّا من الفنون لا يكونون عقبة في سبيل إحسان هذا الفن، وإنما يمر المجودون للفن بهم كرامًا لا يأبهون لهم ولا يقفون عند فنهم ذاك الرديء. وأشهد أن كتَّابًا مجودين للقصة في مصر قد كتبوا فأحسنوا الكتابة وقصوا فأجادوا القصص، لم أحُلْ بينهم وبين الإحسان والإجادة. فقد أحسن الأستاذ تيمور وجوَّد، وما أراه شعر قط أني كنت عقبة في سبيل إحسانه وتجويده. وأحسن غيره من قُصَّاص الشباب وجوَّدوا ولم يروني عقبة في سبيل إحسانهم وتجويدهم.

وما أريد مع ذلك أن أكون عقبة في سبيل أحد، ولكني أحب أن يعلمني هؤلاء الأدباء كيف أزيل هذه العقبة من سبيلهم، وكيف ألغيها من طريقهم إلغاءً. أيكون هذا بالإعراض عن الكتابة وبالتزام الصمت، ومن الذي يملك أن يُكرِه إنسانًا على الصمت أو يحرِّج عليه في الكتابة؟

وقد أنبأت هؤلاء الأدباء بأني حاولت ذلك فلم تجبني نفسي ولم يجبني الناس إليه. أيكون ذلك باستصدار قانون يُكرِهني على الصمت إكراهًا ويحظر عليَّ الكتابة حظرًا؟ وكيف السبيل إلى استصدار هذا القانون والأصل أن القوانين لا تشرع لأفراد بأعينهم، وإنما تشرع للكافة؟ وما أعرف أن حكومة في مصر أو غير مصر تستجيب لمثل هذا السخف فتشرع قانونًا أو تصدر أمرًا يفرض الصمت على رجل بعينه من الناس. أيكون

هذا باستصدار قانون يُحِيل الكتَّاب على المعاش إذا بلغوا سنًّا بعينها ولتكن سن الستين مثلًا؟ ولكن ما ذنب كتَّاب آخرين ليسوا عقبة في سبيل القصة وليسوا عقبة في سبيل شيء ولا في سبيل إنسان؟

ما ذنب هؤلاء الكتَّاب وما ذنب قرَّائهم الذين يؤثرونهم بالحب، ويقرءُون لهم مشغوفين به حراصًا عليه؟ أم يكون هذا بأن يُمنع القرَّاء من قراءة ما أكتب لتخلو لهؤلاء الأدباء وجوه القراء؟ ولكن كيف السبيل إلى منع القراء من أن يقرءُوا؟ أيكون هذا بقانون؟ فقد عدنا إلى الشطط الذي أشرت إليه آنفًا. أم يكون هذا بتكوين عصابات تطوف على الناس وتتقصى أمورهم وتعاقبهم إن قرأوا مما أكتب قليلًا أو كثيرًا؟ ولكن كيف يستقيم تكوين هذه العصابات وتعقبها للقراء في بلد متحضر يقوم أمره على حماية الأمن والنظام وكفالة الحرية للناس يكتب منهم من يشاء أن يكتب، ويقرأ منهم من يشاء أن يقرأ، ليس عليهم حرج فيما يكتبون أو يقرءُون ما داموا لا يخرجون على القوانين.

الحق أني لا أعرف كيف ألغي هذه العقبة من طريق شبابنا هؤلاء الأدباء. فليدلوني إذن على الوسيلة التي تتيح لي أن أرضيهم إن كان إلى إرضائهم سبيل.

وأنا بعد ذلك أنصح لهم مخلصًا بأن يكونوا رجالًا وبأن يكونوا أولي حزم وعزم ومضاء، وبأن يقهروا ما يقوم في سبيلهم من المصاعب والعقاب دون أن يحتاجوا إلى أن يقهرها لهم الناس. فقد كنا شبابًا قبل أن يولدوا، وكانت العقاب في سبيلنا كثيرة منبثة فذللناها لأنفسنا بأنفسنا، لم يمهد لنا أحد، ولم ييسر لنا أحد طريقنا، ولم ييسر لنا أحد عسيرًا، ولم يسعَ إلينا القراء وإنما سعينا نحن إليهم، ولم تسقط علينا هذه الأصوات البعيدة التي يتحرقون شوقًا إليها، وإنما احتملنا ألوانًا من الجهد وأخذنا أنفسنا بضروب من العنف، وجاهدنا واجتهدنا وصبرنا وصابرنا واحتملنا فنونًا من الأذى وبلونا ألوانًا من المرارة حتى أتيح لنا ما يحسدوننا عليه الآن، وأمرهم في ذلك ليس غريبًا وإن كان فيه كثير من القسوة الممضة والجحود البغيض. فما أكثر ما يتعجل الأبناء رحيل الآباء، وما أكثر ما يتبرم الشباب بحياة الشيوخ، وما أكثر ما تستطيل الأجيال الناشئة أعمار الأجيال التي سبقتها إلى الحياة! والبر كل البر في غير ما تمتلئ به قلوب هؤلاء الشباب.

فليصبروا وإن كان الصبر شاقًّا، وليكظموا ذات نفوسهم وإن كان كظم ذات النفوس عسيرًا، ولينتظروا بشيوخهم حتى يفارقوهم في سعة ودعة وليذكروا قول الشاعر العربي القديم:

ليس على طولِ الحياة نَدَم   ومن وراء المرء ما يعلم
يموت والدٌ ويخلُف مو   لودٌ وكل ذي أبٍ ييتم

وصدى آخر وصل إليَّ في هذه العزلة النائية فأنبأني بخصومة أثارها الأستاذ سلامة موسى بين كبار الأدباء. ولست أدري لماذا أقحمني الأستاذ سامي داود في هذه الخصومة، مع أني لم أعلم بها إلا من مقاله هذا الأخير، ولم أشارك فيها بالطبع من قريب ولا من بعيد؟ ولست أكتب عنها الآن لأشارك فيها؛ فموضوع الخصومة في نفسه أهون شأنًا وأقل خطرًا من هذا العناء. ومصدر هذه الخصومة فيما يظهر هو أن الأستاذ سلامة موسى يرى أن القصة المصرية تافهة وأن كتَّابها تافهون وأنه لا يصبر على قراءة إنتاجهم.

ومن الحق المطلق للأستاذ سلامة موسى أن يرى في القصة المصرية وكتَّابها ما يشاء، ومن الحق الذي لا ينازعه فيه أحد أن يصبر على قراءة قصصهم، أو لا يصبر. ومن حق غيره بالطبع أن يرى في القصة المصرية وكتابها رأيًا آخر يخالف رأي الأستاذ سلامة موسى إلى أبعد آماد الخلاف. وأنا من هؤلاء الذين يرون في القصة المصرية غير ما يرى الأستاذ الكبير سلامة موسى؛ لأني أقرأ كثيرًا مما ينتجه قُصَّاصنا ولا أصبر على قراءته فحسب، بل أحرص على هذه القراءة أشد الحرص، وأجد فيها المتاع كل المتاع، وقد أعلنت ذلك في غير موضع. وأنا أرى من السرف كل السرف أن يُقضى في كلمتين أو كلمات على هذا الفن الرائع الذي استحدثه المصريون في أدبنا المعاصر، والذي من حق مصر أن تفاخر بأن أبناءها كانوا من السابقين إليه، ومن المبرزين فيه. وليس على القصاص المصريين بأس أن يغض منهم الأستاذ سلامة موسى ما دام قراؤهم يرضون عنهم، وما دامت آثارهم قد جاوزت حدود وطنهم المصري، وما دام بعض هذه الآثار قد جاوز حدود العالم العربي نفسه إلى العالم الغربي فترجم إلى لغات أوروبية مختلفة.

والذي أعلمه أن آثار تيمور وتوفيق الحكيم ليست غريبة بالقياس إلى الفرنسيين والإنجليز، والذي أعلمه أيضًا أني قرأت في هذه الرحلة الأخيرة مقالًا طويلًا قيمًا بالفرنسية لأحد الأدباء الدومنيكيين عن قصة للأستاذ يوسف السباعي هي قصة «السقا مات». وإن هذا الراهب الدومنيكي قد حدثني عن هذه القصة حديث المعجب بها، وسألني عن

قصص أخرى مصرية ليقرأها ويكتب عنها فدللته على بعض ما أحب من القصص، وفي مقدمته قصص الأستاذ نجيب محفوظ. لا بأس على قُصاصنا إذن أن يسخط عليهم الأستاذ سلامة موسى ما دام غيره لا يرى فيهم هذا الرأي، وإنما يقدرهم ويكبرهم ويقرأ لهم ويستزيدهم من الإنتاج، ولكن الأستاذ سلامة موسى فيما يظهر لم يقف عند ازدراء القصة المصرية وحدها، وإنما ازدرى الأدب المصري المعاصر كله إلا أدبه هو بالطبع.

ثم لم يقف عند الازدراء بل قضى على هذا الأدب بأنه غير صالح للبقاء، وبأن شيئًا منه لن يقرأ بعد عشرة أعوام. ومن حق الأستاذ سلامة موسى كذلك أن يزدري الأدب المصري المعاصر وأن يحكم عليه في عنف أو رفق وفي قسوة أو لين.

وليس على الأدب المعاصر بأس من حكم الأستاذ عليه وازدرائه له، ما دام غير الأستاذ من الناس يستطيع أن يكبر ما ازدرى، وأن يعرف ما أنكر، وأن يحب ما كره. ولكن الشيء الغريب حقًّا هو سبق التاريخ والحكم عليه قبل أن يكون، فمن يدري أيبقى الأدب المصري المعاصر حتى يقرأه الأبناء والأحفاد، أم يلقى عليه الستار قبل أن ينقضي العصر الذي أنشئ فيه؟ أما أنا فأعترف مخلصًا أني عاجز كل العجز عن أن أحكم بأن كتابًا من الكتب صالح للبقاء، قادر أو غير قادر على أن يعيش حتى يقرأه الأبناء والأحفاد؛ ذلك لأني لا أعرف من مزاج هؤلاء الأبناء والأحفاد شيئًا يمكِّنني من أن ألائم بينه وبين ما يكتب الأدباء المعاصرون. والله لا يكلف الأديب المعاصر أن يكتب للذين يعاصرونه من الناس ثم للأجيال التي تأتي بعدهم على مر التاريخ، وإنما تلك هبة يتيحها الله لبعض الأدباء النابهين المتفوقين ويصرفها عن بعضهم الآخر.

ولست أدري أكان شكسبير مؤمنًا بأن آثاره سيتاح لها من البقاء والانتشار ما يجعلها آثارًا إنسانية خالدة، أم كان يرضى من آثاره هذه بأن تعجب النظارة حين تُعرَض عليهم ولا يعنيه بعد ذلك أتبقى بعده أم تمضي بعده؟

وقل مثل ذلك بالقياس إلى أكثر الأدباء الذين أنتجوا آثارهم في الأزمنة والأمكنة المختلفة. فكروا في فنهم وفي معاصريهم، ولم يفكروا في شيء مما وراء ذلك. وأتيح البقاء لآثار بعض الأدباء، لا لأنهم أرادوا هذا أو قصدوا إليه أو اهتموا له، بل لأنهم وفقوا إلى إنتاج أشياء كان من حظها ألا تموت معهم. وقليل من الأدباء فكروا في الأجيال المقبلة، دفعهم إلى ذلك الغرور أو دفعهم إلى ذلك الإخلاص في حب الناس وفي حب الفن أيضًا، واستجاب الزمان لبعضهم فأبقى آثارهم، وأعرض عن بعضهم الآخر فطوى آثارهم حين طواهم وبعد أن طواهم بقليل. وما أكثر الأدباء الذين بهروا معاصريهم وملكوا عليهم

أمرهم كله واستأثروا بقلوبهم وألبابهم وأذواقهم حتى صنعوا صنيع الأستاذ سلامة موسى فسبقوا التاريخ وقضوا لهؤلاء الأدباء ولآثارهم بالخلود، ثم مضوا ومضى معهم هؤلاء الأدباء ومضت معهم هذه الآثار، فلم يبق منها شيء. والآثار الباقية قليلة جدًّا بالقياس للآثار الخالية التي التهمها الزمان، وما أكثر ما يلتهم الزمان من الناس وآثار الناس!

ومن الأدباء من لم يحفل بهم معاصروهم ولم يلتفتوا إلى آثارهم؛ لأنهم لم يذوقوها أو لم يفهموها، فصنعوا صنيع الأستاذ سلامة موسى وسبقوا التاريخ وقضوا على آثار هؤلاء الأدباء بالموت في حياة أصحابها، ثم انقضت أجيال وأجيال وإذا هذه الآثار تظفر بحياة لم يكن أحد يقدِّر أنها ستظفر بها، وإذا الناس يقدرونها ويكبرونها ويتنافسون فيها ويهدون إلى أصحابها من الثناء والإعجاب بعد موتهم بالزمن الطويل أو القصير ما كانوا في حاجة إلى أيسره أثناء حياتهم ليشعروا بشيء من الرضى وليستمتعوا بشيء من راحة النفوس والضمائر.

كان الأستاذ سلامة موسى عابثًا إذن حين قضى بغير علم، وحين حكم فيما لا يملك الحكم فيه. وكان الذين خاصموه من الأدباء المعاصرين عابثين أيضًا؛ لأنهم قضوا بغير علم وحكموا فيما ليس لهم أن يحكموا فيه. وصنع الله للإنسان، فإن الغرور يجشمه أهوالًا عظامًا. ما الذي يعني الأديب من أن يبقى أدبه بعده أو أن يموت بموته؟ لقد كنت أفهم حرص الأديب على بقاء آثاره لو وثق بأنه سيحس الرضى والغبطة حين تستبق الأجيال بعد موته إلى آثاره قراءةً وشرحًا ونقدًا وتحليلًا وتأويلًا وتعليلًا.

ولكن من الذي يستطيع أن ينبئ بأن هوميروس يحس شيئًا من النعيم والرضى عن نفسه وعن فنه حين يرى تهافت الأجيال على آثاره، وحين يرى أساتذة الجامعات يتحدثون عنها إلى الشباب، ويشقون بدرسها وتأويلها أكثر مما شقي هو بإنتاجها وإذاعتها. ورحم الله أبا الطيب حين قال في آثاره إنه ينام ملء جفونه عنها وعن مشكلاتها والناس يسهرون عليها ويختصمون فيها. أتراه رضي وابتهج بهذه الشروح التي لا تحصى لديوانه، وبذلك العيد الألفي الذي أقامته له البلاد العربية منذ سنين؟ وقل مثل ذلك بالقياس إلى أبي العلاء وإلى كثير غيره من الأدباء الخالدين.

عبث إذن تلك الخصومة بين الأستاذ سلامة موسى والأدباء المعاصرين، ولكن الأدب في حاجة إلى شيء من العبث، وهو كذلك في حاجة إلى شيء من الغرور ليعيش ويزدهر وليملأ الدنيا ويشغل الناس.

ومن أجل هذا ألفت الأستاذ سامي داود إلى شيء من القصد في حكمه على الأدباء المعاصرين شيوخهم وشبابهم، فهم لم يكونوا هدامين حين اختصموا وإنما كانوا بنائين. والخصومة قوام الأدب، الخصومة بين الأجيال القديمة والحديثة، والخصومة بين الأدباء الذين يعيشون في جيل واحد. وأكاد أقول إن الخصومة قوام الحياة. ولأمرٍ ما قال الناس منذ أقدم العصور إن الحياة صراع وإن الحياة جهاد.

وهل يعرف الأستاذ سامي داود عصرًا عاش فيه أدباء دون أن يختصموا ودون أن يعنف بعضهم ببعض أحيانًا ويرفق بعضهم ببعض أحيانًا أخرى؟ وتبقى خصوماتهم بعد ذلك متاعًا للأجيال التي تتعاقب على مر العصور.

وهل المذاهب الأدبية المختلفة والمذاهب الفلسفية المختلفة إلا نتيجة للخصومات بين الأدباء والفلاسفة؟ أحق أن الخصومة بين العقاد والمازني وشوقي لم تكن إلا تجريحًا وهدمًا؟ أم الحق أن هذه الخصومة قد فتحت للمعاصرين من الأدباء المصريين أبوابًا جديدة في الفن وآفاقًا جديدة في النقد، وعلَّمتهم أن الشعر لا ينبغي أن يكون تقليدًا للقدماء ومحاكاة لهم في رصانة اللفظ وجزالة الأسلوب وروعة النظم مهما تكن مكانة هؤلاء الأدباء ومهما يعظم حظهم من التفوق والنبوغ، وإنما ينبغي أن يكون الشعر مقتطعًا من الحياة التي يحياها الناس في العصر الذي يقال فيه، مقتطعًا منها وسابقًا لها أيضًا، وفاتحًا لقرائه وسامعيه آفاقًا جديدة في التصور والحس وفي الشعور والخيال؟ ولو لم يكن للعقاد والمازني من فضل في نقدهما لشوقي خاصة ولمذاهب المقلدين في الشعر عامة إلا أنهما فتحا للمصريين أبوابًا ونوافذ رأوا منها ما كان من الحق عليهم أن يروا، وعرفوا منها ما كان من الحق عليهم أن يعرفوا من المذاهب الحديثة عند الغربيين في الشعر والنقد والأدب بوجه عام، لكان هذا الفضل عظيمًا. فكيف وهما قد نهضا بهذا العبء في وقت كان التعليم فيه ضئيلًا هزيلًا لا يغني عن المعلمين والمتعلمين شيئًا؟ والمصريون بعد ذلك لم يخسروا شيئًا بهذا النقد الذي يسميه الأستاذ سامي داود تجريحًا وهدمًا وأسميه أنا تجديدًا وبناءً.

فالعقاد والمازني لم يهدما شوقي ولم يغضا من قدره، وإنما وضعاه من التاريخ الأدبي حيث يجب أن يكون. والناس ما زالوا يقرءُون شعره ويتناولونه بالدرس والنقد ويرون شوقي أمير الشعر العربي في وقته، وهم مع ذلك يقرءُون نقد العقاد والمازني فيرون فيه مذهبًا أو مذاهب جديدة في الأدب كان لها آثارها الخطيرة فيما أنتج العقاد والمازني وغيرهما من شعراء الشباب وكتَّابهم في ذلك الوقت.

وقد ذكر الأستاذ سامي داود أني بايعت الأستاذ العقاد بإمارة الشعر في وقت من الأوقات وأن هذه البيعة كانت سياسية اقتضتها ظروف خاصة. وأحب أن أؤكد للأستاذ أني لم أبايع العقاد بإمارة الشعر وما كان لي أن أبايعه؛ لأني لم أكن شاعرًا، وإنما قلت مخلصًا غير مُحابٍ ولا متأثر بالسياسة ولا مستعد للرجوع فيما قلت.

قلت إن الشعراء يستطيعون أن يدفعوا لواء الشعر إلى العقاد بعد أن مات حافظ وشوقي، فهو يستطيع أن يحمل هذا اللواء مرفوعًا منشورًا وأن يحتفظ لمصر بمكانتها في الشعر الحديث.

ولم أغير ولن أغير مما قلت شيئًا إلا أن يظهر شاعر جديد يتفوق على العقاد. فللعقاد شعر رائع بارع رصين متين لا يخدع ببهرج اللفظ، ولا يسحر بروعة الأسلوب، وإنما يعجب باللفظ والأسلوب والمعنى جميعًا.

وللعقاد شعر أقل ما يوصف به أنه يدل على شيء، ويدل على شيء من حقه أن يحبب الشعر إلى الناس. وقد خاصمت العقاد في غير موطن من مواطن الخصومة؛ خاصمته في السياسة وخاصمته في الأدب، وخاصمته في غير السياسة والأدب أيضًا. ولكن هذه الخصومة لم تغضَّ من قدر العقاد في نفسي، وما أظن أن بين لدات العقاد وأترابه ومعاصريه من يقدره ويكبره مثل ما أقدره أنا وأكبره.

وليس يعنيني أن يكون رأي العقاد فيَّ كرأيي فيه، وإنما الذي يعنيني أن أقول الحق وإن كرهه الكارهون وإن كرهه العقاد نفسه.

والذين عاصروا خصوماتي للعقاد يذكرون من غير شك أني أثنيت على أدبه في جريدة السياسة حين كانت الخصومة بين الوفديين والدستوريين كأعنف ما تكون الخصومات. لم يمنعني ذلك من أن أسجل أنه كاتب عظيم وشاعر ممتاز.

وقد كانت الحرب سجالًا بينه وبيني فلم يمنعه ذلك من أن يقوم مقام الرجل الكريم في مجلس النواب، فيدافع عني حين كان الوفديون جميعًا عليَّ حربًا.

وقد خاصمت الرافعي — رحمه الله — كما خاصمه العقاد، وخاصمت المازني وهيكلًا وغير المازني وهيكل كما خاصموني، ولكن ذلك لم يمنعنا في يوم من الأيام من أن نكون صديقًا يعرف بعضنا لبعض حقه، ويضمر بعضنا لبعض ما يضمر الصديق للصديق من الوفاء.

وما أعرف أن الخصومة بين العقاد وبيني قد انقضت، فما دام كلانا يكتب فالخصومة بيننا ممكنة، ولكنَّا قوم نعرف كيف نختصم دون أن تفسد الخصومة رأي أحد منا في صاحبه.

وقد خاصمت توفيق الحكيم أو خاصمني توفيق الحكيم. وسله إن شئت عما تركت هذه الخصومة في نفسه ولا تسلني أنا عما تركت هذه الخصومة في نفسي، فكل الناس يعرف أن الخصومة بين الناس وبيني مهما تشتد فهي أهون شأنًا وأقل خطرًا من أن تترك في نفسي أثرًا.

وقد تعلم الأستاذ سامي داود في الجامعة فيما تعلم أن جريرًا والفرزدق والأخطل قد أنفقوا أعمارهم يهجو بعضهم بعضًا فلم يهدم أحد منهم أحدًا، ولم يخرج أحد منهم أحدًا من زمرة الأدباء. وآية ذلك أننا ما نزال نكتب ويقرأ الناس. وآية ذلك أن الأستاذ سامي داود ما زال يسمينا أدباء كبارًا سواء أكان يريدنا كبارًا في السن أو كبارًا في المقام.

ما زال يرانا أدباء وما زال ينتظر آراءنا في كثير من المشكلات الأدبية التي تعرض بين الشيوخ والشباب. ولعل الأستاذ سامي داود يعرف الآن طرفًا من رأيي في كتاب الشباب وفي قُصَّاصهم خاصة. وأنا أريد أن يطمئن وأن يرضى فأنا أكثر الناس قراءة لأدب الشباب، أقرؤه مطبوعًا وأقرؤه مخطوطًا، وأشجع أصحابه على الإنتاج سرًّا وإعلانًا وألقى في ذلك قليلًا من الوفاء وكثيرًا من الجحود، فأشكر للأوفياء وفاءهم وأعفو للجاحدين عن جحودهم؛ لأني حين أكتب لا أنتظر من الذين أكتب عنهم جزاءً أو شكورًا، ولا أرهب منهم غضبًا أو نفورًا، وإنما أكتب لأن كلمة الحق يجب أن تقال.

أما بعد فإني قد أسرفت في هذا الحديث ومن حقه أن يقف عند هذا الحد، ولكني أهدي إلى الأستاذ سامي داود تحية صادقة وأتمنى عليه أن يكون مثلي حريصًا على أن تشتد الخصومة بين الأدباء شيوخهم وشبابهم. فالأدب جذوة يذكيها الوقود وتوشك أن تخمد إذا لم تجد هذا الوقود.

فلتذكُ جذوة الأدب إذن وليسطع لهبها، ولا بأس بأن نكون نحن الأدباء وقودًا لهذه النار.

أدب الثورة وثورة الأدب

لم تكد ثورتنا تنشب وتملأ أحداثها وظواهرها قلوب الناس وعقولهم في مصر وفيما حولها من البلاد العربية، حتى أخذ فريق من الكتاب يتساءلون في إلحاح: «أين أدب الثورة؟»

ثم لم تكد الثورة تبلغ من عمرها أشهرًا قصارًا، حتى أخذ هؤلاء الكتَّاب يُظهرون اليأس وخيبة الأمل؛ لأن أدب الثورة لم يستجب لهم حين دعوه، ولم يهبط عليهم من السماء كما يهبط الغيث، ولم تتفجر عنه ينابيع الأرض كما تتفجر عن الماء والبترول.

ثم لم يلبثوا أن قرروا فيما بينهم وبين أنفسهم، ثم فيما بينهم وبين قرائهم، أن الأدب المصري قد أخفق لأنه لم يردد أصداء الثورة ولم يصور حقائقها، ولم يلائم ما تتصل به نفوس الناس وقلوبهم من هذه العواطف والخواطر التي أثارتها الأحداث، ولا سيما بعد أن أُخرج فاروق من مصر، وبعد أن أزيلت أسرته كلها وصار الأمر كله إلى المصريين يدبرونه بأنفسهم، لا يتنزل عليهم وحي من العرش ولا من سلطان المحتلين.

وما أكثر ما كانوا يقولون، وما أكثر ما يقولون الآن أيضًا، إن الأدب المصري يعيش في وادٍ على حين يعيش المصريون في وادٍ آخر.

وكذلك تقرر في نفوس كثير من الناس أن أدبنا المعاصر مقصر أشد التقصير، مخفق أعظم الإخفاق؛ لأنه لم يحس بما تجيش به الصدور، ولم يصبح مرآة للحياة التي يحياها الناس. ونشأ عن هذا الحكم الخاطف أن فريقًا من الناس استيأس من الأدب المعاصر وكاد يستيئس من الأدب كله، وأعرض عن قراءة الأدب وانصرف إلى قراءة الصحف يجد فيها ما يعينه على قطع الوقت وتجديد النشاط، ويجد فيها كذلك أصداء ما يملأ حياة الناس من الأحداث.

وأقبل فريق من الكتَّاب على إنشاء أدب يلائم ما يطلبه هؤلاء السادة من تصوير الثورة وحقائقها، وابتهاج الناس بما ظهر من نتائجها، وترقُّب الناس لما لم يظهر بعد من هذه النتائج؛ فأخرجوا لنا أدبًا يحسبونه أدب ثورة وليس هو من أدب الثورة في شيء، وإنما هو كغيره من الأدب الذي أنشئ قبل أن تنشب الثورة بالأوقات الطوال والقصار. ومصدر هذا الحكم بإخفاق الأدب وخيبة الأمل فيه إنما هو هذا الخطف الذي نبهت إليه غير مرة في هذه الأحاديث، والذي يأتي من القصور عن تعمق الأشياء وفهم الحياة الاجتماعية على وجهها ووضع الأشياء في مواضعها.

فليس من فقه الحياة في شيء أن ينجم الأدب فجأة من الأرض أو ينصبَّ فجأة من السماء؛ لأن الثورة شبت في الثالث والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٢، وإنما نشوء الأدب وتطوره من هذه الظواهر البطيئة التي لا تستجيب للناس حين يتعجلونها ولا تستأخر عن إبَّانها، وإن تمنى الناس عليها الأناة والإبطاء.

وأكاد أعتقد أن القدماء من مؤرخي أدبنا العربي كانوا أفقه بالحياة وأحسن لها فهمًا وتقديرًا من هؤلاء المعاصرين الذي يخطفون أحكامهم خطفًا ويظنون أن ظواهر الحياة خاضعة لسلطانهم: يدعونها فتستجيب، ويهملونها فتنتظر، ويرجئونها فترجئ نفسها.

فنحن نقرأ في بعض الكتب العربية التي حاول أصحابها منذ أكثر من ألف عام أن يؤرخوا الأدب العربي القديم أشياء لا يكاد المعاصرون يسيغونها أو يطمئنون إليها؛ لأنها تجانب ما أَلِفوا من السرعة وتخالف ما استحبوا من هذا الاستعجال البغيض.

تقرأ مثلًا عند بعضهم أن ظهور الإسلام قد اضطر الشعر العربي إلى الضعف والتهافت؛ لأن العرب بهرهم القرآن وشغلتهم أحداث النظم الجديدة وما استتبعت من الفتوح، عن الفراغ لقول الشعر وتجويده والتأنق فيه كما كان الجاهليون يصنعون. والقدماء يستنبطون هذا من إعراض لبيد عن قول الشعر بعد أن أسلم ومن اشتغاله بقراءة القرآن وحفظه، ويستنبطونه كذلك مما عرض لشعر حسان من الضعف في أكثر شعره الإسلامي، بعدما كان شعره الجاهلي يمتاز بالرصانة والقوة والفحولة. كما يستنبطونه من أن بعض شعراء النبي ﷺ كانوا يكثرون في هجاء قريش فلا يبلغون منها شيئًا؛ لأنهم كانوا يعيبونها بالكفر والشرك وينذرونها بعذاب الله في الحياة الآخرة، ولم تكن قريش تحفل بشيء من هذا حين كانت تعارض الإسلام وتنصب له الحرب.

ومع أن رأي القدماء هذا لم يكن دقيقًا كل الدقة ولا صادقًا كل الصدق؛ لأنه لم يقم على الاستقراء الصحيح، فإنه كان يصور حقيقة واقعة، وهي أن الشعراء الذين أرادوا أن يجددوا أنفسهم بعد أن أسلموا، وأن يلائموا بين فنهم وبين دينهم الجديد لم يوفقوا في أكثر الأحيان إلى ما كانوا يريدون؛ لأن الطبع لا يستكره على ما لا يحب في كثير من الأشياء، وفي شئون الأدب والفن بنوع خاص. ولم يخطئ ابن دريد حين قال:

والشيخ إن قوَّمته من زيفه لم يقم التثقيف منه ما انحنى

وهؤلاء الشعراء كانوا قد جاوزوا سن التطور، فلم يكن من اليسير أن يرجعوا أدراجهم ولا أن يبتكروا لأنفسهم طبعًا جديدًا. فكان تجديدهم تكلُّفًا، وكان إعراض لبيد عن الشعر نوعًا من اليأس؛ لأنه عرف أنه لا يستطيع أن ينشئ فنًّا يجمع بين الملاءمة لحياته الجديدة التي أدركها شيخًا وبين الروعة التي أتيحت له فيما أنشأ من الشعر قبل أن يعتنق الإسلام.

وليس أدل على ذلك من أن شعراء آخرين أسلمت ألسنتهم واستجابت ظواهر أمرهم للنظام الجديد وظلت طباعهم جاهلية كما كانت، فقالوا الشعر في الفنون التي ألفوها قبل أن يسلموا، ولم يتعرض شعرهم لضعف أو تهافت أو خمود، وإنما احتفظ بقوته كاملة كدأبها حين كان أصحابها جاهليين.

فالحطيئة مثلًا لم يتغير فنه بعد إسلامه؛ لأنه لم يحاول لفنه تغييرًا، ولأن الإسلام لم يصل إلى أعماق نفسه، فظل مسلمًا في ظاهر أمره وفيما كان يبدو من بعض سيرته الاجتماعية، ولكنه ظل جاهلي القلب والذوق والضمير، يقول الشعر هاجيًا ومادحًا وواصفًا كما تعوَّد أن يقوله في العصر الجاهلي. وأمثال الحطيئة كثيرون نستطيع أن نقرأ شعرهم فيما حُفظ لنا من شعر القدماء، فلا نرى فيه انحرافًا عن السنة الجاهلية ولا تأثرًا عميقًا بالثورة الإسلامية الخطيرة التي قلبت حياة العرب رأسًا على عقب، وغيرت أمورهم كلها تغييرًا لم يكن لهم ببال.

ومن أجل هذا صنع بعض الذين أرَّخوا الشعر العربي القديم صنيعًا أقل ما يوصف به أنه ملائم للدقة والصدق وصواب الحكم أشد الملاءمة وأقواها، فلم يطلقوا وصف الشعراء الإسلاميين إلا على فريق بعينه يتألف من أولئك الذين لم يدركوا الإسلام شبابًا ولا شيوخًا، وإنما ولدوا في الإسلام ولم يعرفوا العصر الجاهلي إلا كما يعرف التاريخ.

فالشعراء الفحول كالأخطل والفرزدق وجرير إسلاميون؛ لأنهم ولدوا بعد أن أسلمت الجزيرة العربية، وبعد أن فاض الإسلام منها على ما حولها من الأقطار. وعمر بن أبي ربيعة شاعر إسلامي؛ لأنه ولد — فيما يقول الرواة — في اليوم الذي مات فيه عمر بن الخطاب رحمه الله. وقل مثل ذلك بالقياس إلى عامة الشعراء الذين ولدوا أيام الخلفاء وشبوا وأدركتهم الشيخوخة أيام بني أمية.

هؤلاء شعراء إسلاميون لم يدركوا الجاهلية، ولم تدركهم الجاهلية، وإنما رويت لهم أحداثها كما سترِوى أحداث العصر الذي نعيش فيه للذين أخذوا يولدون منذ شبت الثورة، فهم قد نشأوا نشأة إسلامية، رأوا آباءهم يخضعون للنظام الجديد يؤدون الواجبات الدينية والواجبات السياسية الجديدة، ويقرءُون القرآن ويروون الحديث، ويتحدثون عن النبي وأصحابه وخلفائه، ويختلفون إلى المساجد مصبحين وممسين وبين الصباح والمساء.

وهؤلاء المؤرخون عندما عرضوا للشعراء الذين أدركوا الإسلام أو أدركهم الإسلام وهم شباب أو شيوخ لم يسموهم شعراء إسلاميين، إنما عدَّهم بعضهم في صراحة شعراء جاهليين؛ لأنهم تأثروا بالحياة الجاهلية التي أنضجت قرائحهم وكوَّنت أذواقهم فلم يستطيعوا لطبائعهم تغييرًا.

وبعض هؤلاء كره أن يسميهم جاهليين؛ لأنهم أسلموا وكثير منهم كان عميق الإسلام حسن البلاء في ذات الله فسموهم مخضرمين: أي مختلطين، عاشوا بعض أعمارهم جاهليين وبعضها الآخر مسلمين.

ومعنى هذا كله أن القدماء من مؤرخي الأدب العربي فهموا حقيقة الصلة بين الثورة والأدب خيرًا مما يفهمها كثير من كتابنا المعاصرين.

عرفوا أن الثورة مهما تكن خطيرة ومهما تكن بالغة عميقة الأثر في حياة الأفراد والجماعات، لا تغيِّر الأدب فجأة، ولا تحوِّل طبيعة الفن إلا تحويلًا يسيرًا أقرب إلى التكلف منه إلى الفطرة التي تستجيب لما حولها من حقائق الحياة في غير جهد ولا عناء.

وهناك وجوه أخرى للصلة بين الأدب والثورة لا يحققها كُتَّابنا المتعجلون، فالأدب يمهد للثورة وينشئها؛ لأنه يثير نفوس الناس ويبغِّض إليهم بعض أطوار الحياة التي يحبونها، ويعرض عليهم مثلًا جديدة يحببها إليهم ويزينها في قلوبهم ويطبعها في نفوس الناشئين والشباب الذين لم تتقدم بهم السن بعد.

وهو بهذا يفتح للثورة أبواب النفوس والضمائر ويمهد لها الطريق في حياة الأفراد والجماعات، يتاح له النُّجْح أحيانًا ويدركه الإخفاق أحيانًا أخرى. فإذا أتيح له النجح لم

تتغير طبيعته فجاءة، وإنما ظل كعهده مضطربًا بين القديم الذي هدمه وبين الجديد الذي أنشأه، حتى إذا استقرت أمور الثورة وأصبحت طبيعة للأجيال الجديدة الناهضة كما يقال في هذه الأيام، نشأ الأدب الذي يمكن أن يضاف إلى الثورة حقًّا وصدقًا.

ويكفي أن تفكر في حياة الفرنسيين أثناء القرن الثامن عشر، فسترى طائفة من الأدباء والفلاسفة والمفكرين أنكروا حياة العصر الذي كانوا يعيشون فيه، وحملوا الناس من حولهم على إنكارها وطبعوا هذا الإنكار في نفوس الناشئين والشباب الذين لم يتم نضجهم بعد؛ فأنشأوا جيلًا جديدًا هو الذي ألهب نار الثورة وملأ بها الدنيا وشغل بها الناس، وغيَّر بها حياة فرنسا وأوروبا وأجزاء أخرى كثيرة من العالم.

ولكن هؤلاء الأدباء والفلاسفة والمفكرين لم يدركوا الثورة التي أنشئُوها، وإنما أطفأ الموت جذوة نفوسهم قبل أن يشعلوا هم جذوة الثورة فماتوا قبل الثورة بوقت قصير أو طويل.

والذين ثاروا بالفعل وملئُوا الدنيا هولًا وإصلاحًا في وقت واحد، لم ينشئوا أدبًا ذا خطر. شغلوا بالعمل عن الفن وشغلوا بصنع التاريخ عن كتابته، وابتكروا للأدباء الذين جاءوا بعدهم موضوعات أنشئُوا فيها أدبًا حيًّا رائعًا أتيح البقاء لكثير منه وذهب بعضه مع ما يذهب من آثار الناس.

وابحث إن شئت عن الأديب الفرنسي الذي عاصر الثورة وأنشأ في أثنائها أدبًا جديرًا بالبقاء، فلن تجد هذا الأديب مهما تُطِل في البحث والتنقيب، بل تستطيع أن تقرأ ما تركه رجال الثورة أنفسهم من الخُطب والأحاديث التي ألهبت نفوس المعاصرين ودفعتهم إلى النهوض بالأعباء الثقال وتحقيق الأمور العظام، فلن تجد في هذه الخطب ما يلائم ذوقك الفني، بل لن تجد فيها ما يرضي عقلك المستأني وحكمك الذي يريد أن يتدبر قبل أن يصدر؛ لأنها كانت خطبًا وأحاديث تلائم الظروف والأوقات التي أغرت بها ودفعت إليها، فلما تغيرت تلك الظروف وانقضت تلك الأوقات، أصبحت تلك الخطب والأحاديث تاريخًا من التاريخ، لا تصلح إلا لقراءة الباحثين الذين يريدون أن يؤرخوا للأحداث. ولكن انظر بعد ذلك فيما أنشأ الكتَّاب والشعراء الفرنسيون بعد أن استقرت الأمور في وطنهم، وبعد أن تأثرت حياة بلادهم بالثورة وأصبحت الحرية لهم طبعًا والرقي لهم غاية لا يستطيعون عنهما نكولًا، فسترى الأدب الحق والفن الجدير بالبقاء، وسترى أن أدب الثورة إنما يأتي بعد الثورة لا أثناءها.

وما أشك في أن هذا النحو من تصوير الصلة بين الأدب والثورة هو الذي يلائم حقائق الأشياء، ويفسر ما بين الأدب والسياسة من تضامن وتعاون وتفاعل كما يقول

المعاصرون. فالأدب يثور قبل أن تثور السياسة، وثورة الأدب هي التي تمهد الطريق لثورة السياسة؛ لأنها تهيئ قلوب الناس ونفوسهم وعقولهم: تبغِّض إليهم نظامًا قائمًا، وتحبِّب إليهم نظمًا تحقق لهم آمالًا تمتد إليها عقولهم وتقصر عنها أيديهم، وليست الثورة السياسية آخر الأمر إلا استجابة لثورة العقول والقلوب والنفوس التي يحدثها الأدب وتحدثها مع الأدب مؤثرات أخرى، يتصل بعضها بالحياة المادية للناس ويتصل بعضها بالحياة المعنوية. ويأتي بعضها من الصلة بين الأمة وبين أمم أخرى تحيا حياة خيرًا من حياتها، وأدنى إلى العدل والحرية وإنصاف المظلومين من الظالمين والمساواة بين المستأثرين الذين يجدون كل شيء والمحرومين الذين لا يجدون شيئًا.

ولست أعرف ثورة سياسية بالمعنى الحديث أو القديم للفظ الثورة، إلا وقد سبقتها ثورة أدبية عقلية كانت هي التي أغرت الناس بها ودفعتهم إليها وأخرجتهم عن أطوارهم فلم يستطيعوا صبرًا على ما يكرهون ولا إبطاءً عما يريدون.

هناك إذن ثورتان، أولاهما ثورة العقل التي يصورها الأدب، والثانية ثورة السياسة التي تعتمد على القوة فتغير نظامًا، وتقيم مكانه نظامًا آخر. وهناك أدبان: أدب يسبق الثورة ويدفع إليها، وأدب يأتي بعد الثورة فيصورها أولًا ويصور آثارها في حياة الناس، ويحبِّب إليهم هذه الآثار ويدفعهم إلى الأمام في ميدان الرقي والإصلاح والتجديد.

والأدب في أثناء الثورة حين تضطرب نفوس الناس بالأمل والطموح، ونفوس فريق منهم بالخوف والمحافظة، متواضعٌ مقتصد يمشي على استحياء — إن أمكن وصف الأدب بالمشي وبالحياء أيضًا — لأن الناس مشغولون عنه بأحداث الثورة مما يقع وما ينتظر وبما تدفع إليه هذه الأحداث، ولأن الأدب — لا سيما في هذا العصر الحديث — إنما يستمد حوله وطَوله وقوته وروعته من الحرية الكاملة التي لا معقب عليها. وهذه الحرية موقوفة بطبيعة الأشياء أثناء الثورة، سواء أراد الناس ذلك أم لم يريدوه. والأدب يجاهد في سبيل الحرية ويحتمل في هذا الجهاد ألوان المكروه على اختلافها قبل أن تصبح الثورة السياسية أمرًا واقعًا.

وهو بجهاده وبحمله الخطوب يدفع إلى الثورة دفعًا؛ لأنه يقاوم الاستبداد والعسف ويدعو الناس إلى مقاومتهما. وهو في أثناء الثورة لا يستطيع أن يقاوم الثورة؛ لأنه يقاوم نفسه إن قاومها، فالثورة ابنته وثمرته. وهي لا تقف الحرية إلا لتطلقها بعد حين يقصر أو يطول.

فالأدب الذي ينشأ أثناء الثورة إما أن يجري على طبيعته الأولى فيكون اتصالًا للأدب القديم، وإما أن يحاول مجاراة الثورة السياسية فيكون دعوة لها وإغراء بها. وهو في

هذه الحال أدب ضعيف فاتر؛ لأن الأحداث المادية الواقعة أقوى منه وأظهر أثرًا، يراها الناس ويحسون آثارها في نفوسهم وفيما حولهم من الحياة والأحياء.

وهذا هو الذي يعلل ما أصاب شعر حسان من الضعف. كانت الثورة الإسلامية أقوى من شعر الشعراء، وكان كل فن بالقياس إليها أثناء قيامها فاترًا ضئيلًا.

وهو يعلل في الوقت نفسه انصراف بعض الشعراء عن الشعر؛ لأنهم لم يروا لأنفسهم فيه أربًا. وهو يعلل كذلك اتصال الشعر الجاهلي بأساليبه القديمة عند شعراء الأعراب الذين قال الله — عز وجل — فيهم: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

واقرأ إن شئت فيما يتصل بالأدب الفرنسي أثناء الثورة ما كتبه شاتوبريان في مذكراته عن إلمامه بباريس حين كانت النفوس مضطربة ثائرة، فستراه يصف أندية الأدباء في تلك الأوقات بالضعف والفتور وقلة الغناء.

ليس هناك معنى إذن لمطالبة الأدباء المعاصرين بإنشاء أدب الثورة؛ لأن أدب الثورة الحق لم يأت بعد، وسيأتي وقته حين يخرج الشباب الذي تطبع الثورة نفوسهم بطابعها، والذين يتعلمون الآن في المدارس وفي الجامعات إن شئت؛ أي أن هذا الأدب لن تظهر بواكيره إلا بعد أعوام، نرجو ألا تكون مسرفة في الطول. ولست أشك في أن أدب الثورة هذا الذي أتحدث عنه سيكون مغايرًا مغايرة شديدة لأدبنا الذي ننتجه ونعيش عليه الآن، فيستخلص الجيل الناشئ من تعقيدات مختلفة قاومناها نحن ما وجدنا السبيل إلى مقاومتها، ولكننا لم نستطع أن نعفي أنفسنا من آثارها وأعقابها. لن يحتاج الجيل الناشئ إلى ما احتجنا إليه دائمًا من مداورة السلطان والاحتياط من شره والاستخفاء بكثير من آرائنا، نكتمها أحيانًا في نفوسنا فنشقى بكتمانها، ونعرب عنها أحيانًا في كثير من الألغاز واصطناع المجاز والافتتان في التنكر والتستر والاستخفاء. لن يحتاج الجيل الثاني إلى شيء من هذا؛ لأنه لن يجد أمامه النظام الملكي المستأثر بالأمر من دون الشعب. وسيخلص الجيل الناشئ من تعقيد آخر قاومناه ما استطعنا أن نقاومه، ولكنه كان يؤثر في حياتنا العقلية حتى أثناء مقاومتنا له تأثيرًا بعيد المدى، وهو تعقيد الاحتلال الأجنبي الذي كان يتغلغل في أعماق حياتنا المادية والسياسية ويتدخل في كثير من مرافقنا ويؤثر بذلك في مصالح الأفراد والجماعات ويحالف النظام الملكي حينًا فيثقل علينا الهول، ويخالفه حينًا آخر فيأخذنا الشر من جميع أقطارنا ونضطر إلى كثير من المصانعة والموادعة، ونلاين حينًا ونخاشن حينًا آخر، ونشقى بتفرق الأهواء واختلاف

الميول والنزعات من حولنا، ونجد العناء كل العناء في التماس ما نلتمس لأنفسنا من طريق إلى التفكير والتعبير.

لن يشقى الجيل الناشئ بهذا الاحتلال؛ لأنه سيحيا في وطن لا يتسلط الأجنبي عليه من قريب أو بعيد. سينشأ حرًّا في وطن حر بأوسع معاني هذه الكلمة وأعمقها، وسيخلص من عقدة الاستعمار هذه التي شقيت بها الأجيال من قبله دهرًا طويلًا.

وسيخلص الجيل الناشئ من عقدة أخرى غير هاتين العقدتين، وهي عقدة النظام الاقتصادي البغيض الذي شقيت به الأجيال من قبله، والتي قسمت الشعب إلى الأغنياء المترفين الذين ينفقون بغير حساب فيما لا يغني عنهم ولا عن غيرهم شيئًا، والفقراء المعدمين الذي يشقون بغير حساب لأنهم لا يجدون ما يقيم الأود أو يرضي حاجة الإنسان الذي يستطيع أن يكون إنسانًا.

وكلمات المرض والفقر والجهل والأعداء الثلاثة التي كانت الحكومات تتشدق بها فيما مضى، كلمات يسيرة حين تنطق بها الألسنة، ولكنها عسيرة معقدة حين نحاول أن نحقق معانيها في نفوسنا، فهي تصوِّر أشقى ما يمكن أن يفرض على الناس من ضروب الحياة، وهي تمتحن نفوسهم بألوان لا تحصى من التعقيد الذي يميت القلوب ويفل الحد ويلغي النشاط ويبغِّض العيش إلى الناس.

هذا الذي لا يجد ما ينفق وله قلب ذكي وعقل راجح وقدرة على العمل الخصب والنشاط المنتج، ولكنه لا يستطيع أن يعمل ولا أن ينشط؛ لأنه لا يجد إلى العمل ولا إلى النشاط سبيلًا، وكيف السبيل إلى العمل والنشاط إذا لم تجد من الطعام والشراب ما يمسك عليك الحياة؟

وهذا الجاهل الذي لا يفرق بين الخير والشر، ولا يميز بين ما ينفعه وما يضره، وله فضل من قوة وحظ من أيد، ولكنه لا يعرف كيف يوجه قوته ولا فيما ينفق جهده، فهو يتخبط بين الشر اليسير والإثم المفسد لحياته ولحياة من حوله من الناس. وامضِ ما شئت في تصوير ما يثير المرض والفقر والجهل في حياة الناس من شر، وما ينشئ في نفوسهم من عُقد، وما يبث أمامهم من عقاب، وتصور جيلًا يتاح له في يوم من الأيام ما لم يتح للأجيال الماضية من صحة الأجسام وذكاء القلوب ونفاذ البصائر وسعة المعرفة، وانظر ما عسى أن يكون من الفرق بين هذا الجيل السعيد وبين الأجيال التي سبقته من الأشقياء، ثم وازن بين ما يمكن أن ينتجه هذا الجيل السعيد من ألوان النشاط في حياته المادية والعقلية والفنية وبين ما أنتجته أجيال الشقاء من قبله فسترى الفرق عظيمًا خطيرًا بين إنتاج الموفورين وإنتاج المحرومين، وبين إنتاج السعداء وإنتاج الأشقياء.

وإذا بلغت هذه الغاية من الموازنة فقد عرفت أن أدب الثورة الذي يستحق هذه الإضافة ليس هو الأدب الذي أنتجناه أو الذي ننتجه الآن، وإنما هو الأدب الذي سينتجه أبناؤنا وأحفادنا حين يتاح للثورة أن تبلغ غايتها وتحقق أغراضها، وتضع عن المصريين إصر حياتهم تلك التي ضاقت بهم وضاقوا بها، وتتيح لهم حياة أخرى لا يجدون فيها قهرًا ولا عسفًا، ولا يخضعون فيها لبأس أو ظلم، ولا يشقون فيها بفقر أو جهل أو مرض، وثق بأني لا أخدع نفسي عن حقائق الأشياء ولا أخدعك عن هذه الحقائق، فلست أنا من السذاجة بحيث أظن أن الثورة ستتيح للأجيال المقبلة سعادة دائمة ونعيمًا مقيمًا، فالسعادة الدائمة الكاملة لم تتح للناس ولن تتاح لهم في هذه الحياة الدنيا، والنعيم المقيم مدخر للصالحين من الناس في حياتهم الثانية، وليس معجلًا لهم في حياتهم هذه الأولى.

ولكن الشيء الذي أثق به كل الثقة، وأُومِن به أعمق الإيمان هو أن الثورة ستتيح حين تبلغ غاياتها للأجيال المقبلة من قوة النفوس وصلاح الحياة ما يمكِّنها من طلب السعادة والنعيم قادرةً على طلبها، ومن مقاومة البؤس والشقاء قادرةً على مقاومتها.

وليس هذا بالشيء القليل، وما أعظم الفرق بين أدبٍ يُقبِل عليه أصحابه وهم آمنون مطمئنون لا يسعى إليهم الخوف ولا يدبر لهم الكيد، وأدبٍ ينتجه قوم يختلسون الفراغ له اختلاسًا ويسترقون العناية به استراقًا، ويجدون من حولهم ما هو خليق أن يبغض إليهم الأدب ويصرفهم عنه صرفًا، يشقون في أنفسهم ويشقون بشقاء من حولهم من الناس، ولا تتاح لهم الوسائل اليسيرة للإعراب في صراحة وأمن عما يجدون من شقائهم وشقاء الناس!

فانتظر إذن أدب الثورة بمعناه الصحيح من الجيل الناشئ يوم يتاح له الإنتاج، واقرأ أدبنا هذا الثائر إن شئت، وأعرض عنه إن أحببت، فإنا لا نملك أن نعطيك إلا ما في أيدينا، وفي أيدينا أدب ثائر لا أدب ثورة، وما أعظم الفرق بين الأدبين!

الكنوز الضائعة

هي هذه التي تمتلئ بها الأرض على اختلاف أقطارها ومنذ العصور القديمة التي فكر فيها الناس، وعبَّروا عما يفكرون تعبيرًا صالحًا للبقاء بالكلام أو بالتصوير، أو غير الكلام والتصوير من هذه الفنون المختلفة التي يؤدي بها الناس ما يجدون في نفوسهم وعقولهم من ضروب العلم والشعور ومن ألوان العاطفة والطموح إلى الخير والحق والجمال.

هذه كنوز تمتلئ بها الأرض ولا يكاد الإنسان يحصيها، ولكنه إن كان مثقفًا رشيدًا طمحت نفسه دائمًا إلى أن يستقصيها ويجمعها كلها إن أتيح له جمعها ويفرغها في عقله وقلبه. وأخصُّ ما تمتاز به العلوم والفنون أنها بطبعها شركة بين الناس يستطيع كل فرد من الأفراد أن يستمتع بها كلها أو بعضها دون أن يحرم غيره من أن يتيح لنفسه بها الغبطة والسعادة والرضى، كما أتاح لنفسه بها كل هذه الخصال.

فالعلم والفن والمعرفة على اختلاف موضوعاتها كنوز لا يُنقِص منها انتفاع الناس بها وتهالكهم عليها وازدحامهم على الإمعان فيها، وإنما يزيدها ذلك خصبًا إلى خصب وثراءً إلى ثراء. ولو لم يقرأ القدماء ويدرسوا لما أنتج المحدثون شيئًا من علم أو فن، ولو لم يظهر بعض المحدثين على آثار بعض لما ازدهر العلم ولا تألق جمال الفن ولا عَظُم تراث الإنسانية من المعرفة.

فهذه كنوز يزيد فيها الأخذ منها وينقصها الإهمال لها والإعراض عنها، أو قل إنها تحيا بالإقبال عليها وتموت بالزهد فيها. وهذه الكنوز ضائعة بالقياس إلى الذين لا يعرفونها ثم لا يحرصون على اقتنائها والإمعان فيها بالانتفاع والاستمتاع والاستهلاك. ولست أكتب هذا لأجدد العلم به، فالناس يعرفونه منذ أقدم العصور، وإنما أمليه لأصل

منه إلى وصف هذا الشعور الذي أجده قويًّا ملحًّا ممضًّا أحيانًا كلما فرغت من قراءة كتاب رائع أو أخذت في قراءة كتاب شائق، وهو شعور الضيق الذي يبلغ اللوعة والحسرة أحيانًا بأني أقرأ هذا الكتاب دون اطمئنان إلى أن المصريين جميعًا يقرءُونه كما أقرؤه، ويجدون من المتعة به مثل ما أجد أو أكثر مما أجد.

هو هذا الشعور بأن هذا الكتاب أو هذا الفصل كنز من هذه الكنوز التي لا ينعم بها المصريون كلهم كما أنعم بها. ولا أكاد أجد هذا الشعور حتى أحاول أن أتعزى عنه بأن في الأرض كنوزًا أخرى لا تحصى مضيَّعة بالقياس إلى التي لم أعرفها ولا ينتظر أن أعرفها؛ لأن الإنسان الذي يتاح له أن يحيط بكل ما عرف الناس من علم أو فن وبكل ما ورث الناس من العلوم والفنون والآداب لم يوجد بعدُ، وما أرى أنه سيوجد في يوم من الأيام.

وليس المهم أن يقرأ الإنسان كل ما كُتب أو يحيط بكل ما أنتج غيره من الناس، وإنما المهم أن يظفر الإنسان بالوسائل والأدوات التي تتيح له أن يضيف في كل يوم إلى علمه علمًا وإلى ثروته العقلية والشعرية ثروة، فإن أتيح له مع ذلك أن ينتج ما ينفع الناس ويزيد في تراثهم من العلم والفن والمعرفة بوجه عام فهو عندي الإنسان السعيد حقًّا.

وأنا أنظر إلى المصريين من حولي فأرى كثرتهم الضخمة وقد حيل بينها وبين أيسر الثقافة التي تمكنها من الانتفاع ببعض هذه الكنوز، حال بينها وبين هذه الثقافة الجهل الذي فرضته عليها العهود المظلمة التي تطاولت وتطاولت حتى كأنها الليل السرمدي المقيم.

وما أذكر أني قرأت كتابًا ممتعًا أو فصلًا رائعًا إلا وددت لو أتيح لي أن أصبه في قلوب الناس من حولي وعقولهم، وأن أؤديه إليهم وهم أيقاظ أو نيام ليجدوا من اللذة والمتاع والغنى مثل ما أجد. ورحم الله أبا العلاء، فما كان أصدقه حين قال:

ولو أني حُبيتُ الخُلدَ فردًا لما أحببتُ في الخلد انفرادَا

أو حين قال:

فلا نزلت عليَّ ولا بأرضي سحائبُ ليس تنتظم البلادَا

وأشقُّ من هذا الشعور بالحزن والحسرة شعورٌ آخر فيه أفكر في أن من حولي كثيرًا من المصريين أتيحت لهم هذه الثقافة التي تمكِّنهم من أن يضيفوا إلى ثراء عقولهم آراءً جديدةً في كل يوم، ولكنهم يصرفون أنفسهم عن هذا صرفًا، وينفقون أوقات فراغهم فيما لا ينفع الناس من هذا اللغو الكثير الذي ينفق فيه المثقفون أو أكثر المثقفين عندنا آخر النهار وأول الليل.

ونحن نسأل أنفسنا: ما بال أدبنا لا ينمو أو ما بال فننا لا يزدهر؟ وما بال ثقافتنا معرضة دائمًا للجمود، تنقص ولا تزيد، ويسرع إلى نارها الخمود، تنقص وكان من حقها أن تذكو وأن تملأ النفوس في مصر ومن حول مصر إشراقًا ونورًا؟ ثم نحمل على الأدباء تبعة هذا كله، وننسى أن نشرك معهم غيرهم من الناس في احتمال هذه التبعة.

فلو قد أقبل الناس على القراءة والانتفاع بهذه الكنوز الكثيرة المضيعة لدعتهم القراءة إلى القراءة ولأغراهم العلم بالعلم كالذي يكسب المال القليل من تجارة أو صناعة فيطمع في أن يضيف إليه مثله أو أمثاله. ويتاح له من ذلك ما يريد بمقدار ما يبذل في سبيله من الجهد وما يلقى في سبيله من العناء.

ولكننا لا نجدُّ في الاستزادة من المعرفة ولا نكلف نفسنا عناء لنضيف إلى ثروتنا العقلية ثروة أخرى، وإنما نحن نكتفي بما علمنا وربما ضقنا وزهدنا فيه وأهملناه حتى نسيناه وحتى لم يبق لأحدنا به عهد.

ونحن لا نقرأ أدباءنا الذين يعيشون بيننا ويصورون من حياتنا ما يستطيعون تصويره فكيف نقرأ غيرهم من أدباء الأمم الأخرى؟ وكيف السبيل إلى أن نعرف ما أنتجوا فيما مضى من الدهر وما ينتجون في هذه الأيام التي نعيش فيها؟ وكيف السبيل إلى أن نتهيأ للعلم بما قد ينتجون غدًا أو بعد غد؟

نحن لا نبذل أيسر الجهد لفهم الحياة التي نحياها، وكيف السبيل أن نحيط بيسير الحياة التي يحياها غيرنا من الناس فضلًا عن دقائقها وما يثار فيها من المشكلات التي إن لم تعرض لنا الآن فستعرض لنا من غير شك في يوم قريب أو بعيد؛ لأن حياتنا متصلة بحياة الشعوب الأخرى متأثرة بها مؤثرة فيها، سواء أردنا ذلك أم لم نُرِده بعد

أن ألغيت الآماد والأبعاد وأوشك العالم على اختلاف شعوبه وألوان الحياة فيه أن يصبح عالمًا واحدًا يتأثر بمؤثرات متشابهة أو متحدة؟

والغريب أننا نشعر بهذا الاتصال في حياتنا اليومية، بل في كل ساعة من ساعات حياتنا اليومية. نشعر به حين نقرأ الصحف وحين نسمع الراديو، وحين نشهد السينما أو التمثيل، وحين نرضي حاجاتنا المادية أو القريبة أو البعيدة، وحين ننتقل من مكان إلى مكان لإرضاء هذه الحاجات، ثم نحن على رغم هذا كله لا نجد الشعور بالحاجة الملحة إلى أن نعرف من حياة العقول والقلوب والأذواق في العالم الخارجي مثل ما نعرف من آثار التجارة والصناعة والإنتاج المادي فيه.

وأشد من هذا خطرًا وأعظم منه نكرًا أننا قد جهلنا أو كدنا نجهل أنفسنا، فنحن لم نخرج فجأة من الأرض ولم نهبط فجأة من السماء، ولم نُخترع في هذا العصر الحديث من لا شيء، وإنما تحدرنا من أجيال سبقتنا. ولهذه الأجيال حياة قد أثرت في حياتنا وفي طبيعتنا، فلنا ماضٍ من الحق علينا لأنفسنا أن نعرفه، وسبيلنا إلى معرفته أن نقرأ ونفهم، وندرس ونذوق، وما أشد زهدنا في القراءة والفهم والدرس والذوق!

وسل إن شئت كثرة الذين وقفوا حياتهم على أن يعلِّموا أجيالنا الناشئة القراءة والفهم والدرس والذوق: ماذا يقرءُون، وماذا يفهمون، وماذا يدرسون، وماذا يذوقون بعد أن ظفروا بالإجازات التي تتيح لهم أن يعلِّموا؟ لقد أقبلوا على صناعاتهم كما يقبل كل إنسان على صناعته؛ يؤدون واجبهم ويحتملون في تأديته ما يحتملون من المشقة والجهد. فإذا فرغوا من أداء هذا الواجب لم ينسوا إلا شيئًا واحدًا، وهو الواجب الذي ينبغي أن يؤدوه إلى أنفسهم. فقد يجب على المعلم أن يتعلم، وأن يكون تعلمه متصلًا، وأن يضيف إلى ما عنده شيئًا كثيرًا مما ليس عنده، وأن يجدد نفسه في كل يوم ليُقبِل من الغد على تلاميذه بشيء جديد يحببه إليهم ويزيد شوقهم إلى الاستماع له والانتفاع بما يقول، وهو إذا لم يفعل جدير أن يمل نفسه وأن يُمِل غيره من التلاميذ، وأن يصبح أشبه شيء بالببغاء التي تردد ما حفظت لا تجدده ولا تغيره ولا تزيد فيه.

وأكبر الظن أن كثيرًا من المعلمين عندنا لو حاسبوا أنفسهم حين يخلون إليها إن أتيحت لهم الخلوة إليها لاستيقظوا أنهم يملون أنفسهم ويملون تلامذتهم، ولكنهم لا يفرغون لحساب أنفسهم، يشغلهم أداء الواجب المفروض عليهم في كل يوم، فإذا أتيح لهم الفراغ منه أسرع بعضهم إلى بعض يتحدثون فيما كان وفيما هو كائن وفيما يمكن أن يكون من هذه الأحداث اليسيرة التي تلهي الناس عن أنفسهم، وتخيِّل إليهم أنهم

أيقاظ وهم نيام. وإذا لم يقرأ المعلم لم يحدث في نفس تلميذه الشوق إلى القراءة، ولم يجد فيها الرغبة إلى الاستزادة من المعرفة؛ ولذلك يصبح التعليم صناعة جامدة لا حظ لها من الحياة الخصبة التي تنفع أصحابها وتنفع الناس من حولهم.

والعلم الذي لا يتجدد كالماء الراكد الذي لا يلبث أن يأسن ويسرع إليه الفساد. وأنا أعلم أن هذا القول سيشق على كثير من الصديق الذين أحبهم وأكبرهم، وأعلم كذلك أنهم سيضيقون بما أقول وسيسألون أنفسهم ويسألونني كيف السبيل إلى أن يقرءُوا وقد أثقلتهم واجبات الدرس في المدرسة وخارج المدرسة، ولكن الذي أعرفه هو أن القراءة لمن يحب القراءة شيء لا سبيل إلى التخلص منه، يحتال صاحبه في الوصول إليه والظفر به مهما يكلفه ذلك من الجهد، ومهما يحمِّله من المشقة والعناء. وليس المعلمون وحدهم هم الذين لا يقرءُون، وليس التلاميذ وحدهم هم الذين يشبهون أساتذتهم في الإعراض عن القراءة، ولكن المثقفين جميعًا لا أستثني منهم إلا قلة من اليسير إحصاؤها؛ لا يقرءُون ولا يحبون أن يقرءُوا. لا تقل إنهم يقرءُون الصحف وهي كثيرة، ولا تقل إنهم يقرءُون هذا الأدب اليسير الذي يلقاهم به الباعة في الطريق ويطوفون به عليهم في القهوات. فما إلى هذه القراءة أردت، وما يعنيني أمر هذه القراءة في قليل أو كثير. إنما القراءة التي أريدها وأتمنى أن يكون لكل مثقف منا حظه منها في كل يوم سواء أكان هذا الحظ قليلًا أو كثيرًا هي هذه التي يفرغ القارئ فيها لكتاب قيِّم تحتاج قراءته إلى الجهد، ويحتاج فهمه وذوقه إلى شيء من المشقة والعناء، والتي ينصرف عنها من يقبل عليها ساعة أو بعض ساعة وقد أضاف علمًا إلى علم ومعرفة إلى معرفة، ووجد هذا المتاع الخصب القيم الذي يكسبه أصحابه كسبًا ويظفرون به بعد الجد في سبيله واحتمال العناء لاستخلاصه والوصول إليه.

هذا النوع من القراءة الذي يحتاج إلى أن يخلص الإنسان له نفس ساعة من نهار أو ساعة من ليل، ويخلصها له من كل شاغل من شواغل الحياة مهما تكن ومهما تكن أعباؤها وظروفها. هذا النوع من القراءة التي هي أشبه شيء بالرياضة، رياضة النفس على مزاولة ما يستعصي عليها من الأشياء مزاولةً ملحةً حتى تبلغ منها ما تريد. هذا النوع من القراءة هو الذي أحبه وأدعو إليه وأتمنى أن يروض المثقفون أنفسهم عليه حتى يصبح لهم عادة لازمة لا يستطيعون عنها سلوًا. وأنا واثق أعظم الثقة بأنهم سيجدون فيها بعد أن يروضوا أنفسهم عليها، نعيمًا أي نعيم: نعيم المتعة بما يقرءُون، ونعيم الكسب لما يكسبون، ونعيم تجديد أنفسهم والشعور بالقدرة على احتمال المشقة

وتكلف العسر ورياضة النفس على ما لم تألف، ونعيم التخفف ساعة من أثقال الحياة والتخلص ساعة مما يسر فيها وما يسوء، ونعيم الشعور آخر الأمر بأن الإنسان قد خرج من هذه الحياة الآلية التي يحياها نهاره وليله إلى حياة أخرى عاملة يعطي فيها جهده ويأخذ فيها جهد غيره، ويحس فيها بالقدرة على أنه إنسان يستطيع أن ينفع وينتفع بالمعنى الخصب القيم لهذه الكلمات.

إذا راض المثقفون أنفسهم على هذا النوع من القراءة لم تصبح الحياة بالقياس إليهم عملًا يُؤدَّى وأجرًا يُقبَض وطعامًا يؤكل ويُهضم، ونومًا يقبل مع الليل ويمضي حين يسفر الصبح، وعبثًا لا يغني عن أصحابه شيئًا، وكلامًا يذهب مع الريح، وإنما تصبح شيئًا آخر يمتع أصحابه ويمتع بأصحابه الناس. وأصبحت شيئًا آخر يثير في أصحابه نوعًا من هذا النهم الخصب الذي لا سبيل إلى إرضائه، والذي يجد أصحابه اللذة كل اللذة حين يحسونه وحين يشعرون بالحاجة الملحة إلى إرضائه، وحين يسعون جادين ويتكلفون اليسير والعسير ليبلغوا من إرضائه ما يريدون. والقراءة الممتعة تدعو إلى القراءة الممتعة، فإذا رُضْتَ نفسك على أن تقرأ ساعة في كل يوم وأَلِفت هذه القراءة، فستشعر بالحاجة إلى أن تجعل الساعة ساعتين، وستقرأ الكتاب القيم فتحتاج إلى أن تعيد قراءته لتحسن استيعاب ما فيه، وستقرأ الكتاب فتشعر بالحاجة إلى أن تقرأ غيره مما يشبهه أو يخالفه، وسيعجز مالك المقدور لك عن إسعافك من الكتب بما تريد، وستلمس ما لم تستطع شراءه في المكتبات العامة والخاصة، وستعجز المكتبات عن إسعافك أيضًا فتتكلف الممكن وغير الممكن لتظفر بما تحتاج إليه من الكتب، وستستيقن بأن حياتك قد أصبحت شيئًا يستحق أن يحتمل وأن تحتمل في سبيله ضروب المشقات، وستلوم المؤلفين لأنهم لم يؤلفوا، والناشرين لأنهم لم ينشروا، والمترجمين لأنهم لم يترجموا، وإذا كثر أمثالك من القارئين الملحين في القراءة المحتاجين إليها في كل يوم والذين لا يجدون ما يقرءُون، فستطالبون بتيسير أسباب القراءة وستضطرون الدولة إلى أن تستجيب لكم فتُعنى بالترجمة والتأليف والنشر وإنشاء المكتبات وتنمية الموجود منها أكثر مما عُنِيت إلى الآن، وستنظرون فإذا الحياة من حولكم قد تغيرت وإذا أنتم قد أنشأتم جوًّا جديدًا يحيا فيه العقل ويحيا فيه القلب والذوق، وإذا أنتم قد أصبحتم مثلًا للناشئين فأحبوا من هذه الحياة الممتازة ما تحبون وجدُّوا في سبيلها كما تجدُّون، وعسى أن يكونوا أكثر منكم لها حبًّا وأعظم منكم في سبيلها جدًّا، وأشد منكم إليها سعيًا.

وكذلك تقرب الكنوز المضيعة من مصر فتملأ عقول أبنائها وقلوبهم علمًا ونورًا. ثم لن تقنعوا بالقراءة والإمعان فيها، بل ستحتاجون إلى أن يفضي بعضكم إلى بعض بما

يقرأ، وستصنعون ذلك في أحاديثكم، وقد لا تقنعون بالأحاديث فتكتبون وتحيون الثقافة والعلم والأدب في وطنكم أكثر مما تحيا، وتغرون غيركم بأن يصنع صنيعكم ثم تنظرون بعد ذلك فإذا أنتم لا تنفعون أنفسكم وحدها، ولا تنفعون مواطنيكم وحدهم ولكنكم تنفعون أجيالًا أخرى من الناس قريبة منكم أو بعيدة عنكم، وإذا أنتم لا تستهلكون فحسب، وإنما تستهلكون وتنتجون، ولا تأخذون فحسب، وإنما تأخذون وتعطون، وإذا أنتم لستم عيالًا على الإنسانية المتحضرة، وإنما أنتم مشاركون في بناء الحضارة وتنميتها وتذكية جذوتها، وإذا أنتم قد رددتم وطنكم مصر الخالدة إلى أيامها تلك القديمة التي كانت تعطي فيها أكثر مما تأخذ وتنفع فيها أكثر مما تنتفع، وإذا أنتم لا يستحي أحدكم أن يلقى من شاء من أبناء الأمم الراقية المتحضرة لقاء الأكفاء لا لقاء المنتفعين الذين لا ينفعون.

ما أشد حاجة المصريين إلى أن يقرءُوا هذا النوع من القراءة التي أدعوهم إليها حين يفرغون! بل ما أشد حاجتهم إلى أن يتكلفوا لأنفسهم الفراغ لهذه القراءة ساعة من نهار أو ساعة من ليل، وإن حمَّلهم ذلك من الأعباء أكثر مما تعودوا أن يحتملوا، وإن حرمهم ذلك لذة الاختلاف إلى القهوات والاستمتاع بما تعودوا أن يستمتعوا به، وإن حرمهم ذلك الفراغ لما يحتاجون إليه أشد الاحتياج ويقيمون حياتهم عليه!

إني أعرف قومًا يؤثرون أن يقرءُوا على أن يطعموا وعلى أن يناموا، وأن يغذوا عقولهم وقلوبهم ويوفروا لها المعرفة والمتاع على أن يغذوا أجسامهم ويوفروا لها الراحة واللذة وخير ما في الحياة المادية من ألوان الترف.

ما أكثر ما في الأرض من كنوز العلم والأدب والفن! وما أقل حظنا من هذه الكنوز! وما أشد حاجتنا إلى أن نأخذ منها أعظم حظ يمكن، بل إلى أن نأخذها كلها إن استطعنا إلى ذلك سبيلًا! وما أقدرنا على ذلك إن أردنا! فهل نريد؟ هذه هي المسألة المعقدة أشد التعقيد كما كان يقول بعض الممثلين. فليس من اليسير أن يستغني كثير من شيوخنا وشبابنا عن هذه الساعات الطوال أو القصار التي ينفقونها كل يوم جلوسًا في القهوات لا يصنعون شيئًا إلا المضي في هذا اللغو الذي لا ينفعهم ولا ينفع معهم أحدًا، ولا ينفع بهم أحدًا أيضًا، وإنما هم يجعلون أنفسهم في هذه الساعات عيالًا على الوطن والمواطنين. وما حاجة الوطن والمواطنين إلى قوم يرضون لأنفسهم أن يضيعوا وقتًا يستطيعون أن ينفعوا به وأن ينتفعوا؟! وما أكثر ما نردد أن الحياة جهاد، ولكننا على ذلك لا نجاهد أنفسنا أيسر الجهاد وأقومه مع ذلك وأجدره أن ينفعنا وأن ينفع الناس، فنخلص للقراءة

المتعة في كل يوم ساعة من نهار أو ساعة من ليل، ونحن نعلم أن لو فعلنا لأيقظنا مصر بعد نوم وجعلناها وطنًا كريمًا يعيش فيه قوم كرام.

ولا تقل إني أدعو غير مجيب وأتحدث إلى أذان غير واعية، فلا أقل من أن أدعو ولا أقل من أن أتحدث، وقد صدق أبو تمام حين قال:

وركبٍ كأطراف الأسنَّةِ عرَّسوا على مثلها والليلُ تسطو غياهِبُه
لأمرٍ عليهم أن تتمَّ صدُوره وليس عليهم أن تتمَّ عواقِبُه

علينا إذن أن ندعو وأن نلح في الدعاء، ولا علينا ألا يسمع الصم ولا يجيب الكسالى. ومن يدري لعل منا على كل حال من يسمع ومن يجيب!

بين الفصحى والعامِّية

كل شيء ممكن حتى أن يرجع الزمن أدراجه، ويمشي إلى وراء بعد أن كان يمضي إلى أمام. ولا أريد بالزمن هذه المعاني التي يختلف الفلاسفة في تحقيقها وتحديدها، فليس هذا الحديث من فلسفة الفلاسفة ولا من علم العلماء في شيء، وإنما أريد بالزمن أمور الناس التي تستغرق أوقاتهم وجهودهم وتستنفد قواهم ونشاطهم، فتتقدم أحيانًا وتتأخر أحيانًا أخرى، وتُقدِم مرة وتحجم أخرى. وما أشك في أن وقتًا من الأوقات قد مر بنا وأمورنا اللغوية تمضي إلى أمام، وحياتنا الأدبية تقدم غير مترددة ولا مستأنية كأنما كانت تريد أن تسبق الأحداث والخطوب وأن تتعجل دورة الفلك لتبلغ القرن الحادي والعشرين قبل أن تبلغ نصف القرن العشرين، فضلًا عن أن تصل إلى آخره.

في ذلك الوقت كان التعليم قليل الانتشار بالقياس إلى ما أتيح له في هذه الأيام من السعة والتغلغل في أعماق الشعب، وكان شيوخ الأدب الذين استأثرت بهم رحمة الله، وشباب الأدب الذين أصبحوا شيوخًا في هذه الأيام يكتبون باللغة العربية الفصحى، ويتنافسون فيما بينهم أيهم يكون أشد لها تطويعًا، وأعظم لها تيسيرًا، وأقدر على أن يسوغها من المعاني والخواطر والآراء ما لم تكن تعودت أن تسيغ دون أن يشق عليها، أو يرهقها من أمرها عسرًا، أو ينحرف بها عن طريقها التي رسمتها لها طبيعتها ومزاجها.

وكان أصحاب الثقافة الممتازة وأصحاب الثقافة المتوسطة وأصحاب الثقافة المتواضعة والذين لا يكادون يظفرون من الثقافة بشيء، كل أولئك كانوا يتنافسون في القراءة ويختصمون فيما بينهم، يرضى فريق ويسخط فريق، ويضطرب ثالث بين السخط والرضى. وكان الزعماء السياسيون يؤثرون بعض الأدباء على بعض، وينهون أتباعهم عن قراءة ما يكتبه الأدباء الذين كانوا يسخطون عليهم، وربما حرموا عليهم قراءة صحف بعينها، وربما أعلنوا إليهم أنهم ينوبون عنهم في قراءة تلك الصحف. وكان

الأتباع يسمعون ويصفقون، فإذا تفرقوا عن زعمائهم أسرعوا إلى الصحف المحظورة فاشتروها ودسوها في جيوبهم حتى إذا راحوا إلى دورهم خلوا إلى تلك الصحف فقرءُوها، ممعنين في قراءتها غير حافلين فيما بينهم وبين أنفسهم بنهي الزعماء عن هذه القراءة وحظرهم لها.

وكانت تلك الصحف تنشر باللغة العربية الفصحى، وكان كتَّابها يتنافسون في تجويد اللغة وتنميق الأسلوب، قد اتخذوا لأنفسهم في الأدب مُثلًا رفيعة لا يعرضون عنها ليتكلفوا رضى القراء، وإنما يسمون إليها ليغروا قرَّاءهم بمشاركتهم في هذا السمو. وكان بعض الشباب في تلك الأوقات يحاولون أن يكتبوا باللغة العامية وأن يروِّجوا لها ترويجًا لا ليتملقوا قراءهم بل ليبلغوا منهم مواطن الفهم والذوق والاستجابة، ولكنهم كانوا يظفرون بعكس ما كانوا يريدون، فيزورُّ عنهم القراء وتسخر منهم طوائف المثقفين، ويضطرون إلى الرجوع عن عاميتهم إلى اللغة الفصحى. وكان حافظ — رحمه الله — يهدر بشعره السياسي، وكان شوقي — رحمه الله — يُعنَى بشعره التمثيلي والسياسي، وكلاهما يذهب مذهب القدماء في لفظه وأسلوبه وفي وزنه وقوافيه، وكان الذين يسمعون للشاعرين العظيمين أو يقرءُون لهما يرضون ويعجبون ويحفظون شعرهما عن ظهر قلب، لا يجدون في رصانة هذا الشعر وجزالته ولا في تقليده للقدماء ما يصرفهم عنه أو يخوفهم منه أو يزهدهم فيه. وكنا نعيب الشاعرين العظيمين بإمعانهما في تقليد القدماء وتقصيرهما في التجديد وغلوهما في المحافظة على مذاهب القدماء، فكان الناس يقرءُون لنا فترضى منهم قلة قليلة جدًّا هم أصحاب الثقافة الرفيعة، وتسخط منهم كثرة كثيرة جدًّا هم أصحاب الثقافة المتوسطة والضئيلة.

كان ذلك منذ ربع قرن أو أكثر من ربع قرن. وكنت أعيب على المحافظين في اللغة والأدب تقديسهم للغة وإحاطتهم لها بهذا الإجلال الديني الذي يعصمها من التطور ويحميها من التجديد. وكنت أقول إن اللغة العربية هي لغة القرآن ما في ذلك شك، ولكنها في الوقت نفسه لغة الذين يتكلمونها، فمن الحق عليها أن تستجيب لأصحابها وأن تساير تطورهم وتجاري حياتهم في ظروفها المختلفة. وهي قد فعلت في العصور الأولى، فلم تكد تخرج من البادية العربية حتى لاءمت الحضارة الجديدة ووسعت علومها وفلسفتها وحتى تطور أدبها نفسه مع هذه الحضارة فأدى في يسر وإسماح ما لم يكن يخطر للأعراب البادين على بال من الخواطر والمعاني والآراء.

وكان الناس ينكرون عليَّ هذه المقالة أشد الإنكار ويرون أني قد جاوزت في الإسراف كل حد، وأني قد غلوت في التجديد حتى أخرجته عما ينبغي له من القصد والاعتدال،

ومن الرفق والأناة، وحتى ذهبت به مذهب الثورة لا مذهب التطور والانتقال. وكنت أضحك من الدرس الأول الذي كان طلاب الأزهر الشريف يسمعونه حين يبدءون دراسة النحو، فيقرأ عليهم الشيوخ قول المؤلف — رحمه الله: الحمد لله الذي جعل لغة العرب أفصح اللغات.

وكنت أقول إن لغة العرب فصيحة ما في ذلك شك، ولكن في الأرض لغات أخرى ليست أقل منها فصاحة وجزالة وامتيازًا. وكان المحافظون يرون هذا القول مني جموحًا وإهدارًا للقيم الموروثة، وثورة بالسنن التي تلقاها الأبناء عن الآباء. وكنت أتندر بما كان بعض القدماء يختصمون فيه من أن لغة أهل الجنة في الدار الآخرة هي اللغة العربية أو اللغة السريانية، فكان غلاة المحافظين يضيقون مني بذلك أشد الضيق.

وأذكر أني حين هممت بالسفر إلى أوروبا لإتمام الدرس سألني الشيخ بخيت — رحمه الله: ما الذي تريد أن تدرسه في أوروبا؟ فقلت له متضاحكًا: أريد أن أدرس اللغة السريانية. فقال: ولمَ تدرس اللغة السريانية؟ قلت: لأحسن الرد على المَلَكين حين يسألانني في القبر؛ لأنهما يسألان باللغة السريانية. ورويت له ما كنت أحفظ من قول بعض الأزهريين القدماء:

ومن غريب ما ترى العينان … أن سؤال القبر بالسرياني
أفتى بهذا شيخنا البلقيني … … … … … … …

فغضب الشيخ وضحك الحاضرون، وكانت كثرتهم من المطربشين. ولقيت الشيخ بعد عودتي من أوروبا فسلمت عليه ولم أقبِّل يده، وأراد أن يشعرني باحتقاره لي وازدرائه لما تعلمت في أوروبا ولما اتخذت من زي جديد، فلم يكن يدعوني إلا طه أفندي. وحسبك بهذا الدعاء احتقارًا وازدراء.

كذلك كانت حالنا منذ أكثر من ربع قرن ثقة باللغة العربية الفصحى وإيمانًا بقدرتها على البقاء، ومطاولة الزمان ومغالبة الأحداث التي تجدد حياة الناس من يوم إلى يوم لا من عام إلى عام. وليس من شك في أن جيلنا ذاك القديم قد ظفر بالنجح كل النجح فيما كان يحاول من تجديد الأدب ورد الشباب إلى اللغة، بعد أن أدركتها في القرون الأخيرة أعراض تشبه أعراض الشيخوخة والهرم.

لم ينكر علينا أحد في تلك الأوقات إغرابًا في اللفظ أو التواءً في الأسلوب أو غموضًا في المعاني، وإنما كان الناس يتابعوننا راضين عنا، مشجعين لنا يشعرون بأننا كنا نرد

إليهم شيئًا عزيزًا عليهم أثيرًا في نفوسهم بعُد عهدهم به، واشتد شوقهم إليه، وهو هذا الجمال الفني الذي يأتي من سماحة اللفظ وسجاحته ومن يسر المعاني ووضوحها ومن صفاء الأساليب ونقائها. لم يكن المازني — رحمه الله — يتحرج من إحياء تلك الأساليب القديمة التي كان يجدها عند عبد القاهر الجرجاني وعند الذين سبقوه من أصحاب النقد والبيان، وكان الناس يقرءُون له ويعجبون به ويستزيدونه من فنه ذاك الجديد القديم.

ولم يكن مصطفى عبد الرازق — رحمه الله — يتحرج من اصطناع الأناة المستأنية في إنتاجه الأدبي، فكان يفرغ الوقت الطويل لكتابة المقال القصير يحرر معانيه، ويجوِّد ألفاظه، ويصفي أسلوبه تصفية حتى كنا نشبه آثاره الأدبية بذلك الحلي الذي يتأنق فيه صُنَّاعه ويخرجونه روعة للناظرين لا سبيل إلى التعليق عليه بعيب ظاهر أو خفي.

وكان الناس يتحدثون عن هذا الكاتب أو ذاك فيقولون إنه يذهب مذهب الجاحظ أو مذهب ابن المقفع يرون ذلك ثناءً عليه وإطراءً له. ولم نكن نرضى بهذا الإطراء وذلك الثناء؛ لأننا لم نكن نحيي تلك الأساليب فحسب، وإنما كنا نحييها ونغنيها ونؤدي بها معاني وآراء وخواطر لم تكن تخطر للجاحظ وابن المقفع على بال.

كنا نترجم فيها شعر الشعراء ونثر الكتَّاب من أعلام الأدب في الغرب لا نجد في ذلك مشقة ولا حرجًا، وكنا نؤدي بها من ذات أنفسنا ما يلائم العصر الذي نعيش فيه من شئون هذه الحياة التي لا تشبه من قريب ولا من بعيد حياة الكتَّاب القدماء في البصرة والكوفة وبغداد.

وكنا نغيظ حافظًا وشوقي وغيرهما من الشعراء حين نتحدث بأن النثر العربي هو الذي ارتقى حقًّا في هذا العصر الحديث لأنه ابتكر أشياء لا عهد للقدماء بها دون أن يخل بفصاحة اللغة ورصانتها، ودون أن ينحرف عن أصولها المقررة أو طبيعتها الخالدة، على حين لم يستطع الشعر إلا أن يحيي مذاهب العباسيين متأثرًا لهم ومتأثرًا بهم أيضًا.

وكنت أغلو في مضايقة الشاعرين العظيمين، فأرد بعض قصائدهما إلى نماذجها القديمة من شعر البحتري وأبي تمام والمتنبي، وكانا يضيقان بذلك أشد الضيق، ويحاولان التجديد والابتكار، ويوفَّقان منهما إلى شيء كثير.

فأين نحن الآن من تلك الحياة التي كنا نحياها منذ ربع قرن، والتي لم أروِ من أمرها إلا أطرافًا قصارًا، والتي تشهد بها نصوص ما يزال الناس يقرءُونها ويكثرون من قراءتها ويستعينون بكثير منها على احتمال الحياة التي يحيونها الآن؟ وليس من

شك في أن أسبابًا مختلفة كثيرة قد دعت إلى ما نحن فيه الآن من هذا الاضطراب الأدبي الخطير الذي يظهر في صور متناقضة أشد التناقض. فعقول شبابنا خصبة، وقلوبهم ذكية، وبصائرهم نافذة لا ينكر ذلك إلا المكابرون. وفيهم من أجل هذه الخصال قدرة رائعة على الإنتاج الفني، ولهم من أجل هذه الخصال إنتاج يعصم من اليأس ويفتح أبوابًا لآمال عراض، لا ينكر ذلك إلا المكابرون أيضًا.

ولكن أدباء الشباب هؤلاء أشقياء بفنهم، وقرَّاؤهم ليسوا أقل منهم شقاء لسبب يسير جدًّا؛ وهو أن وسيلة الأداء تعوزهم إعوازًا مروعًا حقًّا، فآثار كثير منهم أشبه شيء بالجمال البارع الساحر الذي يعرض في الأزياء الرثة المهلهلة التي تشوه براعته وتفسد سحره وتعلق القلوب تعليقًا مؤلمًا بين الإقبال عليه لأصالته وصدقه، والانصراف عنه لرثاثة صوره وغثاثة ألفاظه. وأدباؤنا الشبان يحسون ذلك من أنفسهم ومن قرائهم إحساسًا دقيقًا، ويضيقون به ضيقًا شديدًا، ولكنهم لا يحاولون له طبًّا ولا علاجًا، وإنما يمعنون فيه إمعان المستيئس، ويلهجون به لهج المكابر المعاند الذي يعجزه الحسن فيهيم بالقبح، ويفوته الكمال فيستمسك بالنقص ويتخذه مذهبًا ومنهاجًا.

ثم هم لا يكتفون بما يتورطون فيه من العناد في غير موضع للعناد، والمراء في غير موضع للمراء، ولكنهم يتكلفون الغض من الذين سبقوهم، ثم الخروج على ما ألف الناس من صور البيان وإيثار الفصاحة على الركاكة، والرقي على الإسفاف. فإذا لم يغن عنهم هذا كله شيئًا، ثاروا باللغة نفسها، ونصبوا لها حربًا أقل ما توصف به أنها عقيم لا تغني عنهم شيئًا، ولا تنيلهم خيرًا قليلًا أو كثيرًا. فليس من الحق في شيء أن اللغة العربية الفصحى قد ماتت أو أشرفت على الموت، بل ليس من الحق أن اللغة العربية الفصحى قد أدركها ضعف أو فتور أو قصور، وآية ذلك أن الناس يعربون بها عن ذات أنفسهم حين يكتبون ما يريدون أن يكتبوا في الموضوعات المختلفة لا يجدون في ذلك حرجًا، ولا يحتملون فيه عناء، يؤلفون الكتب ويترجمون ما يؤلف غيرهم من الأجانب في أقطار الشرق والغرب، وينشرون الصحف والمجلات، والناس يقرءُون ما يُؤلَّف من الكتب وما يُترجَم، كما يقرءُون ما تنشره الصحف والمجلات لا يجدون بذلك بأسًا ولا يشكون منه جهدًا. وآية ذلك أيضًا أن الناس ينشرون الكتب القديمة التي كتبت بالعربية الفصحى في عصورها المختلفة فيقرؤها أصحاب الثقافة العميقة الواسعة وأصحاب الثقافة المتوسطة الضيقة، وأكثرهم لا يقرؤها مكرهًا على قراءتها، وأكثرهم كذلك لا يقرؤها بالمجان، وإنما ينفق في قراءتها الوقت والمال والجهد عن حب لها ورغبة فيها، وحرص عليها. وليس هذا

شأن اللغة التي ماتت أو أوشكت أن تموت، وليس هذا شأن اللغة التي أدركها الضعف أو الفتور أو القصور، وإنما هو شأن اللغة التي ما زالت حية قادرة على الحياة، قوية قادرة على مغالبة الأحداث والخطوب التي تغير حياة الناس من يوم إلى يوم.

وأدباؤنا الشبان يتورطون في خطأ أي خطأ حين يظنون أن اللغة العربية الفصحى لا يمكن أن تصح وأن تستقيم إلا إذا اتخذت ذلك الشكل القديم الذي يألفونه في شعر القدماء ونثرهم أثناء القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى للهجرة. وهم حين يتورطون في هذا الخطأ يجحدون التطور وينسون حقائقه الأولى، فلغة القرن الأول للهجرة لم تكن مطابقة كل المطابقة للغة الجاهليين، ولغة أبي نواس وأصحابه لم تكن مطابقة كل المطابقة للغة الفرزدق وجرير، ولغة المتنبي ومعاصريه لم تكن هي لغة أبي نواس ولِدَاتِه وأترابه، واللغة التي أتحدث إليهم بها الآن والتي يتحدث إليهم بها غيري من الكتَّاب ليست هي اللغة التي كان يتحدث بها كتَّاب القرن الثالث إلى قرائهم. ومعنى هذا كله أن حياة اللغة شيء وجمودها واستعصاءها على التطور شيء آخر. وأصحابنا هؤلاء من أدباء الشباب يتورطون في خطأ آخر ليس أقل من هذا الخطأ نكرًا، فهم قد قرءُوا في بعض الكتب أن اللغة اللاتينية قد كانت حية قوية منتشرة في غرب أوروبا، ثم ماتت ونشأت عنها لغات مختلفة في بلاد كثيرة من أوروبا الغربية هذه. وما أسرع ما يثبون من هذا الذي قرءُوه إلى أن اللغة العربية الفصحى لغة قديمة قد نشأت عنها لهجات عامية، فهي إذن قد ماتت وقامت اللهجات العامية مقامها. وقد قلت ألف مرة ومرة إني لا أشفق على شبابنا من شيء كما أشفق عليهم من التفكير السريع والأحكام الخاطفة، فاللغة اللاتينية لم تمت فجاءة، واللغات الحديثة لم تقم مقامها فجاءة، واللغة اللاتينية لم تمت لأن الشبان من أبنائها قضوا عليها الموت في يوم من الأيام، وقرروا أن تقوم اللهجات العامية مقامها، وإنما ماتت اللغة اللاتينية في بطء بطيء جدًّا بعد خطوب طوال ثقال ليس هنا موضع الحديث عنها. وقد تعرضت اللغة العربية الفصحى لخطوب طوال ثقال أيضًا حفظتها كتب التاريخ، ولكنها انتصرت إلى الآن على هذه الخطوب فلم تمت، ولم يدركها فتور أو قصور، وإنما قاومت وغالبت وأتيح لها الغلب والانتصار؛ فظلت حية قوية متطورة، وظلت اللهجات العامية ضعيفة ضئيلة لا تصلح للأداء الأدبي قليلًا أو كثيرًا، وآية ذلك أننا لا نعرف أثرًا أدبيًّا رائعًا خالدًا، كتب في لهجة من هذه اللهجات إلى الآن. وليس يكفي أن نقرر أن لغة من اللغات قد ماتت لتموت، وليس يكفي أن نقضي الموت على لغة من اللغات ليصبح قضاؤنا ضربة لازم ولتموت هذه اللغة لأننا أردنا لها الموت.

كل هذا عبث من العبث، واضطراب فيما لا ينفع ولا يفيد ولا يغني عن الناس شيئًا، واستجابة للكسل الذي يثبط الهمم ويفل الحد ويميت القلوب. وخير من هذا كله أن نستقبل أمور اللغة العربية الفصحى ومشكلاتها كما نستقبل غيرها من الأمور والمشكلات، فنلتمس لها ما يلائمها من الحلول ولا نستيئس من الظفر بهذه الحلول.

وللغة العربية الفصحى مشكلات خطيرة ليس في ذلك شك، وقد تنبهنا لهذه المشكلات منذ أواخر القرن الماضي، ولكنا لم نجد الشجاعة إلى الآن لحلها في غير تردد ولا تلكؤ، وإنما صانع منا المصانعون، وداور منا المداورون، وتركنا الأمور تمضي كما تستطيع فعرضنا لغتنا وأدبنا لشر عظيم.

ولست أذكر الآن من هذه المشكلات إلا اثنتين كلتاهما خطيرة أشد الخطورة. فأما أولاهما فهي الكتابة العربية التي طالب الناس بإصلاحها منذ أواخر القرن الماضي — فيما أذكر — دون أن يظفروا بشيء. والثانية هي علم النحو الذي حاول الناس إصلاحه منذ أوائل هذا القرن فلم يظفروا بشيء أيضًا.

والأصل الذي يجب أن ينتبه إليه الناس هو أن الكتابة كانت فيما مضى كما كان النحو مقصورة على قلة قليلة من الناس، فأصبحت بحكم النظم الحديثة مفروضة على الشعوب كلها. كانت أرستقراطية فأصبحت ديمقراطية إن صح هذا التعبير. وإذا كانت الأرستقراطية تستتبع الصعوبة والعسر والضيق لأنها تصور الاستئثار والاحتكار وإقامة الحواجز والمصاعب دون ما يستأثر به السادة الممتازون، فإن الديمقراطية تستتبع السهولة واليسر والإسماح وإزالة المصاعب وتذليل العقاب. وإذا أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع. ونحن نريد أن يكون الشعب كله كاتبًا قارئًا، فلنيسر له الكتابة والقراءة حتى يبلغ حاجته منهما في سعة ودعة، وفي يسر ولين.

ونحن نكتب الآن كما كنا نكتب منذ أكثر من ألف سنة حين كانت الكتابة امتيازًا تستأثر به قلة من الناس. فإذا أُلغيت هذا الامتياز فألغ ما كان يقتضيه من ضروب المصاعب والعقاب، ويسِّر الكتابة والقراءة ليستطيع الناس جميعًا أن يكتبوا ويقرءُوا دون أن يضيعوا من الجهد والوقت ما لا يملكون.

ومن الحمق الأحمق والجهالة الجاهلة حقًّا أن تطلب إلى عامة الشعب أن تحسن الفهم لتحسن الكتابة والقراءة، فالأصل أن يكتب الناس ويقرءُوا أولًا وأن يفهموا بعد ذلك، وقل مثل هذا بالقياس إلى النحو؛ فنحن نعلِّم صبيتنا وشبابنا أصول اللغة العربية وخصائصها كما كانت تُعلَّم منذ اثني عشر قرنًا في البصرة والكوفة وبغداد، وقد تغيرت

الحياة وتغيرت العقول وأصبح النحو القديم تاريخًا يدرسه الإخصائيون ولم يبق بد من نحو ميسر، قريب لتفهمه هذه الملايين الكثيرة من التلاميذ.

والصبية والشباب يتعلمون اللغات الأوروبية، فلا يجدون مشقة ولا عسرًا في فهم النحو لهذه اللغات؛ لأن نحوها قد تطور حتى لاءم الحياة الجديدة والعقل الجديد.

وأغرب من هذا أن اللاتينية الميتة تدرس للصبية والشباب في أوروبا، ولا يجد الصبية والشباب مشقة ولا عسرًا في فهم النحو اللاتيني؛ لأنه قد يسر حتى لاءم الحياة الجديدة والعقل الجديد، وقل مثل ذلك بالقياس إلى اللغة اليونانية القديمة. فأعجب للغات ميتة يُدرَّس نحوها الآن في يسر أي يسر، وللغة حية هي لغتنا العربية يُدرَّس نحوها في عسر عسير، ولا ينتهي بتلاميذه إلا إلى جهله وبغضه وبغض اللغة العربية كلها من أجله.

وأنا مطمئن كل الاطمئنان إلى أن إصلاح الكتابة العربية وتيسير النحو العربي كفيلان بإراحة الجيل الناشئ من شبابنا من هذا العناء الثقيل الذي ينوء بالكتَّاب المعاصرين من شبابنا الأدباء الذين تعلموا اللغة العربية على أساليب لا تلائم عقولهم وأمزجتهم فلم يحسنوها ولم يطمئنوا إليها، واضطرهم ذلك آخر الأمر إلى ما يشقون به ويشقى به معهم قراؤهم من هذا الإنتاج الأدبي الذي يجمع بين الجمال والقبح والجودة والرداءة في وقت واحد، ومن هذه الشكوى التي لا تنقضي من صعوبة اللغة الفصحى واستعصائها، ومن هذه المطالبة المُمِضَّة بالالتجاء إلى اللهجات العامية وإقامتها مقام اللغة العربية الفصحى التي تشقى بأساتذتها ومعلميها.

وأحب آخر الأمر أن ألفت أدباءنا الذين يطالبون بالالتجاء إلى اللهجات العامية إلى شيء خطير ما أرى أنهم قد فكروا فيه فأحسنوا التفكير، وهو أن العالم العربي الآن وكثيرًا من أهل العالم الشرقي كله يفهم اللغة العربية الفصحى ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه وللتواصل الصحيح القوي بين أقطاره المتباعدة.

فلنحذر أن نشجع الكتابة باللهجات العامية فيمضي كل قطر في لهجته وتمعن هذه اللهجات في التباعد والتدابر، ويأتي يوم يحتاج فيه المصري إلى أن يترجم إلى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين، ويحتاج أهل سوريا ولبنان والعراق إلى مثل ما يحتاج إليه المصريون من ترجمة الكتب المصرية إلى لهجاتهم كما يترجم الفرنسيون عن الإيطاليين والإسبانيين وكما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين.

ولنسأل أنفسنا آخر الأمر أيهما خير؛ أن تكون للعالم العربي كله لغة واحدة هي اللغة الفصحى يفهمها أهل مراكش كما يفهمها أهل العراق، أم أن تكون لهذا العالم

لغات بعدد الأقطار التي يأتلف منها، وأن يترجم بعضه عن بعض كما يترجم بعض الأوروبيين عن بعض؟ أما أنا فأُوثِر وحدة اللغة، وأثق كل الثقة كلها بأن لها النصر آخر الأمر، وأرى غير متردد أن وحدة اللغة هذه خليقة بأن يجاهد في سبيلها المؤمنون بها وبأن يضحوا في سبيلها بكل ما يملكون.

مشكلة

لفتني إليها صديق كريم في كتاب تفضل بكتابته إليَّ بعد أن قرأ الحديث الذي نشرته لي «الجمهورية» في الأسبوع الماضي عن الفصحى والعامية، وأعترف بأني لم أكد أفرغ من قراءة ذلك الكتاب حتى استيقنت أن ذلك الصديق قد صور المشكلة فأحسن تصويرها، وأن هذا الحوار الطويل الذي أسرف الناس فيه حتى ملوا وأملوا حول الفصحى والعامية ليس إلا دورانًا حول المشكلة دون تعمق لها أو إحاطة بها فضلًا عن حلها والتغلب عليها. وقد كان يقال لنا حين كنا طلابًا في الأزهر الشريف إن الحكم على الشيء فرع من تصوره، وكان يراد بهذا الكلام أن الذين يريدون القول في أمر من الأمور يجب أن يحسنوا العلم به والفهم لدقائقه قبل أن يقولوا فيه وقبل أن يحكموا عليه.

وكنا نتندر في تلك الأيام بشيخ من شيوخنا — رحمه الله — كان يقول في كل شيء دون أن نفهم عنه شيئًا. وكان رحمه الله يتمدح فيقول إنه يستطيع أن يتكلم ساعتين دون أن نفهم نحن عنه شيئًا ودون أن يفهم هو عن نفسه شيئًا، وكان يرى ذلك نعمة أسبغها الله عليه وفضلًا اختصه الله به، والله يؤتي فضله من يشاء … وليس من شك في أن شيخنا — رحمه الله — كان يقول فيكثر القول في الأشياء التي لا يحسن فهمها، وكان كلما أحسَّ منا قصورًا أو عجزًا عن اتباعه أغرق في القول وتأنق في التعبير وعابنا بالغباء، ودعانا بأسماء الحيوان لا يتردد في شيء من ذلك، ولا يصطنع فيه تلطفًا ولا احتشامًا. فإذا تحدث إلينا فيما يحسن من العلم لم يحتج إلى إطالة أو إلى افتنان في التعبير، ولم نحتج نحن إلى سؤاله أو استعادته، ولم نتعرض لنكون حمرًا أو ثِيَرة أو خنازير وبتفخيم الخاء. ومعنى هذا كله أن من فهم شيئًا حق الفهم استطاع أن يعرب عنه حق الإعراب إذا أحسن لغته وملك أداته، ولا خير في فهم لا يؤدي عنه اللسان، ولا

خير في لسان لا يؤدي عن القلب والعقل فيحسن الأداء. ولم يخطئ الشاعر القديم حين قال:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

والشيء المحقق هو أن الذين يضيقون باللغة الفصحى وينفرون منها ويفزعون إلى ما يسمونه اللغة العامية، لا يعرفون اللغة العربية الفصحى حق معرفتها قبل كل شيء؛ لأنهم لم يتعلموها كما كان ينبغي أن يتعلموها. شقت عليهم في المدرسة ولم يحسن أساتذتهم تحبيبها إليهم فاتخذوا دروسها وسيلة إلى النفوذ من الامتحان لا وسيلة إلى التعبير عن ذات نفوسهم. وانقطعت الصلة بينها وبين قلوبهم وعقولهم فلم يعرفوا إلا لغة الحديث هذه التي يديرون بها ألسنتهم حين يلقون أصحابهم وحين يتحدثون إلى الآباء والأمهات والإخوان والأخوات. وربما نشأ عن هذا شيء خطيرٌ جدًّا وهو أن قصورهم عن العلم باللغة قد اضطرهم إلى القصور عن فهم كثير من العلم الذي كان يُلقَى إليهم في المدارس والمعاهد والجامعات، فهذا العلم كان يُكتب لهم باللغة الفصحى فيما يقرءُون من الكتب ويُلقى إليهم بلغة مختلطة بين الفصحى والعامية، فيفهمون قليلًا ويعجزون عن فهم الكثير، ويحفظون ما في الكتب والمذكرات عن ظهر قلب ليعيدوه حين يُدعَون إلى الامتحان، ولينسوه بعد أن يفرغوا من الامتحان، فهم يمرون بالمدرسة مرًّا فيحفظون منها شيئًا ويجهلون منها ومما يلقى فيها أشياء. فإذا ظفروا بالإجازة المدرسية أو الدرجة الجامعية رأوا أنفسهم علماء بحكم القانون وبشهادة الدولة، ولم ير الناس علمًا عندهم أو شيئًا يشبه العلم؛ لأنهم لم يتعلموا كما تعلم الناس ولم يفهموا كما ينبغي للناس أن يفهموا. وآية ذلك أن العلم في بلادنا لا يكاد يثمر مع أن ذكاء القلوب ونفاذ البصائر وقدرة العقول على الفهم والبحث والاستقصاء كل ذلك لا ينقصنا، وإنما الذي ينقصنا هو تمرين القلوب والبصائر والعقول على الشعور والفهم والبحث والاستقصاء.

والأمر بالقياس إلى اللغة الفصحى لا يعدو أن يكون كما هو بالقياس إلى أي لون من ألوان المعرفة أمر العلم والجهل؛ نحسن العلم فنحسن التعبير ونخطئ العلم فيخطئنا التعبير ... وإذا أتيح للتعليم ما ينبغي له من الإصلاح ففهم التلاميذ والطلاب عن أساتذتهم حق الفهم، وامتزج العلم بعقولهم وقلوبهم وأصبح جزءًا من نفوسهم لا شيئًا يستعار اليوم لينطرح غدًا، أتيح للمتعلمين أن يعربوا عما عرفوا من العلم، وأتيح

لهم كذلك أن ينتجوا فيما عرفوا من العلم، وأتيح للعلم أن يتوطن في مصر كما يتوطن فيها أبناؤها وأن يستقر فيها استقرار المواطن، ولا يلم بها إلمام الغريب.

وما يقال بالقياس إلى العلم يقال بالقياس إلى الأدب وبالقياس إلى الفن وبالقياس إلى ما شاء الله من ألوان الثقافة وضروب النشاط العقلي على اختلافه، فلأمرٍ ما نفر الفن من مصر على حظ مصر في عصورها القديمة من إتقان الفنون والتفوق فيها.

ولأمرٍ ما ظلت الموسيقى في مصر، كما يقول ذلك الصديق الكريم الذي كتب إليَّ، في طور السجع والجناس والطباق متكلفة لا تصور شيئًا ولا تدل على شيء.

ومن خصائص الأدب أنه لا يخضع لما تخضع له ألوان المعرفة الأخرى من هذه القيود التي تفرض في المدارس والمعاهد والجامعات. فأنت لا تستطيع اصطناع مهنة الطب أو الهندسة إلا إذا أذنت لك الدولة في ذلك بعد أعوام معينة تقضيها في الدرس النظري والعملي، وبعد امتحانات معينة تجوزها في يسر أو في عسر. ولكنك لا تحتاج إلى إذن الدولة لتكون أديبًا، وإنما يكفي أن تحسن تناول القلم وإجراءه على القرطاس بما يمكن أن يقرأه الناس لترى نفسك أديبًا إن شئت، وليراك الناس أديبًا إن أعجبهم ما تذيع فيهم من فنون القول. وقد أتيحت المطبعة وأتيحت الصحافة في هذا العصر الحديث فأصبح من الممكن لكل كاتب أن ينشر ما يكتب في كتاب أو في صحيفة، فإذا رأى كلامه مطبوعًا في كتاب أو منشورًا في صحيفة ظن أنه أديب. فإذا أحس رضى الناس عما يكتب استيقن أنه من قادة الرأي، وإذا أحس إعراضهم عما يكتب لم يشُكَّ في أنه مظلوم مغبون لا يستطيع الناس أن يفهموا عنه أو يقدروا إنتاجه الرفيع، وإذا أحس سخطهم على ما يكتب، لم يتردد في الثقة بأنه قد سبق العصر الذي كان ينبغي أن يعيش فيه وبأن أدبه قد جاء قبل إبَّانه، وبأن الأجيال المقبلة ستقدره خيرًا مما قدرته الأجيال المعاصرة وستفهم عنه خيرًا مما فهم عنه المعاصرون.

ولست أدري أيجرب الأدباء ما أجرب من هذه الصور الكثيرة التي تصبحني وتمسيني في كل يوم، والتي يعرضها عليَّ أصحابها ليعرفوا رأيي فيها وحكمي عليها وهم واثقون قبل عرضها عليَّ أنها جيدة كل الجودة متقنة كل الإتقان. وهم يرضون عني كل الرضى إذا شجعتهم وأثنيت عليهم، ولكنه رضى موقوت لا يلبث أن يستحيل إلى سخط واتهام بالحسد والجحود والعقوق أيضًا، إذا لم أمضِ في الثناء والتشجيع. وهم يسخطون عليَّ أشد السخط إذا رددت إليهم آثارهم متلطفًا ولم أمنحهم من الثناء والتشجيع ما كانوا ينتظرون. يرون ذلك أثرة وبخلًا وإشفاقًا من منافستهم لي وتفوقهم عليَّ.

وكذلك يكثر الكاتبون عن علم وعن غير علم، ويُنشَر من الكلام ما يُقرأ وما لا يُقرأ ولا سبيل إلى أن تتقي هذا، وتصد الناس عنه. فالصحف محتاجة لأن تفيض أنهارها، وما أكثر ما تفيض الأنهار بالغث والسمين! وإذا رأى صاحب الكلام الغث أن كلامه قد نشر إلى جانب الكلام القيم لم يفرق بين هذا وذاك ولم يشك في أنه أحسن وأجاد، ولم يزده هذا إلا غرورًا، وامتلأ بنفسه ثقة بأنه يستطيع أن يخوض في كل شيء وأن يقضي في كل شيء. وويل للذين لا يذعنون لقضائه حين يقضي ولا يؤمنون بقوله حين يقول.

والصحف لا تستطيع أن تطالب كتَّابها بالتجويد الفني؛ لأن نظامها يعجلها ويعجلهم عن ذلك. وليس المهم بالقياس إلى الصحف أن تنشر الأدب الشائق الرائق فحسب وإنما الذي يعنيها قبل كل شيء أن تنشر ما يفهمه الناس منها على اختلاف طبقاتهم، وهي لا تحفل بترقية الذوق ولا بتهذيب الطبع إلا قليلًا، وإنما تحفل بإذاعة الأنباء وإثارة الميل إلى الاستطلاع. فهي أشد حاجة إلى ما يبلغ ذلك من نفوس قرائها منها إلى ما يمتع عقولهم وأذواقهم ويصلح قلوبهم ويهذب طباعهم. ومن الصحف ما لا يعنيها ذلك قليلًا ولا كثيرًا. والذي تقوله في الصحف تستطيع أن تقوله في الإذاعة التي تتجه إلى الكثرة لا إلى القلة وإلى الكافة لا إلى الصفوة. وكذلك تختلط القيم أشد الاختلاط ولا يفرق القراء أو كثرتهم على أقل تقدير بين الأديب والكاتب الصحفي الذي لا حظ له من عناية بالأدب أو مشاركة فيه.

والناس يتناقلون الأخبار والأحاديث بينهم باللغة التي يتكلمونها لا يتأنقون في ذلك ولا يحتفلون له. فلمَ لا تلقي الصحف إليهم أنباءها وأحاديثها بهذه اللغة التي يتكلمونها؟ ذلك أيسر على كتابها حين يكتبون، وأيسر على قرائها حين يقرءُون. فأما التأنق والاحتفال فصناعة الفارغين للأدب، وليس العصر الذي نعيش فيه عصر فراغ للأدب أو عكوف عليه أو أناة في إنتاجه، وإذا كثر نشر الكلام الذي يُكتب في يسر ويُفهم في يسر ولا يحتاج كاتبه إلى أناة في كتابته لأن الصحيفة تعجله عن الأناة، ولا يحتاج قارئه إلى الأناة في قراءته لأن أعباء الحياة تعجله عن الأناة، إذا كثر نشر هذا الكلام السهل وكثرت معه القراءة السهلة، أَلِفَ الناس هذه السهولة وضاقوا بالمشقة وكرهوا الجهد واحتمال العناء، وأصبح الكسل لهم طبيعة، وزهدوا في الفن وما يكلف أصحابه من إنفاق الوقت والقوة واحتمال المشقة الشاقة والعناء المرهق. وماذا يصنع الطالب والتلميذ بين دروسٍ تُلقَى إليه إلقاءً مهملًا، وصحفٍ تلقي إليه الأخبار والأحاديث إلقاءً مهملًا، وإذاعة تصبحه بالكلام الكثير المختلف الذي يُلقَى إليه إلقاءً مهملًا أيضًا؟ لمَ لا

تصبح حياته كلها إهمالًا في التفكير، وإهمالًا في التعبير، وإهمالًا في البحث والاستقصاء، وإهمالًا في الحكم على الأشياء وفي تقدير الأشياء بينه وبين نفسه؟

ويزيد في خطورة هذه الظواهر كلها أن الحياة العقلية جديدة بالقياس إلى هذه الكثرة التي أخذت تشارك فيها فئة معينة وانتصر التعليم واستيقظ الضمير العام بينها، فعلمنا الحديث وأدبنا الحديث وثقافتنا الحديثة كل ذلك لا يعتمد على سُنَّة موروثة ولا عادات يتلقاها الأبناء عن آبائهم، وإنما هو شيء طارئ بعد أن لم يكن، وهو طارئ بالقياس إلى فريق من الناس دون فريق.

فالمتعلم غريب بين الذين لم يتعلموا، والأبناء الذين يختلفون إلى المدارس والمعاهد والجامعات غرباء حين يروحون إلى بيوتهم ويتحدثون إلى آبائهم وأمهاتهم، بل هم غرباء حين ينصرفون عن مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم.

وهم بحكم هذه الغربة معرضون لكثير من الشر، معرضون لهذا الجهل الذي يغمرهم ويأخذهم من جميع أقطارهم. والاستسلام أيسر من المقاومة والكسل أيسر من العناء. فما لهم لا يعيشون في بيئاتهم إذن، وما لهم لا يحيون حياتين مختلفتين، إحداهما عسيرة يحيونها في معاهد العلم، والأخرى يسيرة يحيونها في الشوارع والأندية والملاعب والدور؟ وكذلك يكون حظ الجهل من حياة الشباب أكثر من حظ العلم، وأثر الجهل في نفوسهم أشد من أثر العلم والأدب والفن ... أشياء يتكلفها الشباب تكلفًا ولا تستجيب لها طباعهم وعقولهم وقلوبهم إلا قليلًا. والنتيجة الطبيعية لهذا كله لو استقامت العقول وصح تقديرنا للأشياء وحُكمنا عليها أن نقاوم الجهل وتأثيره في نفوس الشباب ما استطعنا إلى مقاومته سبيلًا، وأن نُكرِّه إلى شبابنا هذه السهولة التي يألفونها والتي تغريهم بالكسل وترغبهم فيه، ونحبب إليهم الجهد، ونزينه في قلوبهم، ونغريهم بصعاب الأمور، وندعوهم إلى الدخول من الأبواب الضيقة لا من الأبواب الواسعة التي لا تكلف الداخلين منها مشقة ولا جهدًا. والذي أعرفه ويعرفه كثير من الناس أن في الأرض بلادًا أخرى كثيرة غير بلادنا يحيا فيها الشباب حياة تدفعهم دفعًا إلى الاستزادة من العلم والمعرفة في كل لحظة من لحظات النهار والليل، وتدفعهم دفعًا إلى محاولة الجهد واحتمال المشقة وعدم الاستسلام لهذا الكسل الذي يميت القلوب ويخمد جذوة العقول. وهم من أجل ذلك لا يضيقون بلغاتهم؛ لأن العلم بها يدعوهم إلى شيء من الجهد الكثير أو القليل. وهم من أجل ذلك لا يفرضون لغة الشارع على أدبائهم وشعرائهم، وإنما يرفعون أنفسهم بين حين وحين ساعة أو ساعات في كل يوم من حياة الشارع هذه إلى

حياة الكتاب والشعراء في كتبهم ودواوينهم وإلى حياة العلماء في كتبهم ومعاملهم، وإلى حياة الفنانين مستمتعين بما ينتجون من ضروب الفن الجميل على اختلافها، لا يمنعهم ذلك من النهوض بأعباء الحياة اليومية، بل يشجعهم على احتمال هذه الأعباء، يقبلون عليها ويشقون بها مطمئنين إلى أنهم سيتخففون منها آخر النهار بقراءة الشعر أو النثر وبالاستماع إلى آيات الموسيقى، وسيتخففون منها يوم الراحة بالاختلاف إلى المتاحف يستمتعون بما فيها من روائع الفن القديم والحديث، وبالتنزه في الحدائق والرياض ينعمون فيها بجمال الطبيعة وسحرها. وهم بذلك يحيون حياة الإنسان الجدير بهذا الاسم يؤدون للجسم حقه ولملكاتهم العقلية والشعورية حقها. في تلك البلاد يحاول بعض الكتَّاب أن يكتبوا بلغة الشارع، فلا يتاح لهم إلا الإخفاق؛ لأن الناس ينفقون أكثر وقتهم في التحدث بلغة الشارع والاستماع لها، ويريدون أن يستريحوا منها إلى لغة الكتاب والشعر والتصوير والموسيقى وإلى لغة الطبيعة التي لا تتحدث إليَّ وحدها وإنما تتحدث إلى نفوسهم بغير واسطة.

ما أشد حاجتنا إلى أن نفهم حياتنا التي نحياها حق فهمها، ونعلم أننا أشبه شيء بالغريق الذي يقاوم النهر؛ لأنه إن استسلم له أدركه الموت. ونحن نسبح في بحر لا في نهر من الجهل والغفلة ومن الابتذال والإسفاف، فمن الحق علينا لأنفسنا ولوطننا وللأجيال المقبلة من أبنائنا وأحفادنا أن نقاوم هذه الأمواج الجاهلة التي توشك أن تطغى علينا وتضطر نفوسنا إلى الموت وتتركنا أجسامًا تحيا حياة الأنعام لا حياة الناس.

ما أشد حاجتنا إلى أن نبذل أقصى ما نستطيع من الجهد لتصبح حياتنا العقلية كلها تعليمًا لا تجهيلًا!

التمثيل

وهذه خصومة جديدة لست أدري أتقصر أم تطول؟ بل لست أدري أيُعنَى بها الشباب من أدبائنا كما عنوا بالخصومة حول الأدب؟ أيكون في سبيل الحياة أم تكون الحياة في سبيله؟ وحول صورة الأدب أتكون هذا المزاج الذي يمتع القلب والعقل والذوق ويغني النفس بما يثير فيها من الشعور بالجمال والطموح إليه، أم تكون ذلك الكلام اليوناني الذي لا يُقرأ ولا يُفهم لأن أصحابه لم يحسنوا الفهم عن الفيلسوف الإيطالي العظيم بندتو كروتشه، ولم يحسنوا التعبير عما لم يحسنوا فهمه، فقالوا كلامًا يقرؤه الناس فيظنون أنهم يقرءُون تلك الكلمات التي تأتلف منها العزائم والطلسمات والتي يفهمها الجن ولا يجد الناس إلى فهمها سبيلًا؟

أما أنا فأُعنَى بهذه الخصومة الجديدة عناية خاصة؛ لأنها ممتعة في نفسها أولًا، ولأنها تنفع الشباب الذين لم يتورطوا بعد في قراءات غريبة يفهمونها أو لا يفهمونها، ولكنهم في أول حياتهم الأدبية يلتمسون طريقهم ويلتمسون نفوسهم أيضًا ويتهيَّئُون ليظهروا في أثر هذا الجيل من أدبائنا الجدد.

وهذه الخصومة الجديدة أثارها الأستاذ الصديق عزيز أباظة منذ أيام أو أثرتُها أنا منذ عام ونصف عام، والفضل في إثارتها راجع إلى شاعرنا الكبير على كل حال. فقد قدَّمت إلى القراء منذ حين غير قصير قصته الرائعة «غروب الأندلس»، وقلت في تلك المقدمة إني لا أنشط للتمثيل الذي يُعرض على الناس شعرًا في هذه الأيام؛ لأن التمثيل قد شب عن طوق الشعر وتحرر من قيوده وأوزانه، وآثر الحرية الحرة والطلاقة الطليقة اللتين تتاحان في النثر أكثر مما تتاحان في الشعر.

وشاعرنا الكبير صبورٌ حَسَنُ الأناة متئدٌ في كل ما يعمل ومتئدٌ في كل ما يقول، إلى سماحة في الخلق ورجاحة في الحكم وإيثار للعافية وازورار عن المراء. وهو من أجل ذلك

تفضل فتقبل المقدمة بقبول حسن وصدَّر بها الطبعة الأولى لقصته الممتعة، ولكنه على ذلك لم يرضَ رأيي في الشعر التمثيلي الحديث، فصبر من هذا الرأي على ما كره وانتظر حتى سكت عنه الغضب، ثم أقبل في الأسبوع الماضي على رأيي ذلك يجادلني فيه ويريد أن يصرفني عنه، ولكنه مع الأسف الشديد، أو مع السرور الشديد، لم يبلغ شيئًا؛ فهو لم يستطع أن يقنعني بأن الشعر عامة والشعر العربي خاصة يلائم التمثيل في هذه الأيام، وأيسر ما ينبغي أن نفكر فيه حين نعرض لهذا الموضوع هو هذه القصص التمثيلية التي لا تكاد تحصى والتي تشغل ملاعب التمثيل في أوروبا وأمريكا في هذه الأيام، والتي تتجدد تجددًا مطردًا من عام إلى عام، كما تقفو أمواج النهر الجاري ما يسبقها من الأمواج، وكما تقفوها أمواج يسعى بعضها في إثر بعض ما دام النهر جاريًا فيما رُسم له من طريق.

ثم نستقصي هذه القصص وكتَّابها لنرى لأيهم تكون الكثرة الكثيرة؛ أللشعر أم للنثر؟

فإن تكن للشعر فقد أخطأت أنا وأصاب شاعرنا الكبير. وأؤكد له أني أبتهج بخطئي إن أكن مخطئًا أكثر مما يبتهج هو بإصابته إن يكن مصيبًا؛ ذلك لأني أُوثِر الشعر على النثر، وأود لو أتيح لي أن تكون قراءتي كلها شعرًا، بل أن تكون حياتي كلها شعرًا؛ لأن الشعر الجيد جمال خالص يجد الإنسان فيه نفسه وقلبه وعقله وذوقه في غير مشقة ولا جهد، وفي غير كدر ولا رفق، وفي غير غرور ولا كبرياء، ولأن الشعر يخلق لقارئه عالمًا كله صفو، وكله سموٌّ، وكله ارتفاع عن النقائص وتنزُّه عن الصغائر، وكله يسر وإسماح.

وما أرى أن أحدًا يكره أن تكون حياته كلها شعرًا، ولكن الناس يريدون والأقدار تقضي لهم ما تريد هي، لا ما يريدون هم.

والأقدار قد قضت على الناس في هذه الأيام أن يكون حظهم من الشعر قليلًا أو أقل جدًّا من القليل. ومن يدري لعلها قضت عليهم أن تقدم لهم هذه الحياة الغليظة الجافية الخشنة المحفوفة بالمكاره لتمتحن بها نفوسهم وتمحص بها قلوبهم، وتهيئ بها الأخيار منهم لحياة كلها شعر، وكلها روعة وجمال ويسر وإسماح وصفاء ونقاء في الجنة التي ادخرها الله لعباده الصالحين. فأما في هذه الدنيا التي نعيش فيها منذ استأثر العلم بعقول الناس وابتكر لهم ما ابتكر في حياتهم المادية والمعنوية جميعًا، فنحن مكرهون أن نقنع بالنثر الذي أتيح لنا، والذي يلائم هذه الحياة التي نحياها ويؤدي عنا أغراضنا فيها كما يستطيع أن يؤديها عنا.

والشعر ليس نادرًا في التمثيل وحده، ولكنه نادر في الأدب كله، والشعر لا يتاح لكل من استطاع أن يشعر أو يفكر وأحسَّ أن عنده شيئًا يستطيع أن يقوله للناس، وإنما يتاح لقلة قليلة جدًّا من الأفذاذ المختارين الذين يختصهم الله بمواهب ممتازة يأتيها امتيازها من أنها نادرة ليست شائعة ولا ميسرة ولا مكتسبة بالمحاولة والمطاولة والمعاناة وحدها، وإنما تحتاج إلى المحاولة والمطاولة والمعاناة بعد أن توهب لبعض الطباع الخاصة التي يؤثرها الله بموهبة الشعر إيثارًا. وآية ذلك أن كل أديب قد حاول الشعر في أول أمره طموحًا منه إلى هذا المثل الأعلى.

ثم رد عنه أكثر الأدباء حين استبان لهم أنهم أقصر باعًا وأضيق ذراعًا من أن يبلغوه؛ لأن الشعر شيء لا يكتسبه الناس اكتسابًا، وإنما يتلقونه فضلًا من الله الذي يؤتي فضله من يشاء من عباده.

ومهما يكن من شيء فإني أدعو شاعرنا الكبير إلى أن يستقصي معي ما يعرض على الناس من التمثيل في العالم الحديث؛ لنرى أتكون كثرته شعرًا أم نثرًا. وما أشك في أنه إن فعل سيعدل عما زعم في مقاله الأخير من أن أسماء الشعراء الممثلين ليست أقل كثيرًا من أسماء الكتَّاب الممثلين، وسيؤمن إيمانًا لا يبلغه شك من أي ناحية من نواحيه بأن التمثيل قد انصرف عن الشعر منذ عهد بعيد، وبأنه يستطيع أن يعد العشرات والمئات من الكتاب الممثلين الذين يقدمون إلى القراء والنظارة عشرات ومئات من القصص التي كتبت نثرًا دون أن يحصي عشرة واحدة من الشعراء الذين يقدمون إلى الناس قصصًا تمثيلية قد نُظمت شعرًا في هذا العصر الذي نعيش فيه.

ويستطيع الأستاذ أن يذهب إلى المدن الكبرى التي تكثر فيها الملاعب ويزدهر فيها التمثيل، وأنا زعيم بأنه لن يجد خمس قصص شعرية تُمثَّل الآن في العالم كله، على حين أنه سيجد مئات من القصص النثرية تُعرض على الناس في كل ليلة فيها الجيد وفيها الرديء وفيها ما هو بين ذلك، ولكنها كلها قد صُبَّت في النثر صبًّا ولم تُصَغ في الشعر. وفي باريس مثلًا عشرات من ملاعب التمثيل الجادة والهازلة وكلها تعرض على الناس الآن تمثيلًا منثورًا، إلا أن يعرض بعضها قصص الفحول من الشعراء القدماء كشكسبير وكورني وراسين ومن إليهم.

وكم أحب أن يراجع الأستاذ نفسه فيما زعم من أمر الشاعر العظيم إليوت، فتمثيله المنثور أكثر من تمثيله الشعري فيما أعلم، وهو بعد ذلك شاعر يُعنَى بالشعر الخالص أكثر مما يُعنَى بالشعر التمثيلي. وقد يعرض له التمثيل من حين إلى حين فيعمد إليه

ناثرًا أكثر مما يعمد إليه شاعرًا. وفي فرنسا شاعرها العظيم الذي تؤمن له بالتفوق والنبوغ وتؤمن له بالتفوق والنبوغ بلاد أخرى غير فرنسا وهو كلوديل، وتمثيله مع ذلك على كثرته وروعته وتفوُّقه ليس شعرًا وليس نثرًا بالمعنى المألوف، وإنما هو شيء بين ذلك تحرر من الشعر ومن قيوده، ولم يهبط إلى النثر الذي يصطنعه الناس عامة، وإنما اتخذ لنفسه لونًا خاصًّا من النثر لا يكاد أحد يشاركه فيه.

وقل مثل ذلك بالقياس إلى البلاد الأخرى التي يزدهر فيها التمثيل. وما من شك في أن النثر قد انتصر على الشعر في هذه الموقعة التي أثيرت بينهما وهي موقعة التمثيل، وقد كان الأمر بينهما كذلك في جميع العصور وفي جميع البيئات، وبالقياس إلى كثير من فنون القول لا بالقياس إلى التمثيل وحده، فالعرب مثلًا في جاهليتهم لم يعرفوا من فنون الكلام المنثور إلا أحاديثهم اليومية وأمثالهم السائرة وخطبًا قصارًا كانت تُلقى في بعض المقامات ذهبت عنا ولم يبق لنا منها شيء. كانت كثرتهم تجهل الكتابة، وكان الذين يحسنون الكتابة يصطنعونها في معاملاتهم المادية ولا يحسنون التعبير بها عما يريدون حتى في أيسر معاملاتهم. وفي العصر الإسلامي الأول كانت حياتهم العقلية كلها شعرًا وعرفوا النثر في شئون العلوم الدينية وفي شئون السياسة حين كانوا يختصمون، وفي شئون الوعظ حين كان القُصَّاص يذكرون الناس بأيام الله. ثم جعل النثر يقوى شيئًا فشيئًا حتى بلغ أشده في القرن الثاني، وإذا هو لا يكتفي بميادينه المقسومة له من حياة الناس في العلم والفلسفة والرسائل السياسية وغير السياسية، ولكنه يطمع إلى أن ينازع الشعر في بعض فنونه التي كانت خاصة به مقصورة عليه، وإذا هو ينازع الشعر في المدح وينازعه في الهجاء وينازعه في الوصف وينازعه في الرثاء ويقهره في بعض هذه الفنون، فما أظن أنه استطاع أن يبلغ من الهجاء ما بلغه الجاحظ مثلًا منه في رسالة التربيع والتدوير، ولم يعرف العرب التمثيل لا لأن التمثيل اليوناني كان وثني النزعة، فقد كانت الفلسفة اليونانية أيضًا منحرفة عما أَلِف المسلمون والمسيحيون من أمور الدين وأولئك وهؤلاء قد عرفوها حق معرفتها، ولكن لسبب يسير جدًّا وهو أن العرب لم يجدوا التمثيل عند الذين عاصروهم من الروم، فقد أعرضت المسيحية عن التمثيل ولم تكن آيات التمثيل اليوناني تعرض على النظارة أو تقرأ في الكتب حين اتصل المسلمون بالروم. ومن أجل هذا حاول العرب أن يترجموا كتاب الشعر لأرسطاطاليس فلم يستطيعوا أن يفهموه على وجهه؛ لأنهم لم يعرفوا من أمر التراجيديا والكوميديا شيئًا ذا بال. وحاول ابن سينا أن يلخص كتاب الشعر فلم يصنع شيئًا مع أنه قد وُفِّق

إلى تلخيص الخطابة توفيقًا حسنًا. وليس لذلك سبب إلا أن العرب ومن عاصرهم من اليونان كانوا يتحدثون عن التمثيل كما يتحدث الناس عما لا يحققون.

وأمر العرب في هذا كله كأمر غيرهم من الأمم القديمة. كانت حياتها العقلية كلها شعرًا أول الأمر، ثم نشأ فيها النثر فغلب الشعر شيئًا فشيئًا على فنون القول كلها، وحصر الشعر في فن واحد من الفنون وهو الغناء. فقد كان التاريخ مثلًا أو الحديث عما مضى من أمور الناس يكون شعرًا قصصيًّا، ثم غلب النثر على هذا الفن قليلًا قليلًا حتى أقصى الشعر عنه إقصاء، بل كان تسجيل العلم نفسه يكون شعرًا، واذكر إن شئت قصيدة الأعمال والأيام للشاعر اليوناني القديم أسيودوس. ثم جعل تسجيل العلم يكون نثرًا قليلًا قليلًا حتى استأثر النثر به كله، وأصبح نظم العلم شعرًا شيئًا تعمد إليه الأمم المتحضرة عن إرادة وتكلف ورغبة في تيسير الحفظ والاستظهار على الطلاب الناشئين لا طبيعة سائغة ميسرة.

وكذلك استأثر النثر بالحياة العقلية الإنسانية، ولم يبق للشعر إلا اللون الغنائي من هذه الحياة، على أن النثر كثيرًا ما يزاحمه في هذا اللون أيضًا، حتى اضطر الشعر في العصور الحديثة إلى أن يتحرر أحيانًا من قيوده التقليدية، فيطرح القافية، وييسر الوزن ويبعد عن أصله الموروث، ويدنو من النثر دنوًّا شديدًا.

ومن هنا نشأ ما يسميه الناس شعرًا منثورًا وما يسمونه شعرًا حرًّا، وما يسميه بعضهم شعرًا أبيض. كل هذا جاء من تغلب النثر على الشعر، ومن طموح الناس إلى الحرية الحرة التي لا تحب القيود حتى في الأشياء التي ألفت فيها القيود. فاستحالة التمثيل من الشعر إلى النثر ليست شيئًا غريبًا في الظواهر الأدبية لا بالقياس إلى أمة بعينها، بل بالقياس إلى الأمم كلها.

وقد كان التمثيل الأوروبي في أول أمره أيام النهضة شعرًا؛ لأن الأوروبيين ذهبوا به مذهب القدماء من اليونانيين واللاتينيين فنظموه شعرًا، كما كان أولئك يفعلون، بل تخيروا أكثر الموضوعات التي نظموا فيها الشعر التمثيلي بين الموضوعات التي كان القدماء ينظمون فيها شعرهم، فعرضوا لأساطير اليونان والرومان ولبعض الأنباء التاريخية اليونانية والرومانية، وقلما كانوا يعرضون لغير هذه الأساطير والأنباء من الموضوعات.

وتحرر أصحاب الكوميديا من هذا كله، كما كان القدماء من اليونان والرومان يتحررون منه، فاشتقوا موضوعاتهم من حياة الناس الذين كانوا يعاصرونهم كما فعل

موليير في أكثر قصصه، وكما فعل أرستوفان من قبله عند اليونان، ولكن القرن الثامن عشر لم يكد يظل الأدب الأوروبي حتى جعل التمثيل يتحرر من هذه القيود كلها، فعمد إلى النثر مكان الشعر عند كثير من الممثلين، وترك الموضوعات القديمة إلى الموضوعات الحديثة، وما زال يمضي في طريقه هذه ثائرًا على مذهب القدماء حتى انتهى إلى حيث نراه الآن، لا يلم بالشعر إلا قليلًا، وإذا ألم به لم يستأثر بالنظارة إلا أن يكون شعرًا ممتازًا حقًّا، كما فعل إدمون روستان في أواخر القرن الماضي وفي أوائل هذا القرن، وكما يحاول بعض الشعراء الآن أن يفعلوا بين حين وحين.

فالتمثيل الشعري الآن طرفة نادرة يطرف بعض الشعراء الممتازين بها الناس وقتًا بعد وقت، ولا يمنعهم ذلك من أن يعمدوا إلى النثر في بعض القصص؛ لأن النثر قد أصبح اللغة الطبيعية للتمثيل منذ وقت غير قصير.

وقد عرف العرب فن التمثيل بآخرةٍ حين اتصلوا بالأوروبيين ورأوا ملاعبهم وشهدوا تمثيلهم وقرءوا أدبهم التمثيلي على اختلاف ألوانه، فحاول بعضهم أن يدخل هذا الفن في الأدب العربي مقلدين أول الأمر ثم مبتكرين بعد ذلك في ظروف قليلة جدًّا، فنقلوا كثيرًا من القصص الفرنسية والإنجليزية نقلًا مقاربًا أول الأمر ونقلًا دقيقًا في بعض الأحيان، وأخذوا يعرضون هذه القصص على النظارة من الشرقيين وأتيح لهم شيء من النجح. فألف الناس الملاعب، وجعلوا يختلفون إليها وجعل الممثلون يستهوونهم بالشعر والغناء وأشياء أخرى غير الشعر والغناء، والناس يستجيبون لهم مستمتعين بما يعرض عليهم. وبعض الشباب يشغفهم هذا الفن ويستأثر بقلوبهم وأهوائهم، ثم يستهوي ملكاتهم قليلًا قليلًا، فيحاولون أن ينشئوا تمثيلًا عربيًّا أصيلًا. وما أرى أن أديبينا العظيمين الأستاذ محمود تيمور والأستاذ توفيق الحكيم قد أحبا هذا الفن وحاولا أن ينتجا فيه إلا متأثرين بما كانا يشهدان من هذا التمثيل في آخر الصبا وأول الشباب، ثم قرآ وتثقفا وتعمقا هذا الفن وأتيح لهما بعد ذلك ما أتيح من الإبداع والإمتاع.

وثورتنا بالإنجليز في أعقاب الحرب العالمية الأولى هي التي أذكت جذوة التمثيل في مصر ما في ذلك شك، فهي قد أذكت شعورنا بأنفسنا وغضبنا لكرامتنا ومطالبتنا بحقوقنا وذودنا عن حريتنا، وكشفت عن كنوز كانت مخبوءة في أعماق ضمائرنا، وفرضت على كل واحد منا أن يعطي خير ما عنده لنفرض نفسنا على خصمنا ولنشعر العالم بآلامنا وآمالنا وسمونا إلى حقنا في الحياة الحرة الكريمة. وهي قد حولت شوقي من القصر إلى الشعب وأمعنت بحافظ في الإقبال على الشعب يؤثره بخلاصة شعره

من دون الأغنياء والموسرين. وهي قد اضطرت شوقي إلى أن يشارك في الحياة الجديدة بلون جديد لفنه الشعري العظيم. أكبَرَتْ رأيه في نفسه وأكبَرَتْ رأيه في أمته وقوة إيمانه بمواطنيه وسمت به إلى أن يذهب مذهب الشعراء الكبار في الأمم الكبرى، فحاول أن يكون له تمثيل كتمثيل شكسبير وكتمثيل كورني وراسين، وكتمثيل فيكتور هوجو؛ فوضع قَصَصه التمثيلي المأثور.

ولكن شوقي كان صاحب غناء لا صاحب تمثيل، وكان مبتدئًا في هذا الفن التمثيلي؛ فلم يُتَح له من الإتقان إلا ما أتيح للمبتدئين النابهين. وكان تمثيله غناء وقد غنى فيه المغنون بالفعل، وعاش جيل من معاصريه مستمتعًا بغناء عبد الوهاب ومنيرة المهدية لبيته المشهور: أنا أنطونيو وأنطونيو أنا.

وأظهر ما يلاحظ في تمثيل شوقي أنه قصد بفنه إلى موضوعات مصرية يرفع بها من شأن وطنه ويميط بها عنه الأذى كما فعل في كليوبترة وفي قمبيز، وقصد به إلى موضوعات عربية يصور بها مجدًا عربيًّا مؤصلًا ثابت الأسس، ينعم الناس في ظله بالسلم والحب والغناء جميعًا آمنين في استمتاعهم بهذا كله لا يصرفهم عنه خوف أو قلق؛ فأنشأ قصة المجنون، وكان الناس يطربون لغناء شوقي في قَصَصه ذاك أكثر مما يعجبون أو يخلبون بتمثيله. وربما خضع شوقي لتأثير بعض الشعراء الأوروبيين الذين كان يحاكيهم خضوعًا ظاهرًا نلمسه بأيدينا إذا حاولنا أن نحلل قَصَصه التمثيلي ذاك.

والشيء المحقق هو أن شوقي أحدث حدثًا أدبيًّا سيحفظه التاريخ حين طوَّع الشعر العربي للتمثيل، ولكن التاريخ سيحفظ هذا الحدث وحده دون أن يحفظ لشوقي فنًّا تمثيليًّا ممتازًا. سيظل شوقي دائمًا شاعر غناء لا شاعر تمثيل.

وذهب شاعرنا الكبير عزيز أباظة مذهب شوقي نفسه لم ينحرف عنه قليلًا أو كثيرًا إلا بمقدار ما يكون بين شاعرين من اختلاف المزاج وافتراق الطبيعة وتفاوت الأهواء. فشاعرنا عزيز أباظة مغنٍّ سواء أراد ذلك أو لم يرده، وحظه من إتقان التمثيل الخالص محدود جدًّا. يؤمن بذلك من يقرأ شعره ومن يشهد قصصه في ملاعب التمثيل. فقراؤه ونظارته يطربون لجزالة لفظه ودقة معانيه ورقة أسلوبه وحسن تأتيه لما يريد، أكثر مما يطربون لما يحسن من تدبير الحركة ولما يتقن من إجراء الحوار. وشعر عزيز أباظة كشعر شوقي يشغلنا بجماله الخالص عن أشخاصه، فنحن حين نقرأ أو نشهد قصة العباسة لا نحفل بالعباسة نفسها، ولا بالرشيد ولا بجعفر، وإنما نحفل بالشعر الذي يجريه الشاعر على ألسنتهم. وقل مثل ذلك بالقياس إلى قصصه الأخرى ومنها غروب

الأندلس. فن غنائي رائع ما في ذلك شك، وتمثيل ساذج يسيرٌ ما في ذلك شك أيضًا. ولمَ لا نقول الحق ونقرر في صراحة أنَّ التمثيل عند شاعرينا الكبيرين شوقي وعزيز وسيلة إلى الغناء، على أنه عند الشعراء المجيدين من الأوروبيين الممتازين غاية يتخذ الغناء أحيانًا وسيلة إليه؟ فليس شكسبير ولا راسين مغنِّيَين في تمثيلهما، وإنما هما ممثلان أولًا يغنيان في مواطن الغناء على حين يغني شوقي وعزيز دائمًا ولا يمثلان إلا قليلًا.

ولا على الشاعرين العظيمين المصريين أن يفوتهما التمثيل، فالتمثيل آخر الأمر أقل خطرًا من الغناء وأهون منه شأنًا. قد استأثر به النثر في هذه الأيام ولم يستطع هذا النثر أن يغلب على الغناء ولا أن يشارك فيه مشاركة ذات بال.

وإذا قلت إن النثر قد غلب على التمثيل فأنا لا أريد على أن أقرر حقيقة واقعة، ولا أريد ولا ينبغي لي أن أريد إصدار حكم يجب أن يخضع له الفن، فليس لأحد من الناس أن يصدر مثل هذا الحكم؛ لأن الفن بطبعه أقوى قوةً وأعز عزةً من أن يخضع لأحكام الناس مهما يكونوا ومهما تكن أحكامهم، وإنما الشاعر ينبوع صفو يعطينا ماءه النمير سواء أردنا ذلك أم لم نرده، ولا على الينبوع أن نقول في هذا الماء الصفو ما نقول، فلن يغير قولنا ولن تغير آراؤنا من طبيعته ولا من طبيعة ما يعطينا. هو حر فيما يعطي، ونحن أحرار فيما نصنع بما يهدي إلينا. هو يصدر عن طبيعته في الإعطاء ونحن نصدر عن طبيعتنا في الانتفاع والاستمتاع.

فليفض علينا شاعرنا الكبير من فنه ما تسمح به طبيعته، وليخلِّ بيننا وبين ما نرى في شعره من رأي وما نصدر فيه من حكم، فهو الممتع دائمًا ونحن المدعوون إلى مائدته الكريمة، وأي بأس عليه من أن نرضى أو نسخط حين نستمتع بما يقدم إلينا من الألوان. أترى الشمس تحفل بنا إن رضينا عن نورها الوضاء أو سخطنا عليه؟

لا بأس إذن على شاعرنا الكبير من أن يقول فنرضى نحن أو نسخط، ونعرف نحن أو ننكر، وليذكر قول رؤبة لبعض اللغويين حين أخذ يجادله في بعض رَجَزه: علينا نقول وعليكم تعربون.

إسراف

لا أريد الإسراف في المال، فلست من المال وأصحابه في شيء، ولا أريد الإسراف في السياسة، فما أحب أن أكون من السياسة وأصحابها في شيء، وإنما أريد الإسراف في تقدير الأدب والحكم عليه، وفي تقدير الأدباء والحكم عليهم، وفي إقحام العلوم المختلفة في الدرس الأدبي بغير حساب. وكان يقال فيما مضى من الزمان إن النحو في الكلام كالملح في الطعام، كثير منه يخرج الكلام عن طوره ويفسده، وقليل منه ينزل بالكلام عن قدره ويفسده أيضًا. وكان الفلاسفة من أصحاب أرسطاطاليس يقولون إن الفضيلة وسط بين رذيلتين؛ تأتي إحداهما من التقصير، وتأتي الأخرى من الإفراط. وقد حفظنا منذ الصبا أن خير الأمور أوساطها. والإسراف شر في كل شيء، ولكنه أشد ما يكون نكرًا حين يمس الأدب ودراساته فيخرجه عن ملاءمة الذوق ويحول بينه وبين أخص ما يمتاز به من تحقيق المتعة الفنية للقلب والعقل جميعًا. أقول هذا كله بعد أن فرغت من قراءة كتاب عن نفسية أبي نواس لأستاذ نابه ممتاز لا شك في نباهته وامتيازه؛ هو الأستاذ الدكتور محمد النويهي أستاذ الأدب العربي بكلية الخرطوم الجامعية.

وأحب أن أقرر قبل كل شيء أن الكتاب يصور جهدًا عنيفًا حقًّا في البحث والدرس والاستقصاء والتأمل المتمهل المستأني الذي يطيل الوقوف عند القصيدة من قصائد أبي نواس، بل عند البيت الواحد من كل قصيدة حتى يستخرج من القصيدة أخلص خلاصتها ويستخرج من البيت روحه الخفية، لا في لطف ورفق وحسن تأتٍّ كما كان يفعل أبو نواس حين قال:

ما زلت أستل روح الدن في لطف وأستقي دمه من جوف مجروح

حتى انثنيت ولي روحان في جسدي والدن منطرح جسمًا بلا روح

بل في قسوةٍ قاسية وعنفٍ عنيف أشبه شيء بما تصنع الآلات القوية التي تهصر الأشياء هصرًا وتعصرها عصرًا، وتستخرج خلاصتها في غير رفق ولا مهل ولا أناة. ثم هو لم يكتفِ بهذا الدرس العميق العنيف لشعر أبي نواس البائس، وإنما صنع هذا الصنيع نفسه بفلسفة فرويد وبكثير من الدراسات العلمية التي قام بها جماعة من العلماء بخصائص الشعوب البدائية قديمها وحديثها، ولكثير من الدراسات الدينية بعضها يمس الديانات السماوية وبعضها يمس ديانات أخرى قديمة وحديثة. ثم هو لم يكتفِ بهذا كله، ولكنه جمع ما استخلصه من كل هذه العصارات المختلفة: عصارة أبي نواس وعصارة فرويد وعصارات الدراسات المختلفة لأجيال الناس وعاداتهم ودياناتهم، فخلطها خلطًا ومخضها مخضًا واستخرج منها كائنًا غريبًا عرضه علينا في كتابه هذا وسماه أبا نواس. ومن حق الأستاذ أن نعرف له هذا الجهد، ونقدر له ما احتمل من مشقة وعناء، ونسجل له البراعة والمهارة والفطنة والذكاء، ونحمد له آخر الأمر أنه ليس من الذين يبيعون وقتهم في هذه الحياة الفارغة التي لا تغني عنهم ولا عن غيرهم شيئًا، وإنما هو صاحب جدٍّ متصل ونشاطٍ خصب وعكوفٍ دائم على الدرس والبحث والإنتاج، وإخلاصٍ صادق في كل ما يحاول من ذلك، وحرصٍ مؤكد على أن ينفع الناس بما يصل إليه من نتائج البحث وما يخرج لهم من هذه الكتب التي يتبع بعضها بعضًا والتي لا يمكن أن يوصف شيء منها بالعجلة أو بقلة النضج. ولكن من حقنا نحن بعد ذلك أن نتحفظ أشد التحفظ حين نريد الحكم على منهجه في الدرس الأدبي لهذا الشاعر الشقي العظيم أبي نواس.

وأول ما يدعونا إليه هذا التحفظ هو أن أبا نواس شاعر قديم، ودراسة الشعراء القدماء لا تحتمل كل هذا التمحيص الذي حاوله الأستاذ؛ لأنا لا نعرف من حقائق حياتهم إلا أقلها وأيسرها. ونحن إن سألنا التاريخ لم يكد ينبئنا من حياة أبي نواس بشيء ذي بال، إنما هي أطراف حفظها الرواة، وعسى أن يكونوا قد أضافوا إليها من أحاديث الناس ومن عند أنفسهم ما ليس بينه وبينها سبب. فالشعراء النابهون يكثر عنهم حديث الناس، وتُختَرع لهم الأساطير قبل أن يموتوا، ثم تنمو هذه الأساطير بعد موتهم إلى غير حد، ولا سيما حين يكون هؤلاء الشعراء من أصحاب اللهو والعبث والمجون الذين يسرفون على أنفسهم من ذلك كله في الفعل، ثم يقولون أكثر مما يفعلون،

والذين وصفهم القرآن الكريم أصدق وصف وأقومه في قول الله عز وجل: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

فإذا أردنا أن ندرس حياة هؤلاء الشعراء فالخير كل الخير أن نحتاط ونتحفظ ونتجنب الجزم الذي يحتاج إلى استقصاء لا سبيل إليه. فكيف بالأستاذ الدكتور النويهي حين أراد أن يطبق نظريات فرويد على أبي نواس، فزعم لنا أنه ضاق بأمه؛ لأنها لم تفرغ له ولم تمنحه من حبها وعطفها وحنانها كل ما كان يريد؛ لأنها شغلت عنه بالقوت بعد أن مات أبوه، وكسبت القوت بنفسها ولابنها من وجه نقي أو وجه آثم أشد الإثم. وكان لهذا الحرمان الذي فُرِض على أبي نواس حين انصرفت عنه أمه إلى العمل أخطر الآثار في حياته، فكره النساء جميعًا لأنه كره أمه، وكره أمه لأنه أراد عندها أشياء لم يبلغها، فأصابت نفسه هذه العقدة التي يسميها فرويد وأصحابه عقدة أوديب. ثم لم يقف أمر أبي نواس عند هذا الحد فيما يرى الأستاذ، ولكن انصرافه عن النساء دفعه إلى ألوان آثمة بغيضة من الحب أمعن فيها أشد الإمعان واستهتر بها أعظم الاستهتار وقال فيها ما قال من شعره الكثير. ثم كان انصرافه عن أمه وضيقه بها وإمعانه في حبه الآثم ذاك مصدرًا لهيامه بالخمر واستهتاره بمعاقرتها في غير تحفُّظ ولا احتياط، وفي غير تأثُّم أيضًا. وكذلك يستقيم للأستاذ تفسير رائع خلاب لحياة أبي نواس وشعره على أحدث المذاهب العلمية في التحليل النفسي. وهو مذهب لا عيب فيه، إلا أنه متكلف من أصله لا يقوم على أساس متين من تاريخ أبي نواس أو من شعره، وإنما يقوم على أساس من الفرض الذي عمد إليه المؤلف ليكون مبتكرًا مجددًا أسرف على نفسه وأسرف على أبي نواس وأسرف على قرائه آخر الأمر.

والعلماء المعاصرون لم يطمئنوا بعدُ كل الاطمئنان إلى نظريات فرويد ولا إلى ما نشأ عنها من فنون التحليل النفسي الذي أصبح بدعًا شائعًا في أوروبا وهام به الأمريكيون هيامًا شديدًا، فكيف وأنا لست مطمئنًّا إلى أن أصحاب فرويد وأصحاب التحليل النفسي يرضون عما صنع الأستاذ بنظرياتهم حين حاول أن يطبقها على شاعر قديم لم نكد نعلم من دقائق حياته الواقعة شيئًا ذا خطر. ويزيد أمر أبي نواس تعقيدًا حبه للخمر وتهالكه عليها وتفسير الأستاذ لهذا التهالك وذلك الحب، فقد أكثر أبو نواس من تشبيه الخمر بالعروس ومن تشبيه سعيه إليها بخطبة الخاطب ومن تشبيه ثمنها بالمهر، فما أيسر ما رأى الأستاذ في هذا أن الشاعر قد أحب الخمر حبًّا جنسيًّا! وما أسرع ما ألغى التشبيه والمجاز والاستعارة في شعر أبي نواس كله وجعل كل ما تصرف فيه من ألوان

القول وأساليب البيان حقائق تصوِّر حياته الواقعة تصويرًا دقيقًا! وأبو نواس يهيم بالخمر هيامًا يوشك أن يكون عبادة، فما أسرع ما يراه الأستاذ عبادة بالفعل! وكان أبو نواس كغيره من أمثاله الشعراء؛ يلتمس لذته في كثير من الأحيان في بعض الأديرة، فوصف القسس والرهبان والبِيَع والأديرة في كثير من الثناء والتقريظ، فما أسرع ما يجد الأستاذ في هذا كلفًا ظاهرًا أو خفيًّا بأشكال العبادة المسيحية عند أبي نواس! وقد أحس أبو نواس الندم بين حين وحين فقال شعرًا رائعًا في الزهد، يصدق فيه مرة ويتكلف فنًّا من فنون الشعر مرة أخرى، فما أسرع ما يرى الأستاذ أن الشاعر كان مؤمنًا أصدق الإيمان وأقواه! وكذلك يستوي للأستاذ من أبي نواس رجل فتن بأمه، ثم قرف عنها حين فتن بحبه ذاك الآثم، ثم أحب الخمر حتى رأى شربها دينًا، ثم فتن بها فتنة جنسية، ثم كلف بأشكال العبادة المسيحية، ثم كان مع هذا كله مسلمًا صادق الإسلام.

وأمر أبي نواس أيسر من هذا جدًّا، وأقوى من هذا جدًّا، وأروع من هذا جدًّا لو درسه الأستاذ على أنه شاعر ممتاز من شعراء الحب والخمر والمجون، ولو عُنِي بأدبه وفنه وروعة شعره أكثر مما عُنِي بشخصه الذي لا نعرف من أمره إلا قليلًا. وشخص أبي نواس بعد ذلك كشخص من شئت من الناس أقبل على الحياة فامتحن فيها بألوان الخير والشر، ثم صار إلى الله كما يصير الناس كلهم إلى الله يعذبهم إن شاء ويتوب عليهم إن شاء. فما أكثر الذين يمكن أن تطبق عليهم نظريات فرويد في كثير من الثقة والدقة والفائدة أيضًا! فليعمد الأستاذ إلى من حوله من المعاصرين فيحلل نفوسهم كما يحب ويهوى. فأما أبو نواس وأمثاله الأدباء فنحن في حاجة إلى أن نتذوق أدبهم ونستسيغه، فنستمتع بما فيه من روعة وجمال أكثر من حاجتنا إلى تحليل نفوسهم من غير علم بها ولا دليل عليها. وإني لأنصح للأستاذ أن يعود إلى أبي نواس فيدرسه درس الأديب الناقد، ويدع التحليل النفسي لأصحابه الهائمين به الغارقين فيه.

بؤس أبي نواس

رحم الله أبا نواس وغفر له، فلسنا نملك إلا أن نستنزل عليه رحمة الله في الآخرة بعد أن صُبَّت عليه نقمة الناس في الدنيا.

فما أعرف من شعرائنا القدماء من كَثُر القول فيه واختلف الحكم عليه وذهب الناس في أمره المذاهب مثل أبي نواس.

أعجب به النقاد القدماء والمحدثون أشد الإعجاب، وسخطوا عليه أعظم السخط، ورضي عنه النُّسَّاك والفقهاء حينًا، وضاقوا به أحيانًا.

ولَهَا بالحديث عنه خاصةُ الناس وعامتهم وذهبوا في اللهو بحديثه مذاهب الجد والهزل.

ثم لم يَكْفِهِم ذلك فأضافوا إليه من الأقوال والأعمال ما لم يقل ولم يعمل، ثم لم يَكْفِهِم ذلك فاخترعوا له صورة شعبية ليس بينها وبينه صلة، واخترعت الخاصة له صورة أخرى مثقفة مهذبة كانت شرًّا من الصورة الشعبية.

وقد اختُرِعت هذه الصورة المثقفة المهذبة بعد موت أبي نواس بوقت قصير وعسى أن تكون اختُرِعت في حياته، اخترعها المعجبون به والساخطون عليه. أولئك غلوا فيه فحمَّلوه ما لم يحمل، وهؤلاء أسرفوا عليه فأضافوا إليه من منكر القول والعمل ما لم يخطر له على بال.

ولست أدري ماذا كان يصنع أبو نواس لو أتيح له أن يُنشَر بعد موته ويسمع أو يقرأ ما يُروى عنه وما يُحمل عليه وما يُكتَب فيه. والشيء المحقق هو أنه لو عاد إلى هذه الدنيا ورأى الصور التي اختُرِعت له والأحاديث التي تقال عنه لأنكر نفسه أشد الإنكار.

وقد صور الأستاذ العقاد شيئًا من ذلك في كتابه الذي أصدره منذ أيام، ثم لم يَكْفِهِ ما صور من ذلك فأضاف هو أيضًا صورة جديدة إلى أبي نواس ما أرى أنه يعرفها لو أتيح له أن يظهر عليها.

وقد تحدثت في العام الماضي عن هذه العناية المتجددة بأبي نواس في هذا العصر الذي نعيش فيه، فعللت ذلك تعليلًا مقاربًا بما يمكن أن يكون من الشبه بين ما يجد الناس بعد الثورة من الشعور بالتحرر والسخط على كثير من التقاليد الموروثة.

فقد أصدر الأستاذ عبد الرحمن صدقي كتابين عن أبي نواس في أوقات متقاربة، ثم أصدر الدكتور النويهي كتابًا عن أبي نواس في الصيف الماضي، ونُشِر ديوان أبي نواس في الصيف الماضي في طبعة مصرية جديدة.

وهذا الأستاذ العقاد يصدر عن أبي نواس هذا الكتاب الأخير.

وأكبر الظن أن أبا نواس سيرى لنفسه صورة مقاربة فيما كتب عنه الأستاذ عبد الرحمن صدقي؛ لأنه ذهب في كتابته عنه مذهب القدماء فلم يتكثر عليه، ولم يذهب في تصويره المذاهب وإن كان قد جدد درسه وفهم شعره إلى حد ما.

وأكبر الظن كذلك أن أبا نواس سينكر بعض ما حُمِل عليه من شعر غيره في الطبعة المصرية الجديدة، وما أكثر ما حُمِل عليه فيما مضى من الدهر!

ولكن الشيء الذي ليس فيه شك هو أن الحساب الذي سيكون بينه وبين الدكتور النويهي سيكون حسابًا منكرًا عسيرًا، وأن الحساب الذي سيكون بينه وبين الأستاذ العقاد سيكون شاقًّا ثقيلًا.

وما رأيك في أن الدكتور النويهي قد ذهب بأبي نواس مذاهب لم تخطر له ولا لأحد من الذين عاصروه أو جاءوا بعده، ولم تخطر لأحد من الذين درسوه في العصر الحديث؟ فقد زعم أن نفسه قد أدركها ما يسميه الباحثون المحدثون من أصحاب التحليل النفسي عقدة أوديب، فأحب أمه وكلف بها كلفًا بلغ الهيام وحيل بينه وبين غايات هذا الحب، فأدركه ما أدركه من هذه العلة التي أفسدت عليه أمره كله، وحولته عن الجادة إلى الطريق الملتوية في الحب.

ثم لم يقف عند ذلك، بل ذهب في وصفه للخمر وغلوه في هذا الوصف مذهبًا ليس أقل التواء من مذهبه الأول، فزعم أنه قد عبد الخمر واتخذ عبادة الخمر دينًا، وافتن في ذلك كله افتنانًا فيه طرافة وروعة، ولكنه لا يمس الشاعر البائس من قريب ولا بعيد.

وتبعة هذا الإسراف الذي كلف صاحبه من المشقة والجهد شيئًا عظيمًا لا يحملها أبو نواس؛ لأنه لم يقارف من هذه الآثام التي حُمِلت عليه قليلًا أو كثيرًا.

ولا يحملها شعر أبي نواس؛ لأنه لم يصور من هذه الآفات التي أضيفت إليه شيئًا. وإنما تُحمل هذه التبعة على علماء التحليل النفسي الذين استكشفوا علمهم هذا الجديد فأغووا به المتقنين له الذين يتحفظون فيه ويجورون به عن القصد أحيانًا، ثم يغرون به القادرين عليه والعاجزين عنه فيضلون به كثيرًا من الناس.

ويحمل هذه التبعة الدكتور النويهي نفسه؛ لأنه التوى بقراءة الشعر عن الطريق السواء، ففهمه على غير وجهه وحمل عليه من الأثقال ما لا يطيق، وأضاع روعته وجماله وأذهب بهجته ورواءه وجعله أشبه بما يعرض للمحموم من الهذيان.

وأنت تستطيع أن تقرأ شعر أبي نواس ما صح له منه وما اختُرِع عليه فلن تجد فيه ما يشير إلى هاتين الآفتين من قريب أو بعيد، وإنما هو شعر كشعر الذين عاصروا أبا نواس قد طرق الموضوعات التي طرقوها وذهب المذاهب التي ذهبوها، وامتاز بما أتيح له من هذه الخصال الفنية التي أسبغتها عليه شخصية أبي نواس ونبوغه الفني لا أكثر من ذلك ولا أقل.

ومن أيسر الأشياء أن يذهب الباحث بشعر بشار ومطيع وحماد عجرد والخليع وغيرهم من الذين عاصروا أبا نواس أو جاءوا بعده مذهب الدكتور النويهي فينتهي بهم جميعًا إلى أنهم قد أدركتهم عقدة أوديب، هذه التي ابتكرها علماء التحليل النفسي في هذا العصر الحديث، فكانوا جميعًا يحبون أمهاتهم ويكلفون بهن، ثم لا يبلغون بحبهم غايته فيُدفعون إلى ما دُفِعوا إليه من الانحراف والشذوذ.

وكل هؤلاء قد وصفوا الخمر وغلوا في وصفها وقالوا فيها ما لم يُسبَقوا إليه، فجائز أن يقال فيهم مثل ما قال الدكتور النويهي في أبي نواس إنهم عبدوا الخمر واتخذوا عبادتها دينًا. والإسراف في هذا كله واضح أشد الوضوح. ولست أدري ماذا كان يصنع علماء التحليل النفسي لو أن اليونان لم يلقوا إليهم بأسطورة أوديب هذا الذي خدعته الأقدار فاتخذ أمه له زوجًا، ثم عاقب نفسه وعاقبت أمه نفسها ذلك العقاب المعروف؟

بل لست أدري ماذا كان يصنع علماء التحليل النفسي لو أن الشاعر اليوناني سوفوكليس لم ينشئ قصته تلك التي ازدحم عليها الشعراء من بعده على اختلاف العصور والشعوب، فأنشئوا ما أنشئوا من القصص الكثيرة التي تختلف براعة وروعة وجمالًا؟

أكانوا يهتدون إلى هذه الآفة ويزعمون أنها آفة شائعة يمتحن بها كثير من الناس؟

وأغرب ما في هذا الأمر أن قصة أوديب هذه أسطورة لا يحققها تاريخ ولا يهتدي إليها بحث، وعسى ألا يكون لها أصل من واقع الحياة اليونانية القديمة، ولكن للفن أعاجيبه وللعلم أعاجيبه أيضًا.

وما أريد أن أجادل علماء التحليل النفسي في شيء من أمرهم، فلست أملك وسائل هذا الجدل ولا أقدر عليها ولا أحب أن أقحم نفسي فيما ليس لي به علم.

ولكن الشيء الذي أستطيع أن أقطع به هو أن الأدباء الذين يقحمون أنفسهم على هذا العلم دون تعمق له أو تخصص فيه يسرفون على أنفسهم ويجنون على الأدب والفن وعلى الناس أيضًا سيئات لا تكاد تحصى.

ذلك أن العلماء لهم مذاهبهم في البحث يخطئون فيها ويصيبون، وهم يعتمدون في بحثهم على التجارب فتستقيم لهم حينًا وتخطئهم أحيانًا.

أما الأدباء فيذهبون في ذلك مذهب التقليد والمحاكاة لا مذهب الاستكشاف والاجتهاد. وما أعرف شيئًا لا يصلح فيه التقليد عن غير خبرة ولا فقه كالعلم.

وإذا كان من العسير على الأدباء أن يجروا آراءهم هذه التقليدية على الأحياء الذين يرونهم، ويستطيعون أن يقولوا لهم ويسمعوا منهم ويراقبوهم من قرب أو من بعد؛ لأنهم لا يملكون أداة هذا البحث ولا يحسنون التصرف بها إن أتيحت لهم، فكيف بهم حين يجرون هذه الآراء على الموتى الذين بعد بهم العهد ولم يبق لنا منهم إلا الأحاديث؟

وكم يكون طريفًا أن يعمد المقلدون لأصحاب التحليل النفسي إلى التراث الأدبي والفني العربي والإنساني بمثل هذا التحليل، إذن لا تكون أحاديثهم إلا ألوانًا من الأعاجيب التي لا تنقضي ولا يستطيع العقل أن يحيط بها.

فكيف كان سقراط؟ وكيف كان أرسطاطاليس؟ وكيف كان أفلاطون؟ وأي آفة من هذه الآفات الكثيرة التي يستكشفها المحللون النفسيون أنتجت فلسفة هؤلاء الفلاسفة وغيرهم من قدماء الفلاسفة ومحدثيهم؟

لماذا تحدى سقراط الموت وتحدى معه الأثينيين، ووقف موقفه ذاك الرائع الذي يصوره لنا أفلاطون أبرع تصوير وأجمله؟

ولماذا ذهب أفلاطون في أبواب الفلسفة هذه المذاهب الرائعة التي التقت فيها الفلسفة العليا والشعر الذي بلغ أقصى ما يمكن أن يبلغ من الجمال؟

ولماذا أمعن أرسطاطاليس في فلسفته تلك الخصبة المفضلة التي عاشت عليها الإنسانية العاقلة ولم تفرغ بعد من الانتفاع بها؟

وما الذي دفع مسلم بن الوليد إلى العناية باللفظ والانحراف عما ألف الشعراء …؟

وأي آفة نفسية دفعت أبا تمام إلى الانحراف عن عمود الشعر كما كان الأقدمون يقولون والإسراف في هذه الاستعارات الغريبة والمعاني الدقيقة؟

ولماذا أسرف المتنبي على نفسه في الثورة الجامحة شابًّا، وفي السخط على الحياة والأحياء بعد ذلك، وفي الحرص على الحياة ومنافعها آخر الأمر؟

ولماذا تشاءم أبو العلاء وسار هذه السيرة التي لم يسبقه إليها أحد من المسلمين، ونظم هذا الشعر الذي لم يشاركه فيه شاعر وفيلسوف؟

على أن أمر أبي العلاء هين، فقد فسره بعض مؤرخي الآداب العربية في أول هذا القرن تفسيرًا لا يخلو من فكاهة، فزعم أن تشاؤم أبي العلاء لم يأته من علة نفسية ولا من عقدة من هذه العقد التي استكشفها فرويد وأصحابه؛ لأن أمرها لم يكن قد وصل إلينا بعد.

وإنما جاء تشاؤمه من علة في المعدة هي عسر الهضم، وجاءه عسر الهضم من التزامه أكل العدس دهرًا طويلًا، فأفسد هذا كله عليه رأيه في الحياة والأحياء وأتاح لنا فلسفته الخالدة الرائعة.

وكذلك فُتِن ذلك المؤرخ الحديث للآداب بالتفسير الطبي لتشاؤم أبي العلاء، كما فُتِن أستاذنا الشاب الدكتور النويهي بالتحليل النفسي في تفسير المجون لأبي نواس.

أما كتاب الأستاذ العقاد فالأمر فيه مختلف أشد الاختلاف، فهو قبل كل شيء لم يتكلف من الشطط ما تكلف الدكتور النويهي، ولم يكد ينأى عن مذهب بعينه من مذاهب الدرس الأدبي وهو التماس الشاعر في شعره.

ثم هو لم يحمل على أبي نواس من الغرائب والأعاجيب ما لا يستطيع أبو نواس أن يحتمل.

فالمذهب الذي ذهب إليه الأستاذ العقاد في كتابه قديم جديد في وقت واحد.

كان القدماء يسمونه الاعتداد بالنفس، وما زال المحدثون يسمونه كذلك أيضًا، ثم أخذ بعض الأدباء الأوروبيين يسمونه النرجسية.

ذهبوا في ذلك مذهب التجديد والإغراب، ذكروا قصة النرجس في الأسطورة اليونانية القديمة فاستعاروها للمعجبين بأنفسهم من الكتّاب والشعراء.

وفي الوقت نفسه ذهب علماء التحليل النفسي هذا المذهب فاستعاروا من قصة النرجس تلك تسميتهم الاعتداد بالنفس، والإسراف في الإعجاب بها حتى يبلغ هذا الإسراف أن يكون مرضًا.

وإذا صدقتني الذاكرة فقد كان أندريه جيد يذكر النرجسية في بعض رسائله منذ أواخر القرن الماضي. ولعل بعض الشباب من أصدقائه الأدباء في ذلك الوقت قد وصفوه بها؛ لأنه كان في كتبه الأولى مشغولًا بنفسه لا يكاد يتحدث إلا عنها.

وقد ذكر الأستاذ العقاد النرجسية بالقياس إلى أوسكار وايلد. وهو من أصحاب أندريه جيد في شبابه أيضًا.

فالأدباء الأوروبيون قد ذكروا النرجسية وأكثروا من ذكرها منذ أواخر القرن الماضي وما زالوا يذكرونها إلى الآن.

فالأستاذ العقاد إذن لم يبعد عن مذاهب الأدباء في حديث النرجسية، ولكنه غلا فيما أعتقد غلوًّا شديدًا في تعمقها على مذهب المحللين النفسيين.

فذكر من مذاهبهم وتجاربهم فنونًا توشك أن تلحق كتابه بكتب العلماء، لولا أنه ليس له معمل ولا مستشفى يجري فيهما التجارب كما يجريها العلماء، وليس أمامه مرضى أحياء يجري عليهم هذه التجارب كما يجريها العلماء.

فهو ينقل لنا علمهم نقلًا، ولا يشاركهم فيه مشاركة صحيحة، ولا يجتهد فيه اجتهادهم، ولا يستطيع أن يبني مذهبه على مثل ما يبنون عليه مذاهبهم من التجربة والاستقراء.

وإنما هو يقرؤهم ويفهمهم وينبئنا بأحاديثهم ويقرِّبها لنا تقريبًا لا يخلو من المشقة والعنف، وإن كان هو قد ألف أن يشق على نفسه ويعنف بها في البحث وفي النقل أيضًا.

ثم هو يسرف على نفسه وعلى أبي نواس حين يجري أحكام النرجسية على الشاعر القديم، كما يجريها المحللون النفسيون على من يفحصونهم من الأحياء.

والذين قرءُوا كتاب الأستاذ العقاد قد وجدوا فيه تفصيلًا كثيرًا عسيرًا لأمر الغدد وتأثيرها في الحياة النفسية للناس حين تختلف وحين تأتلف وحين تلتئم وحين يجور بعضها على بعض.

وهذا كله كلام له قيمته وخطره حين يؤخذ المريض فيفحص فحصًا طبيًّا دقيقًا، وتجري على غدده التجارب المختلفة ويمتحن تأثير هذه الغدد في مزاجه حين يسكن وحين ينشط وحين يعمل وحين يقول.

فأما ذلك البائس المسكين أبو نواس الذي لم يبق لنا منه إلا شعره وفيه كثير مما حُمِل عليه، وإلا أحاديثه وفيها كثير مما اختُرِع وليس له أصل، فالأستاذ لا يعرف من

جسمه إلا ما نقلته الكتب من هذه الأوصاف العامة الغامضة التي لا تكاد تحقق منه شيئًا.

وهو لم يمتحن غدد أبي نواس ولا سبيل له إلى أن يمتحنها؛ لأنها ذهبت فيما ذهب من شخصه. فإجراء الرأي فيه على مذهب المحللين النفسيين لا يخلو من شطط؛ لأننا لا نستطيع أن نحلل من أبي نواس إلا كلامه وكلام الناس عنه.

وفرق بين تحليل الغدد والأجسام كلها وبين تحليل الكلام الذي قاله الشاعر والكلام الذي قاله الرواة.

فتحليل الغدد والأجسام قد يصل بنا إلى بعض الحق، فأما تحليل الكلام فهو ينتهي بنا إلى الظن وقد ينتهي بنا إلى الترجيح.

ولست أدري أيقع كلام الأستاذ العقاد على الشخص الحق لأبي نواس، أم يقع على شخصه الذي اخترعته الخاصة له في أثناء حياته والذي نما وعظم أمره بعد موته؟

أم يقع على هذه الأشخاص الوهمية التي شاعت له في كثير من البيئات الشعبية على اختلاف العصور وعلى اختلاف البلاد والأوطان أيضًا؟

وقد قرأ الأستاذ العقاد كتاب ابن منظور وكتاب أبي هفان، وقرأ أخبار أبي نواس في كتب الأدب على اختلافها، وهو من غير شك يقطع مثلي بأن لأبي نواس في هذه الكتب على اختلافها شخصين متباينين.

أحدهما شخص قال هذا الشعر الذي نستطيع مع بعض الجهد أن نستخلصه ونحققه، والذي يصور إسرافًا في المجون وإغراقًا في العبث، كما يصور إغراقًا في الجد أيضًا، وفي مذاهب الجد على اختلافها في المدح والوصف والرثاء والزهد والصيد، ونحن نستطيع أن نعتمد على هذا الشعر في استخلاص شخص أبي نواس منه على نحو مقارب، لا بقراءة البيت أو البيتين، بل بقراءة الشعر كله أو ما يصل إلينا منه.

وقد فعل الأستاذ العقاد هذا ما في ذلك شك.

وقد فعلته أنا أيضًا، ولكنه ينتهي إلى أن أبا نواس قد غلا في الاعتداد بنفسه حتى لم ير غيرها أو لم يكد يرى غيرها، ففتن بنفسه كما فتن النرجس بصورته في الأسطورة القديمة.

ورأيت أنا أن أبا نواس لم يعتدَّ بنفسه أكثر مما اعتدَّ شعراء كثيرون في أمم كثيرة بأنفسهم.

فصاحب الفن معتدٌّ بنفسه دائمًا إلى حد ما.

واعتداده بنفسه هذا شرط أساسي للتجويد الفني؛ لأنه لو لم يعتدَّ بنفسه وفنه لم يحفل بالشعر ولم يتأنق فيه ولم يحسن الحكم عليه.

ولست أعرف شاعرًا خليقًا باسم الشاعر إلا وله في نفسه رأي يخالف رأي غيره فيه.

والأستاذ العقاد نفسه شاعر وما أظنه إلا قد عرف من نفسه شيئًا من هذا الاعتداد، فلولا رضاه عن شعره لما نشره ولا عرضه على الناس ليقرءُوه فيعجبوا بروعته ويحمدوا قائله، وينتفعوا بما فيه من حكمة وفن.

ولأمرٍ ما تفاخر الشعراء واستبقوا في الشعر ورضي بعضهم عن بعض وسخط بعضهم على بعض. وما أعرف شاعرًا إلا وله من نفسه مرآة ينظر فيها فيطيل النظر قبل أن يظهر للناس، وهو لا يظهر لهم إلا بعد أن يرضى عما تعكس عليه هذه المرآة.

وقد كان اعتداد بشار بنفسه أكثر جدًّا من اعتداد أبي نواس.

فإذا كان أبو نواس نرجسيًّا فلست أدري ماذا يكون بشار؟

أما المتنبي فقد تجاوز في الاعتداد بنفسه الحد الذي وقفت عنده كثرة الشعراء، وهو الذي يقول في أول شبابه وآخر صباه؛ أي في الوقت الذي تظهر فيه النرجسية وتؤتي أول ثمرها:

أي مكان أرتقي! أي عظيم أتقي!
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلقِ
محتقر في همتي كشعرةٍ في مفرقي

وهو الذي يقول حين شارف الخمسين:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صَمَمُ
أَنامُ مِلْءَ جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرَّاها ويختصمُ

وهو الذي يقول في القصيدة نفسها:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وما أعرف أن أبا نواس أو بشارًا أو مسلمًا أو أبا تمام قالوا شيئًا يقرب من هذا.

وكان أبو العلاء في شبابه معتدًّا بنفسه إن صح هذا المذهب حين يقول:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

وما أعرف أن أبا العلاء نسي نفسه قط، فقد كان يذكرها دائمًا بآفته تلك في أول عهده، وبأدبه وفلسفته حين تقدمت به السن.

وما أظن أن أبا العلاء كان نرجسيًّا أو مسرفًا في الاعتداد بنفسه، فالنظرية في نفسها لا تستقيم حين تجري على من سبقنا بهم الموت وعلى الشعراء خاصة.

ففي كل شاعر نصيب من الغرور، وتجويد الكلام نفسه يغري الشعراء بإظهار هذا الاعتداد، لا لأنه من حقائق نفوسهم دائمًا، بل لأن الكلام يواتيهم فلا يقدرون على دفعه.

ويخيل إليَّ أن الأستاذ يسرف أيضًا في أمر النسب وتأثيره في نرجسية أبي نواس إن كان أبو نواس نرجسيًّا.

فشعراء الموالي كلهم كانوا يهتمون للنسب ويكثرون القول فيه، وقد سخر أبو نواس بالنسب والنسَّابين في هذين البيتين اللذين أهملهما الأستاذ العقاد، واللذين يقولهما للنَّسَّابة المعاصر له وهو الكلبي:

أبا منذرٍ ما بالُ أنسابِ مذحج مُغلَّقة دوني وأنت صديقي
فإن تَعْزُني يَأتِك ثنائي ومَدحَتي وإن تَأبَ لا يُسدَد عليَّ طريقي

فالرجل الذي يعبث بالنسب والنسابين إلى هذا الحد لا يحفل في حقيقة الأمر بأن يكون نسبه في العرب أو في العجم، وفي عدنان أو في قحطان، وكان أبو نواس شعوبيًّا كما كانت كثرة الموالي في عصره وقبل عصره، ومنذ العهد الأول لبني أمية. والأستاذ العقاد يعرف من هذا مثل ما أعرف، يعرف من أمر أبي العباس الأعمى وإسماعيل بن يسار، ويعرف من أمر الفقراء والمحدثين من الموالي ما يصور إغراقهم في التنكر للعرب والسخط عليهم.

هذا كله هو الشخص الحق لأبي نواس، فأما الشخص الآخر فهو شخص اختُرِع كما قلت في حياة أبي نواس نفسه، ونرى له في كتاب أبي هفان صورًا لا تخلو من جمال وفيها قبح كثير أيضًا.

فقد اتُّخذ أبو نواس رمزًا للاستهتار والازدراء بكل شيء وإهدار كل قيمة، وجعل الذين يريدون أن يعربوا عن ذات أنفسهم وعما في صدورهم من هذا الازدراء يقولون ما يخطر لهم ثم يضيفونه إلى هذا الشخص الرمزي الذي سموه أبا نواس، وليس أبو نواس بدعًا في هذا، فمن قبله اتُّخذ سقراط رمزًا للإغراق في الفلسفة حتى تبلغ السخف كما صوره أرستوفان في قصة السحاب، حتى ذهب بعض المحدثين إلى أن سقراط لم يكن إلا رمزًا، هزل به أصحاب الهزل وجد به أصحاب الجد.

وما من شك في أن التحليل النفسي لسقراط هذا الرمزي ينتج لنا الأعاجيب، كما أن التحليل النفسي لأبي نواس الرمزي ينتج لنا كثيرًا من الأعاجيب. وقد أنتج لنا النرجسية في كتاب الأستاذ العقاد، وأنتج لنا في العام الماضي ذلك الرجل الذي أصابته عقدة أوديب.

ومن يدري لعله ينتج لنا فنونًا من الأعاجيب إذا مضينا في إجراء التحليل النفسي عليه!

وبعد، فإني أحمد للأستاذ العقاد تصريحه بأنه لم يرد إلى النقد الأدبي بكتابه هذا، ولا إلى الدراسة الفنية لهذا الشاعر العظيم المظلوم.

ولعله أن يفرغ لهذه الدراسة الفنية في كتاب جديد، وما أشك في أنه إن فعل فسيمتعنا إمتاعًا ألفناه منه دائمًا.

جِدُّ أبي نواس

كنت أكتب عن أبي نواس منذ أكثر من ربع قرن، فضاق كثير من المحافظين بما كنت أكتب عنه وعن أصحابه وبما كنت أصور من حياتهم تلك التي أسرفوا بها على أنفسهم وعلى الناس، لكثرة ما أمعنوا فيه من العبث واللهو ومن الدعابة والفكاهة ومن الاستهتار بالإثم والمجون.

ضاقوا بذلك وأشفقوا منه على أخلاق الشباب في ذلك الوقت، وظنوه جديرًا أن يغري الشباب بالخلاعة، ويجنح بهم إلى ما يفسد المروءة، ويفل الحد، ويصرف عن الجد والعمل والارتفاع عن الصغائر والعناية بالمهم من الأمر، حتى اضطررت في تلك الأيام البعيدة إلى أن أبين لأولئك المحافظين أن أبا نواس على لهوه وعبثه ومجونه كان رجلًا عظيم الخطر في عصره الذي عاش فيه، يسمع لأصحاب الجد من العلماء ويروي عنه أصحاب الجد من العلماء أيضًا. فقد اختلف إلى رجال الحديث فسمع منهم ما شاء الله أن يسمع، واختلف إليه رجال الحديث فسمعوا منه ما شاء الله أن يسمعوا كذلك. وكان الشافعي — رحمه الله — أحد الذين لقوه من هؤلاء ورَوَوْا عنه الحديث كما رَوَوا عنه الشعر. واختلف أبو نواس إلى الفقهاء فسمع منهم وقال لهم، وجالس أصحاب الكلام، وشاركهم في علمهم بالإلهيات ومقالاتهم في أصول الدين، وكان بينه وبين المعتزلة وأبي إسحاق النظام منهم خاصة خصومات وخطوب. ثم جلس إلى علماء اللغة ورواة الشعر ونظر في النحو فأحسن النظر وأكثر الرواية للقدماء. وأثر هذا كله في فنه الشعري حتى قال كثير من أئمة اللغة: لولا إغراق أبي نواس في المجون واستهتاره بالإثم لاستشهدنا بشعره على صحة اللغة والنحو جميعًا، ثم هو بعد ذلك قد اتصل برجال السياسة على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم فلقي الخلفاء والأمراء من العباسيين واشتد اتصاله بالرشيد والأمين منهم خاصة ولقي الوزراء والكتاب ورجال القصر على اختلافهم.

وعرف هذه الطبقات كلها من الناس وظفر عندها بالإكبار والإجلال كما تعرَّض عندها لشيء من السخط غير قليل، فقد كره البرامكة وكرهه البرامكة، ونال جوائز الرشيد وذاق سجنه، ونادم الأمين وذاق سجنه كذلك، ورحل بشعره إلى أمراء الأقاليم في شرق الدولة وغربها فمدح أمراء العراق، ومدح أميرًا من أمراء مصر، فلم يكن إذن بالرجل الذي فرغ للإثم والمجون والعبث، بل لم يستغرق الإثم والمجون والعبث أكثر وقته، وإنما كان للجد من حياته نصيب أي نصيب.

ولكن الناس في عصره وفي العصور التي جاءت بعد عصره شغفوا بعبثه أكثر مما شغفوا بجده وصرامته. وليس كل الناس كالشافعي — رحمه الله — يلقى أبا نواس فيأخذ منه خير جده، ويُعرِض عما أسرف فيه على نفسه وعلى الناس.

والناس أبدًا شغوفون بما يسرهم ويلهيهم، معنيون بما يفكِّههم ويسرِّي عنهم، مدفوعون إلى الإغراق في ذلك والتزيد منه والإضافة إليه والمبالغة والإسراف فيما يضيفون، فهم قد تكثروا على أبي نواس فحمَّلوه من الكلام ما لم يقل، وحمَّلوه من الأعمال ما لم يعمل، واخترعوا أشياء يكفي أن ننظر فيها لنسخر منها ثم نقف عندها بعد ذلك، لا لأنها تصور لنا أبا نواس، بل لأنها تصور لنا ناحية من نواحي النفس الإنسانية وهي ناحية الإغراق والغلو، واتخاذ الأحاديث المخترعة وسيلة لا إلى التسلية والتسرية فحسب، بل إلى ما هو أبعد مدى من التسرية والتسلية، إلى شيء من التعبير عن ذات الأنفس والتستر بالأسماء المعروفة عما يضطرب فيها من الخواطر والمعاني والعواطف التي يتحرج الإنسان من أن يجهر بها أو يضيفها إلى نفسه.

فكثير من الناس تمنوا فيما بينهم وبين أنفسهم ألوانًا من الإثم وفنونًا من اللهو لم يتح لهم أن يقارفوها، ولكن نفوسهم تعلقت بها وغلت في مداعبتها، فسروا عنها بهذه الأحاديث التي اخترعوها من عند أنفسهم وأضافوها إلى أبي نواس، وغيره من معاصريه أولئك الماجنين العابثين.

وانظر إلى ما رواه بعض الرواة عن أبي نواس حين وفد على الخصيب في مصر، فقد زعموا فيما زعموا أنه أحب فتى من فتيان القبط والتمس عنده الرضى، فاشترط عليه ذلك الفتى أن يتنصر، ففعل وشارك النصارى في عباداتهم وحفلاتهم، وكرهه من أجل ذلك المتشددون في الدين من أهل مصر فلهج به بعضهم وتعرض لهجائه.

وهذا سخف من السخف ما في ذلك شك، فلم يأتِ أبو نواس إلى مصر تاجرًا ولا عابثًا ولا مبتغيًا للذة السياحة، وإنما وفد على أمير من أمرائها ليمدحه ويأخذ جوائزه،

وكان ضيفًا عند هذا الأمير، فلو قد انحرف عن الدين هذا الانحراف الخطير وخرج منه ليدخل في دين آخر، لما وجد الأمير بُدًّا من أن يُجري فيه حكم الإسلام ويعاقبه عقوبة من كفر بعد إيمان.

ولكن أبا نواس قال كثيرًا من الشعر العابث الماجن حين كان بمصر، كما كان يقول ذلك حين كان ببغداد أو بالبصرة أو بغيرها من مدن العراق والحجاز، فتكثر بعض حاسديه ورووا عنه هذا الإثم العظيم، وأكبر الظن أن الحسد هو الذي حملهم على رواية ما رووا، وأن أبا نواس ظفر عند الخصيب بما لم يظفروا به، ونال منه ما لم يطمعوا فيه فضاقوا بمكانه، وقالوا فيه ما قالوا. وما أكثر ما سعى الوشاة بأبي نواس عند الرشيد والأمين وعند وزرائهما واتهموه بالزندقة، فلم يبلغوا مما أرادوا شيئًا؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يقيموا البينة على ما زعموا، ولأن الرشيد والأمين كانا لا يتشددان في طلب الزنادقة وأخذ الناس بالشبهات كما فعل المهدي فأراق كثيرًا من الدماء بغير حقها.

كان الحديث عن أبي نواس إذن في رأي المحافظين منذ ربع قرن أو أكثر من ربع قرن خطرًا على الأخلاق يُخشَى منه على الشباب أن يتورطوا فيما لا ينبغي أن يتورطوا فيه، فأما الآن فقد تعقد أمر أبي نواس تعقدًا شديدًا حقًّا؛ ففيه أو في الحديث عنه خطر على الأخلاق عند بعض الذين لا يتهمون بالمحافظة ولا يحبون أن يتهموا بها، بل يكرهون ذلك أشد الكره وينفرون منه أعظم النفور؛ لأن حياتهم العقلية والأدبية كلها تأباه إباءً شديدًا.

فالأستاذ سلامة موسى مثلًا ليس محافظًا، ولم يعرف بالمحافظة في يوم من الأيام، وإنما كان في طليعة المجددين، ولقي كثيرًا من العنت في سبيل هذا التجديد، وهو مع ذلك يشفق من أبي نواس على أخلاق الشباب وعقولهم؛ لأنه — فيما يرى الأستاذ سلامة موسى — قد استنفد شعره في المجون وفي هذا المجون المنحرف عما يلائم الطبيعة وما ألف الناس من أمورها. ثم يحاول الأستاذ أن يعلل شذوذ أبي نواس هذا فيرده إلى الانفصال في عصره بين الرجل والمرأة. وواضح أن أيسر ما يقال في هذا الرأي أن صاحبه لم يقرأ شعر أبي نواس؛ لأن أبا نواس لم يستنفد شعره في المجون، وإنما قال في فنون الجد أكثر مما قال في فنون الهزل، كما لاحظ الأستاذ العقاد ذلك منذ أيام؛ لأنه قرأ شعر أبي نواس قراءة المستوعب المستقصي، فلأبي نواس في الزهد شعر حسده عليه أبو العتاهية وغيره من أصحاب الزهد، ولأبي نواس في الصيد شعر ما أحسب أن أحدًا من الشعراء سبقه إليه ولحقه فيه، ولأبي نواس بعد ذلك شعره في المدح وشعره في الوصف

وشعره في الغزل النقي الملائم للطبيعة وما ألف الناس من أمرها، وله كذلك شعره في الهجاء الذي لا إثم فيه ولا انحراف، وأبو نواس يشارك القدماء والمعاصرين له، والذين جاءوا بعده في وصف الخمر والمضي في التغني بها إلى أبعد الحدود.

وكل هذه الفنون من جد أبي نواس ودعابته ليست خطرًا على الشباب، لا تفسد أخلاقهم ولا عقولهم، وليس يكفي أن يقرأ الشاب وصف الخمر ليفتن بها أو يعكف عليها، وما أكثر الذين يعكفون على الخمر وهم يجهلون قول أبي نواس وغيره فيها من الشعراء أشد الجهل وأبعده مدى! ولعلهم لا يحفظون فيها بيتًا واحدًا قديمًا أو حديثًا شرقيًّا أو غربيًّا. والناس يقرءُون الغزل منذ كان الغزل، فلا يدفعهم ذلك إلى الهيام بالحب أو الفتون بالنساء. والناس يقرءُون المدح فلا يتكلفون أن يمدحوا، ويقرءُون الهجاء فلا يتكلفون أن يهجوا، ويقرءُون الزهد فلا يزهدون، وما أكثر ما قرأ الناس القرآن وسمعوه فلم يصبحوا نُسَّاكًا ولم يخلصوا نفوسهم للدين! وما أكثر ما قرأ المسيحيون الإنجيل فلم يصبحوا قسيسين ولا رهبانًا!

والناس يتغنون بشعر الصوفية من المسلمين والمسيحيين، ويستمتعون بهذا الشعر دون أن يتصوفوا أو يجردوا أنفسهم من الحياة المادية وأثقالها وأوضارها.

وأخرى لم يوفق فيها الأستاذ سلامة موسى، وهي تفسيره شذوذ أبي نواس بما يسميه بالانفصال بين الجنسين، فلم يكن أبو نواس شاذًّا في عصره منفردًا بهذا الشذوذ، وإنما كان واحدًا من كثيرين لا يبلغهم الإحصاء في القرن الثاني والثالث على أقل تقدير، ولم يكن الانفصال بين الجنسين من الخطورة بحيث يظن الأستاذ في ذلك العصر، فما كان أيسر اللقاء بينهما في ظروف الجد والهزل جميعًا! وإذا كان الحرائر في ذلك الوقت أو بعض الحرائر يتشددن في الحجاب أو يُشدَّد عليهن فيه، فقد كانت هناك أجيال من الإماء وأنصاف الحرائر لا يرين في لقاء الرجال حرجًا، ولا يلقين فيه جناحًا.

وربما كان هذا الشذوذ ظاهرة من ظواهر تلك الحضارة المختلطة التي التقى فيها العرب بأجيال من الناس لم يكن لهم بهم عهد فيما مضى من أيامهم، والذي تحررت فيه الأمم المغلوبة من السلطان العربي الخالص، وظفرت فيه بالمساواة في الحقوق السياسية والاجتماعية، فأسكرها الظفر وأبطرها ما أتيح لها من الحرية، وأبطر الأغنياء والمترفين خاصة ما أتيح لهم من الترف والنعيم فتجاوزوا كثيرًا من الحدود التي لم يكونوا يستطيعون أن يتجاوزوها جهرة حين كان السلطان عربيًّا خالصًا. وليس أدل على ذلك من أنك تقرأ شعر الفحول من شعراء العرب أيام بني أمية فلا تراهم يجهرون بوصف

الخمر ويتجاوزون الحدود في ذكرها، لا نستثني منهم إلا الشعراء الذين لم يتخذوا الإسلام دينًا والذين لم يعرض لهم المسلمون فيما كان دينهم يبيح لهم من شرب الخمر ووصفها. فالأخطل مثلًا يشرب الخمر ويصفها وينشد وصفها بين يدي الخلفاء والأمراء لا يتحرج من ذلك ولا يرى الخلفاء والأمراء عليه بأسًا فيه؛ لأنه كان مسيحيًّا، تبيح له مسيحيته أن يشرب الخمر ويصفها.

فأما الفرزدق وجرير وأمثالهما فما أشك في أنهم كانوا يشربون الخمر سرًّا حين يتاح لهم شربها. فأما وصفها والإفراط فيه والجهر به فشيء لم يكن يرخص لهم به. وهذا الشذوذ الذي نلاحظه عند أبي نواس وأصحابه من الشعراء والكتَّاب ومن الوزراء وبعض رجال السياسة لم يظهر إلا بعد هذه الثورة التي حررت الأمم المغلوبة، وسوَّت بينها وبين العرب في الحقوق السياسية والاجتماعية. فأما قبل ذلك فلا أعرف أن شاعرًا عربيًّا جاهليًّا أو إسلاميًّا انحرف عما ألف الناس في سيرته أو قوله، ولا نعرف أن خليفة أو أميرًا أو رجلًا من رجال السياسية والحكم تورط في شيء من هذا الإثم أو دفع إليه، هي إذن آفة طرأت بعد الثورة العباسية لا قبلها. وقد بدأت دلائل الاستهتار بشرب الخمر ووصفها تظهر في أواخر العصر الأموي حين استهتر الوليد بن يزيد أثناء ولايته للعهد وأثناء خلافته القصيرة باللهو وجهر بالمجون، وتغنى بذلك في شعره خارجًا عما أَلِف بنو أمية وعما أَلِف العرب من الجد والوقار. وقد أدى الوليد ثمن هذا الاستهتار وكان دمه هو هذا الثمن.

فأما الشذوذ الذي نراه عند أبي نواس ومعاصريه فلم يظهر، ولم يجهر به أحد إلا بعد أن قامت دولة بني العباس وتغلب العنصر الأجنبي على كثير من أمور السلطان.

وظاهرة أخرى ليس من ملاحظتها بُد وهي أن الشعراء الذين استهتروا بالمجون واللهو وجهروا بالخلاعة والإثم كانوا جميعًا من غير العرب. كانوا من الفرس أو من أشباه الفرس، من أولئك الموالي الذين أتقنوا اللغة العربية وبرعوا فيها وتفوقوا في فنون الأدب العربي على العرب أنفسهم. ولم يكونوا سكارى بهذا الظفر الذي أتيح لهم حين سوِّي بينهم وبين العرب فحسب، بل كانوا سكارى بتفوقهم على العرب في أخص ما امتازوا به وهو الشعر. وماذا تقول في عصر ينبه فيه بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد؟ فإذا ظهر بين هؤلاء شاعر ينتمي للعرب فنسبه مغمور وعروبته مطعون فيها.

فقد كان هذا الشذوذ إذن دخيلًا في الحياة العربية لأسباب كثيرة أشرت إلى بعضها، ولا أطيل باستقصائها الآن. وأخص ما امتاز به هذا العصر هو هذا التحرر الذي يتجاوز

به أصحابه حدود الحرية المألوفة، فبشار مثلًا لم يكن شاذًّا كأبي نواس وأصحابه ولكنه كان مستهترًا بالعبث والمجون مغرقًا في شرب الخمر ووصفها مستخفًّا بالحرمات حتى خيفت منه الفتنة على النساء. وهو في الاستهتار بالغزل المؤنث كأبي نواس وأصحابه في الاستهتار بالغزل الشاذ والمذكر كما كان القدماء يقولون.

ونتيجة هذا كله تقتضينا أن نرد هذا الغلو في المجون والاستهتار باللذات لا إلى أسباب تتصل بأشخاص الشعراء والماجنين المستهترين، فهم لم ينفردوا بشيء من ذلك، ولا إلى أسباب تتصل بالاختلاط والانفصال بين الجنسين؛ بل إلى أسباب تتصل بالسياسة قبل كل شيء، تتصل بهذه الحرية التي أتيحت لأمم سبقت العرب إلى الحضارة وإلى الحضارة المترفة التي بلغت قبل انتصار العرب درجة من الضعف والتهالك والانحطاط لم تعرفها في أيامها الأولى. فلما انتصر العرب وفرضوا سلطانهم ونظامهم الديني الصارم على هذه الأمم المتحضرة التي ضعفت سياستها وأدرك أخلاقها ونُظُمها الاجتماعية الفساد والانحلال، خضعت هذه الأمم للسلطان الجديد وأسرَّت غيظها وبغضها وأسرَّت مع الغيظ والبغض فساد أخلاقها وانحلال نظمها الاجتماعية. حتى إذا كانت الثورة العباسية وانتصر المغلوبون تحققت المساواة بينهم وبين الغالبين، وانطوى العرب على أنفسهم، واستقر كثير منهم في الجزيرة العربية والأمصار الإسلامية مغلوبين بعد أن كانوا غالبين ومقهورين بعد أن كانوا قاهرين، أظهرت هذه الأمم ما أسرَّت، وأعلنت ما أخفت، وجهرت بما كانت تجمجم به ولا تكاد تبين عنه من بغض العرب والخروج على ما جاءوا به من نظام وسياسة ودين أيضًا.

وكذلك ظهرت الشعوبية وظهرت معها عقدها الكثيرة والتواءاتها المختلفة، واستأنفت الأمم المغلوبة حياتها تلك المنحلة التي مازجها الفساد. وهذا هو الذي يفسر شعوبية بشار ومعاصريه واستهتارهم بالخروج على النظام والانحراف عن الدين، يجهرون بذلك ولا يخفونه ويتعرضون بذلك لسخط السلطان وبطشه، ويفسر كل ما نراه عند أبي نواس، وحماد عجرد، ومطيع، ومسلم، والرقاشي، وأمثالهم من الشعراء والكتَّاب ومن الوزراء ورجال السياسة، وقد احتاجت هذه الثورة الجامحة إلى وقت غير قصير لتثوب إلى شيء من الرشد، وتثُوب من جموحها الذي جار بها عن القصد، وتصير إلى شيء من الاستقرار والالتئام والانسجام — إن صح هذا التعبير — بين القديم والجديد أو بين ما جاء به العرب وما كان مخبوءًا في نفوس هذه الأمم من الخير والشر جميعًا. وكان القرن الثالث أو أكثره على الأقل هو العهد الذي تحقق فيه هذا الاستقرار.

مهما يكن من شيء فقد كان أبو نواس شاعرًا كغيره من الشعراء الذين عاصروه، أتيح له التفوق والامتياز فكلف به الناس وافتنوا في فهمه وتفسيره وحملوا عليه ما حملوه، وأضافوا إليه ما أضافوا، وجعلوا منه شخصية أشبه بشخصيات الأساطير منها بأي شيء آخر، فليس شعر أبي نواس أشد خطرًا على أخلاق الشباب إذن من شعر بشار أو شعر مطيع لو أتيح لشعر بشار وشعر مطيع أن يُحفَظا ويشيعا كما حُفظ شعر أبي نواس وأشيع. وليس شذوذ أبي نواس بدعًا من شذوذ أمثاله من المترفين في ذلك العصر وفي غيره من العصور، وينبغي أن يرد هذا الشذوذ إلى الإسراف في الترف، وإلى الأسباب الاجتماعية التي تأتي من ضعف الأخلاق وانحلال النظم أكثر من رده إلى الأسباب التي تتصل بالأفراد. ثم أصبح أبو نواس بعد ذلك خطرًا على التفكير العالمي نفسه لهذه الأسباب التي أشرت إليها من جهة ولما بينته في حديث الأسبوع الماضي من جهة أخرى ولأننا بعد ذلك ألفنا أن ندرس الشعراء والأدباء فنبحث عن أشخاصهم، وربما ألهانا ذلك عن ألوان أخرى من البحث هي أعظم خطرًا من أشخاص الشعراء وهي ظروف البيئة التي يعيشون فيها.

فالشاعر أو الكاتب لا يستمد أدبه من شخصه وحده، ولو استطعت لقلت إنه لا يستمد شخصيته من شخصه وحده، وإنما يستمد أكثر فنه وأكثر شخصيته من أشياء أخرى ليس له حيلة فيها، وليس لطبيعته ومزاجه وفرديته فيها كل ما نظن من التأثير. وأكاد أقول مع القائلين إن الفرد نفسه ظاهرة اجتماعية، فهو لم يأتِ من لا شيء وإنما جاء من أسرته أولًا، ولم يكد يرى النور حتى تلقته الحياة الاجتماعية فصورته في صورتها وصاغته على مثالها وأخضعته لمؤثراتها التي لا تحصى، فعنصر الفردية فيه ضئيل لا يكاد يُحَسُّ إلا أن يمتاز هذا الفرد، وامتيازه نفسه يرد في كثير من الأحيان إلى الحياة الاجتماعية التي أنشأته.

كل هذا يُظهِر في وضوح وجلاء أن التفسير النفسي لأبي نواس وغير أبي نواس من القدماء الذين لم يبقَ لنا منهم إلا فنونهم، فيه كثير من الشطط وهو إلى الظن والفرض أقرب منه إلى اليقين والتحقيق.

وانظر مثلًا إلى هذه القصة التي يرويها القدماء عن أبي نواس حين جلس مع جماعة من أصحابه وأخذوا في بعض لهوهم، فذكر أصحابه انحرافهم بهذا اللهو عن الدين وإسرافهم على أنفسهم، وأبو نواس ساكت لا يقول شيئًا، فلما سألوه عن سكوته أنشد هذين البيتين:

يا ناظرًا في الدين ما الأمر   لا قــدرٌ صــحَّ ولا جــبــرُ
ما صحَّ عندي من جميع الذي   تـذكـر إلا الـمـوتُ والـقـبـرُ

فضاق أصحابه بهذا الشعر ولاموه عليه أشد اللوم وأعنفه وأنذروه بالقطيعة فأظهر الندم وقال:

أيــة نــارٍ قــدح الــقــادح   وأي جــد بــلــغ الــمــازح
لـلـه دَرُّ الـشـيـب من واعظ   ونـاصـح لـو قـبـل الـنـاصـح
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى   ومـنـهـج الـحـق لـه واضـح
فـاسـمُ بـعـيـنـيـك إلـى نـسـوة   مـهـورهـن الـعـمـل الـصـالـح
لا يجتلي الحَوراءَ من خِدْرِها   إلا امـرؤ مـيـزانـه راجـح
من اتـقـى الـلـه فـذاك الـذي   سيق إلـيـه المتجر الـرابـح
شَمِّر فما في الدين أُغلوطة   ورُحْ لـمـا أنـت لـه رائـح

فأول شيء ألاحظه في هذه القصة هذا الانتقال المفاجئ بين هذين الفنين من الشعر. فأبو نواس في البيتين الأولين يائس من البعث والنشور لا يرجو ثوابًا ولا يخاف عقابًا، لم يصح عنده من أمر الدين شيء، بل لم يصح عنده من عاقبة الحياة إلا الموت والقبر. ثم هو في الأبيات الأخرى مؤمن ممعن في الإيمان يلوم المتهاون في أمر دينه ويحبب إليه الطاعة والتقوى، ويقطع بالثواب والعقاب، ويذكر الجنة والحور العين والطريق إلى الظفر بنعيم الآخرة، ثم يجزم في البيت الأخير بأن الدين صحيح كله.

شَمِّر فما في الدين أُغلوطة   ورُحْ لـمـا أنـت لـه رائـح

وأكبر الظن أن الشعر صحيح قاله أبو نواس، ولكن القصة صنعت وتكلفها صانعوها تكلفًا ليظهروا أن مجون أبي نواس كان يدفعه إلى الشطط، وأنه كان يرجع إلى نفسه فيردها إلى القصد والاعتدال، وأكبر ظني أن أبا نواس قال البيتين الأولين في ساعة من ساعات لهوه وعبثه أو في ساعة من ساعات ضيقه وسأمه، وقال الأبيات الأخرى في ساعة من ساعات رجوعه إلى نفسه وشعوره بالحاجة إلى شيء من الندم والتوبة والاعتذار.

وأكاد أقطع بأن شعر أبي نواس كله إنما كان شعرًا تمليه عليه حياته كما كان يحياها، تضعف نفسه وتنقاد لأهوائه فيلهو ويسرف في اللهو ويزيِّنه لنفسه وللناس، ثم يثوب إلى رشده ويكره من نفسه ضعفها وتقصيرها وقصورها عن الجد فيندم وييأس ويزين الندم والتوبة لنفسه وللناس. وربما قال الشعر في المجون واللهو لمجرد الاستجابة للفن، فأتقن ما أراد أن يقول وصدَّق الناس ما قال من ذلك. ثم ربما قال الشعر في الزهد مستجيبًا للفن أيضًا لا لنزعة دينية خاصة ولا لرغبة في التوبة ولا لطمع في الثواب، بل لأنه شاعر ليس غير.

وصدق الله العظيم حين وصف الشعراء بأنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون. والعبرة التي استخلصتُها من شعر أبي نواس حين درسته أيام الشباب، وما زلت أستخلصها منه إلى الآن هي أن شعر أبي نواس إن صور شيئًا فإنما يصور استخفافًا بالحياة وسخطًا عليها وجنوحًا إلى التشاؤم يذهب بتشاؤمه مذهب الاستمتاع بالحياة ما أتيح له الاستمتاع؛ لأنها أهون عليه من أن يأخذها على أنها جد.

والناس يذهبون في التشاؤم — كما تعلم — مذهبين: مذهب الاستخفاف والاستهانة والاستعانة على الحياة بما فيها من الطيبات، ومذهب البغض والخوف والضيق والاستعانة على الحياة بالزهد فيها والانصراف عنها والارتفاع عن نقائصها. فأبو نواس عندي متشائم ولكن تشاؤمه باسمٌ، وأبو العلاء متشائم ولكن تشاؤمه عابسٌ، أو قل أبو نواس متشائم يقيم تشاؤمه على الاستخفاف والعبث، وأبو العلاء متشائم يقيم تشاؤمه على الجد والحذر، وكلاهما يحيا الحياة كما ينبغي أن يحياها الناس، وكلاهما يسرف على نفسه وعلى الناس في الهزل أو في الجد، وخير الأمور أوساطها.